

فريد الفالوجي

مذكرات أخطر جاسوسة عربية للموساد

أمينة المفتي أوراق منسية



اليوم - ١٨ سبتمبر ١٩٧٣ - زرت شقتي بضييونا وأنا بطريقي لإسرائيل كان جسدي يرتعش وأنا أصعد الدرج، وفشلت مرات في معالجة الباب. وعندما أضأت الأنوار واجهتني صورة موشية الكبيرة باللباس العسكري. فمسحت زجاج الإطار وقبلته، وعلقت باقة من زهور البانسيه التي يحبها إلى جواره. لقد خيل الي أن ابتسامته الرائعة تفيض بالعتاب . . بل هي كذلك. فتذكرت . . يا لغباي . . كيف دفعته بنفسه إلى نهايته، عندما شجعتة على الهجرة لإسرائيل. حاولت أن أستعيد ابتسامته فلم أنجح.

مذكرات أخطر
جاسوسة عربية للموساد
أمينة المفتى.. أوراق منسيه



فريد الفالوجي



الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

مذكرات أخضر جاسوسة عربية للموساد

أمانة المفتي.. أوراق منسيه



اسم الكتاب : مذكرات أخطر جاسوسة عربية للموساد

اسم المؤلف : فريد الفالوجي

المراجعة اللغوية والتدقيق : طه عبدالرؤوف سعد

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٠٧/٢٧٣٤٧

الترقيم الدولي : 3 - 363 - 376 - 977 I.S.B.N.

التفويض الفني : أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفني : محمد وليد ناصيف

الإشراف العام : أ. أسعد بكري كوسا

تطلب كافة منشوراتنا :

حلب : دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت : ٢٢٥٦٨٧٠

دمشق : مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت : ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النوري - أمام البريد - ت : ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت : ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت : ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني - ت : ٢٢٢٢٣٧٢

تحذير :

جميع الحقوق محفوظة لدار الكتاب العربي للنشر وغير
مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو
تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله
بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون
أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

حقوق الطبع

محفوظة

الطبعة الأولى

٢٠٠٨

E-mail:darkitab2003@yahoo.com

E-mail:darkitab-Nassif@hotmail.com



دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي هاتف: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٢٤٨٢٥ فاكس : ٢٢٤٧٢٩٧

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس : ٢٣٩١٦١٢٢

لبنان - تلفاكس : ٤٣٤١٨٦ / ٥ - تليفون : ٦٥٢٢٤١ / ٠٢ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات

شكرو وتقدير

أتوجه بخالص الشكر والعرفان.. لكل من ساهم في خروج مذكرات أمينة المفتى إلى النور.. بعدما كانت عرضة للتلف والمجهول.. وأخص بالشكر السادة في سوريا ولبنان:

الأستاذ/ أحمد أبو شكيب.

الأستاذ/ نبيل حمزة الرساسي.

الأستاذ/ رعد وفائي العاملي.

الأستاذ/ كميل إسحق الطرابلسي.

فبفضل تعاونهم المخلص الصادق.. وإحساسهم بالمسئولية وبقيمة هذا الملف التاريخي.. ومدى أهميته للقارئ والباحث والمهتم.. ما تحرر هذا العمل من قيود الروتين والنسيان.

إليهم جميعاً أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان..!!

فريد الفالوجي

الزهر

إلى الأمير الأحمر.. وفدائي الثورة الفلسطينية
الأشهر.. قائل القوة «١٧».. وبطل مذبحة
ميونيخ.. على حسن سلامة.. سليل أسرة
النضال والفداء.. وابن منظمة التحرير
الفلسطينية الوفي.. وشهيد الجهاد..
والبطولة.. والكفاح..!!

المؤلف

مدخل

على مدى تاريخ الحروب السرية بين المخابرات العربية والموساد، لمعت أسماء ثلاث نساء عربيات خائفات، استرخصن بيع عروبتهن، وعملن بشراسة لصالح إسرائيل، هن: «هبة عبد الرحمن سليم عامر»^(١)، و «انشراح موسى»^(٢)، وهما مصريتان، وكانت الثالثة: «أمينة داوود المفتى» الأردنية.

كانت أمينة المفتى بحق، حالة فريدة من نوعها، لا تكاد تماثلها حالة أخرى تقترب من أحداثها وتفاصيلها في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي.

ولدت أمينة عام ١٩٣٩ في عمان لأسرة شركسية الأصل مفرطة الذكاء. وذات مركز اجتماعي مرموق، فوالدها تاجر ثرى معروف، وأمها سيدة مجتمع من الطراز الأول تجيد التحدث بلباقة بعدة لغات، أما عمها، فكان برتبة لواء في البلاط الملكي الأردني.

(١) هبة سليم: أول وآخر جاسوسة عربية للموساد نُفذَ فيها حكم الإعدام شنقاً، وكان ذلك، بعد حرب أكتوبر مباشرة، بعدما أعدم خليفها المقدم «فاروق الفقي» رمياً بالرصاص قبيل الحرب بوقت ضئيل، وتعد هبة سليم أول جاسوسة يتم تجنيدها في أوروبا لأسباب أيديولوجية بحتة، بعيداً عن الجنس أو المال أو مأرب أخرى، كانت هبة تدرس في السوربون حيث «سقطت في بئر الخيانة». وعندما زارت إسرائيل كانت طائرات سلاح الجو في حراسة طائراتها، تماماً كما يستقبل الرؤساء وملوك الدول، والتقت برئيسة الوزراء «جوالدا مائير» حيث وقف عشرة جنرالات لتحياتها، وتمكنت المخابرات المصرية من استدراجها إلى ليبيا، وهناك ألقى القبض عليها لتحاكم في القاهرة. (انظر كتابنا: جواسيس الموساد العربي، عن مكتبة مدبولي بالقاهرة).

(٢) انشراح موسى: تجسست لصالح الموساد ضد مصر هي وزوجها وأولادها الثلاثة. وفي حين أعدم زوجها شنقاً أفرج عنها السادات لمفازلة مناحيم بيغن فترة الإعداد لاتفاقية السلام مع إسرائيل، وانتقلت انشراح مع أولادها إلى إسرائيل لتعيش أسوأ أيام حياتها هناك، حيث تجاهلتها الموساد، وفوجئت باحتقار الشعب الإسرائيلي لأنها «خائنة باعت وطنها من أجل المال.

(جاءت قصتها كاملة على مدى ٢٧٢ صفحة بكتابنا: «الملازم أول دينا عمر.. جندها زوجها فجندت أولادها الثلاثة»، الصادر عن دار «أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي». القاهرة).

وفى المرحلة الثانوية، أوغلت فيها مظاهر الأنوثة المبكرة، فبدت رقيقة الملامح، عذبة، شهية، طموحة، ذكية، وبرغم تقاليد أسرتها والمجتمع «البدوى» الذى يحيط بها، كانت تسخر من تقاليد الشرق وقيوده، وتسعى دائماً لأن تحطم مظاهر «التخلف»، تحدوها أحلام الانطلاق، والحب، والحرية.

وفى ثورة تقلباتها، أحبت «بسام» الفلسطينى الأصل رقيق الحال، وأطلقت تجاهه فيضانات المشاعر المتدفقة بلا حدود.. مشاعر بكر تلتحف بصدق الحب العذرى، إلا أن الشاب الفقير فر منها خوفاً من ظروفها، وظروفه.. فالفارق الكبير بينهما أبعده ودفعه إلى البعد عنها.

لكن أمينة صدمت بشدة عندما عرفت بأنه هجرها وارتبط بفلسطينية فقيرة مثله، أجمل منها، وأكثر اتزاناً، وكتب لها رسالة قصيرة يقول فيها:

- «أنت أنانية.. مفرورة.. غضوبية.. شرسة الطباع.. تؤمنين بأن المال يمكن أن يشتري كل شيء.. نعم هذا حقيقى.. لكن من المحال أن يشتري الحب بالمال!!» هكذا كشف لها الحبيب عن مساوئ تنشئتها، وأسلوها الخاطئ فى فهم الحياة.. ومنذ تلك اللحظة السوداء فى حياتها، تملكها رغبة مجنونة فى الثأر والانتقام.. وانقلبت مشاعر الحب عندها إلى كراهية مقبنة لكل فلسطينية زميلة لها فى المدرسة.. بل ولكل ما هو فلسطينى على الإطلاق.

ولدت هذه التصارعات النفسية أثراً سلبية على دراسة أمينة المفتى.. إذ حصلت على الثانوية العامة بدرجات ضعيفة، دفعت عائلتها للتفكير فى تسفيرها إلى أوروبا للالتحاق بإحدى جامعاتها، وهذا تقليد متبع بين أبناء الأثرياء فى الأردن، والشراكسة عموماً.

فى عام ١٩٥٧ التحقت أمينة المفتى بجامعة «فيينا»، وأقامت بالمنزل رقم «٥٦» شارع يوهان شتراوس^(١) لعدة أسابيع، قبلما يفتح القسم الداخلى

(١) بعد أن أخرجت أمينة المفتى من تحت الرماد وأعلنتها للعالم، تسابقت الأقلام للكتابة عنها.. ففى «آخر ساعة» - العددان ٣٧٤٩، ٣٧٥٠ - ادعى مراسل المجلة فى النمسا وبطريقة استخفاف، أن =

بالجامعة أبوابه لإقامة الطالبات المغتربات المستجندات.

لقد أسبغت الحياة الجديدة على الفتاة الأردنية سعادة غامرة، ومع حياة الحرية التي كم تمنيتها وحلمت بها تعلمت التدخين والشذوذ، وأدمنت التساقق مع زميلة لها من جوهانسبرج، حيث رأت في هذا الفعل الخبيث انطلاقها وتحررها من قيود الشرق، والخلج.

هكذا مرت بها سنوات الدراسة بجامعة فيينا، وتحصل في النهاية على بكالوريوس علم النفس الطبي^(٢) Medical Psychology، وتعود في أغسطس ١٩٦١ إلى عمان مكرهة، تضج بالنفور والفضب، حيث كانت تحمل بداخلها طبائع أخرى، وأحاسيس مختلفة، وآلام الهجرة إلى القيود والرقابة.

= زملاء أمينة المفتى في الدراسة (لم يذكر اسماً واحداً) لم يكونوا يعلمون بقصتها إلا بعد أن قرأوا الحلقة الأولى من قصتها في «آخر ساعة»، لذلك أصيبوا بصدمة شديدة، متجاهلاً كتابي الذي صدر منذ سنوات عن تفاصيل حياتها، والتي نقلها السيد المراسل - محمد الحريري - عن هذا الكتاب بما به من وقائع وأسماء قمت بإضافتها لزوم الحبكة، وكان زملاء أمينة في النمسا كانوا جهابذة في اللغة العربية ومن عشاق «آخر ساعة»، لذلك أصابتهم الصدمة.. وبعد أن لخص السيد المراسل كتابي، ادعى بفخر، وياله من فخر، أن آخر رقم زوجي في شارع يوهان شتراوس هو رقم ٤٢، وياله من مجهود خارق واكتشاف عظيم، المثير أن أحد رؤساء تحرير «آخر ساعة» السابقين والذي يعمل حالياً رئيساً لتحرير مجلة «م. ص.» نشر كتابي في حلقات مسلسل بجزيرة كويتية مقابل مبلغ مالي كبير، مدعياً أنها للمرحوم «صالح مرسى» طالباً عدم كتابة الاسم منعاً للمشاكل مع الورثة.

كذلك نشرت القصة في حلقات بجزيرة «الحقائق» اللندنية بقلم د. سمير قديح الباحث الفلسطيني الذي سطا على أغلب أعمالي ونشرها باسمه على الإنترنت والعديد من الصحف في الدول العربية ومصر، واتخذتها عشرات من الصحف المصرية مادة دسمة للنشر العلني كأنها بلا صاحب لأن قانون الملكية الفكرية مجرد حبر على ورق، والمعجب، أن أحد قيادات الأمن السابقين، يعد كتاباً عن أمينة المفتى اعتماداً على «كتابي» عنها، وقد صرح لي بذلك أثناء جلسة جمعتنا أثناء انعقاد معرض الكتاب الدولي في يناير ٢٠٠٧.

(٢) علم النفس الطبي: فرع من فروع الطب يدرس في أوروبا، مختص بدراسة استجابة الشخص للمرض، بهدف خلق أكفا ظروف تناول المريض علاجياً، بما يتفق مع ملامح شخصيته الفردية، كما أن هذا الفرع يختص بطرق البحث السيكولوجي التي تستخدم الدراسة الإكلينيكية للحالة العقلية للمريض، فما يتصل - ليس فقط بمرض ذاته - بل أيضاً بالإمكانات التعويضية الكامنة في شخصيته.

بيد أنها فى غمرة معاناتها هذه، لم تكن لتتسى حبيبها الأول - بسام - الذى رفض حبها وغرورها ووضعها الاجتماعى والطبقى، فجابت عمان طولاً وعرضاً بحثاً عنه، حتى هزتها الحقيقة المرة الدامية عندما علمت بأمر زواجه من فتاته الفلسطينية الفقيرة، عند ذلك حوصرت بين الهموم والملل والحقد والكراهية، ولم تجد حلاً لأزمته النفسية إلا فكرة السفر ثانية إلى النمسا، بدعوى استكمال دراستها العليا لنيل الدكتوراه، عازمة على ألا تعود إلى الشرق أبداً إذا ما أتحت لها الفرصة لتحقيق ذلك.

فى فيينا، تمادت أمينة فى احتقار عادات الشرق وتقاليده، وانساققت بلا رقيب وراء أهوائها، فمارست الحرية بشتى أشكالها متجاهلة دينها الإسلامى وكل ما يمت إلى العقلانية بصلة، إلى أن التقت بفتاة نمساوية يهودية الديانة تدعى «سارة بيراد»، عرفتھا بشقيقھا «موشيه» الطيار الوسيم الجذاب، فلم تقاوم أمينة مشاعرھا نحوه، وانزلت معه فى علاقة حب جارف، سرعان ما تحولت إلى علاقة خاصة جداً، محرمة، امتدت لسنوات، وانتهت بزواجها منه بعدما اعتنقت اليهودية فى النمسا، وغيرت اسمها بعد هذا الزواج إلى «آنى موشيه بيراد»، وهو الاسم الذى حملة جواز سفرھا النمساوى الجديد.

تصورت أمينة المفتى أن أحلامها العظمى قد تحققت بهذا الزواج، بيد أنها كانت واهمة تماماً، إذ سرعان ما اكتشف أن الجرم الذى اقترفته لن يروح سُدًى.. فعاشت حياة ملوثة بالخوف والفرع، تساورها الشكوك فى اقتراب انتقام أهلها بالأردن، إضافة إلى مطاردة المخابرات العربية لها، خاصة وعمها يشغل مركزاً مرموقاً بالقصر الملكى، حيث سيسعى بكل وسيلة لقتلها حفاظاً على مكانة الأسرة، وسمعة الشراكسة بالأردن، إلى جانب أن الانتقام السريع منها سيكون رادعاً لكل من تسول له نفسه من الأردنيين الاتصال بالإسرائيليين والتعامل معهم.

لذلك.. مرت عليها الأيام فى فيينا كثيبة مخيفة مرعبة، حتى إنها باتت ترتجف عند سماعها لأدنى صوت خارج البيت أو داخله، فدفعت زوجها دفعاً

إلى الهجرة لإسرائيل حيث ستشعر بالأمن والأمان هناك، وبرغم معارضته للفكرة من أساسها، إلا أنها ألحت عليه باستماتة، وأقنعتة بأنه كطيار حربي سيحظى بالترحيب ويتبوا مركزاً مرموقاً هناك.

وافق موشيه مرغماً، وكتباً معاً استمارة طلب هجرة، ووفق عليها بدون مناقشة، وفي إسرائيل التحق موشيه بسلاح الجو بعدما تقلد رتبة رائد Major وتدريب على قيادة الطائرة «سكاي هوك»، وفي أواخر يناير ١٩٧٣ طار بطائرته باتجاه الجبهة السورية بفرض الاستطلاع الجوي، فأسقطته مدفعية السوريين، واعتبر مفقوداً منذ تلك اللحظة، ذلك أن دمشق في حينها لم تعلن رسمياً عن إسقاط الطائرة الإسرائيلية أو أسر قائدها، لكنها أعلنت فيما بعد بأن الطائرة انفجرت في الجو وقائدها بداخلها^(١).

كانت الصدمة ذات وقع شديد على عقل أمينة «أنى»، فلم تصدق الخبر أو تستوعبه في بادئ الأمر. ثم سرعان ما انتابتها آلام حادة في معدتها، وأخذت تصرخ صرخات ذهول بلا وعى، وتسكت فجأة محمقة في لا شيء، وهي تن أنات الوجع المشوبة بالفجيعة والحسرة، ضاربة صدرها بيديها بقوة نادية حظها، لإدراكها بأنها كانت السبب فيما حل بزوجها الحبيب الذي هاجر إلى إسرائيل لإرضائها.

لأزمها الصراخ والذهول لأيام طويلة، حتى وهي داخل عيادة «كوبات حوليم هستدروت» للأعصاب في «ريشون لتسيون»^(٢)، فاحتيم صوتها، وفقدت

(١) كان الإعداد لحرب أكتوبر على قدم وساق. ومن لم يكن من الصالح استراتيجياً الإعلان عن إسقاط الطائرة الإسرائيلية حتى لا تغير إسرائيل خططها وطلعاتها الاستطلاعية بما يعطى مؤشراً أكيداً على الاستعدادات العربية في التسليح والتدريب، التزمت إسرائيل أيضاً الصمت ولم تعلن عن سقوط طائرتها لأسباب عديدة. حتى إنها لم تقرر بالحادث عندما أعلنت عنه دمشق فيما بعد، وكان هناك خطأ فادح ربما كان وراء ذلك، حيث وافقت قيادة سلاح الجو على طهران موشيه بمفرده بانجاء سوريا دون طائرة أخرى مرافقة، في مخالفة فجأة لكل تحركات الطائرات الحربية والتي لا يسمح فيها أبداً لطيار حديث بالاتجاه بمفرده صوب الأعداء.

(٢) أول مستعمرة يهودية أنشئت على أرض فلسطين عام ١٩٨٢.

شهيتها للطعام والشراب والنوم، أو لنقل إن صدمة الفاجعة أربكت كل وظائفها الفسيولوجية، فصمتت، واستبدلت بهمهمات متحشجة واهنة ونظرات ذابلة ذاهلة، ثم نطقت أخيراً بعد شهر ونصف الشهر، قائلة بأنها تشكك في حادث سقوط الطائرة، وفي البيان السوري المقتضب، وبأن موشيه لا يزال حياً، متخفياً بين الحشائش والمفارات، فهو طيار ماهر وقدراته الفنية عالية جداً.

وفي منزلها - وكانت ترافقها إحدى الإخصائيات النفسيات - كانت تحدث نفسها نهاراً بصوت مسموع، وفي الليل يسمع لها ما يشبه الأنين الخافت الملىء بالوجع، هو بلا شك مزيج متهاك من مشاعر الحسرة والضياع.

لقد أيقنت بأنها صارت وحيدة، غريبة بلا وطن أو هوية، وكان من المستحيل أن تعود ثانية إلى الأردن، أو تعيش هكذا بلا أصدقاء في مجتمع غريب ينظر أفرادهِ إليها نظرة شفقة، وربما نظرة احتقار لأنها تعد في نظرهم امرأة خائنة باعت وطنها من أجل نزوة، أو علاقة محرمة.

من أجل ذلك كان من الأفضل لها أن تغادر إسرائيل، وبعد حسابات وتحليلات لما ستفسر عنه حياتها المستقبلية، قررت أولاً أن تترث حتى تتحصل على ميراث زوجها، والمكافأة التي ستصرف لها في إسرائيل كتعويض عن موته.

كانت هذه المشكلات والمسائل تؤرق ابنة الشرق الخائنة الهاربة، وبدلاً من أن تلوم نفسها وتعترف بالواقع، صبت جام غضبها على العرب الذين أرهاقوها في الأردن، وطاردوها في النمسا، وضيعوا حلمها في الاستقرار بإسرائيل، فهم آفة مستقبلها المظلم، وسبب نكبتها وفجيعتها في زوجها الذي هربت به حفظاً لحياتها وأمنهما.

ولأنهم هدموا حياتها بموته، تمنّت لو أنها تستطيع الانتقام منهم، فهذا هي وحيدة بائسة بين أناس لا تعرفهم، بل وتجهل لعنتهم وطقوسهم وعاداتهم، وتضاعفت لديها فكرة الانتقام من السوريين والفلسطينيين حتى غدت الفكرة هدفاً تسعى إلى تحقيقه على أرض الواقع، وقوى لديها هذا الأمل بسبب

احتفاظها بجوازى سفرها الأردني والنمساوي، مما سيسهل لها دخول أية دولة عربية وقتما شاءت..!

وقبلهما يعطما الانتظار ويعتريها الجنون، تقدمت بطلب إلى السلطات الأمنية للسماح لها بالسفر إلى دمشق وبيروت لتقص أخبار زوجها، لكن طُلب منها الانتظار، وهذا ما لم تتحمله أعصابها.

لذلك سرعان ما عادت أدراجها إلى النمسا من جديد، وما أن حطت قدميها على أرض مطار فيينا حتى تملكها الخوف والهلع من أن تكون المخابرات العربية تتربص وصولها. هكذا لم تعد هناك بقعة نائية على وجه المعمورة، إلا ووجس الخوف من الانتقام يتربص بها ويقض مضجعا.

من جانبها.. لم تكن الاستخبارات الإسرائيلية لتفوت هذه الفرصة الذهبية. فبين مخالبتها امرأة عربية وحيدة مذعورة. ومنكرة القلب، ترى الدنيا حواليتها كوابيس خوف وظلام ومستقبل غامض، وتضج كراهية لكل ما هو عربي.

وبواسطة إجراءات الإرث والتعويض. حدثت اتصالات، ولقاءات، وعروض تسويقية، إلا أن الزوجة الملتاعة قرأت تفاصيل ما يدور في الخفاء، ولرغبتها الفريزية الشرسة في الانتقام. أبرم الاتفاق في سر، ووافقت أمينة «آنى» بلا تردد على التعاون مع الموساد، مستغلة جوازى سفرها في السفر إلى بيروت ودمشق.

حصلت عملية الموساد على دورة تدريبية مكثفة في فنون التجسس المختلفة، من تصوير، وتشفير، وتلقط الأخبار، والتمييز بين الأسلحة، وتقوية الذاكرة، وأساليب الامتزاج والتغلغل داخل المجتمع الفلسطيني، خاصة في مخيمات اللاجئين، دون إثارة أية شكوك حولها.

سافرت أمينة المفتى أولاً إلى بيروت واستقرت في إحدى الشقق، وكانت مهمتها المحددة هي تقصى أخبار رجال المنظمات الفلسطينية، والمخيمات، ومعسكرات تدريب الفدائيين، والطرق التي يستخدمونها للتسلل إلى شمال إسرائيل.

ومن خلال عملها في المستشفيات الفلسطينية، كطبيبة عربية متطوعة في

خدمة اللاجئين، وبواسطة بعض الأعوان الذين قامت بتجنيدهم^(١)، تمكنت أمينة المفتى من اكتساب ثقة الفلسطينيين، والوصول إلى مكتب ياسر عرفات شخصياً، وأقرب مستشاريه وأعوانه، منهم القدائي الأشهر «على حسن سلامة» رئيس المكتب «١٧» والمسئول العسكري في منظمة «أيلول الأسود» التي نفذت عملية «ميونيخ» عام ١٩٧٢، وأطلقت عليه جولدا مائير لقب: «الأمير الأحمر» وطالبت برأسه مهما تكلف الأمر.

من خلال علاقات أمينة بأعلى المستويات، لكونها طبيبة عربية متعاطفة مع القضية الفلسطينية، أمدت الموساد بأدق أسرار القيادات الفلسطينية من خلال تنصتها على مكالماتهم وتسجيلها، كذلك عرفت أساليب العسكريين في المخيمات، والكثير من المعلومات عن الخلايا، والتنظيمات، والتدريبات، ومخازن الأسلحة والذخائر، فأتاحت للإسرائيليين فرصاً ذهبية لتعقب القيادات واغتيالهم، والاستعداد لصد وإفشال الهجمات الفدائية التي كانت لا تتوقف، كما أمدت الموساد بمعلومات دقيقة عن «على حسن سلامة» وملامح وجهه المجهولة والمشوشة لدى الإسرائيليين.

المثير أن «سلامة» كرجل استخبارات من الطراز الأول، راودته الشكوك حول أمينة المفتى، وفي نهاية عام ١٩٧٥، بعث رجاله لتقصي أخبارها في فيينا، وهناك عثروا في شقتها على أجندة خاصة تحوى مذكراتها حتى مقتل زوجها وعملها مع الموساد انتقاماً له ورغبة في «إفناء» الشعب «الفلسطيني» الذي ينتمى إليه «بسام»!!

أما الجزء الآخر من مذكراتها، منذ اعتقالها في بيروت، واستجوابها، وحبسها خمس سنوات حتى مبادلتها، فقد حرصت أمينة المفتى على تسجيل الأحداث التي عاشتها، وسنوات حبسها داخل الكهف الجبلي الموحش طوال تلك السنوات.

(١) جندت أمينة المفتى كل من: «مانويل عساف»، و «مارون الحايك» الموظفين بتليفونات بيروت، إضافة للأردنية «خديجة زهران» المتزوجة من لبناني وكانت تمتلك محلاً لبيع الملابس.

فى مذكراتها هذه، صورت عملية الموساد شتى انفعالاتها النفسية الدفينة فى تشريح دقيق، وذلك بعدما سمح لها الفلسطينيون بالكتابة فى معبسها، وأمدوها بالأوراق والأقلام، لكنهم لم يسمحوا لها بأخذ مذكراتها هذه معها إلى إسرائيل عندما تقرر مبادلتها.

لقد حزنت «أنى موشيه» وبكت بمرارة، عندما استولى رجال الأمن فى منظمة فتح على مذكراتها، ولم يلتفتوا إلى إلحاحها الشديد عندما كانوا ينقلونها إلى مطار بيروت حيث ستنقلها الطائرة إلى قبرص، وقال لها قائد الحراسة المرافق، إن إسرائيل طلبت مبادلتها هى فقط، ولم تذكر مذكراتها هذه فى المباحثات مع الصليب الأحمر الدولى..(١).

وطوال الطريق من صيدا فى الجنوب إلى بيروت، لم تهدأ للحظة واحدة، وكانت تردد فى أسى:

- «أوراقى.. أرجوكم أريدها.. أنتم لا تحتاجونها فى شىء.. لكنها جزء من نفسى.. وأناأت أوجاعى.. وعذاباتى..».

وقيل أنها لما فقدت الأمل فى أخذ مذكراتها، أوصت أحد الضباط الفلسطينيين المرافقين لها فى الطائرة، ألا يمزقوا أوراقها، كما ألحت عليه أن يعمل رغبتها هذه إلى الرئيس عرفات ومساعديه، وأغلب الظن أن المرأة الخائنة تصورت إمكان استرداد مذكراتها بشكل ودى بواسطة الصليب الأحمر الدولى فيما بعد.

وشاء الحظ أن تنشر الصحف الإسرائيلية مقالات مطولة عن «أمينة المفتى»، أول فتاة عربية مسلمة اجتازت حد المفامرة والخوف، بالزواج من طيار أوروبى يهودى، حثته على الهجرة معاً إلى إسرائيل فيقتله السوريون، فتذهب إلى بيروت لتقصى أخبار زوجها، ولما فشلت، قررت الانتقام من كل العرب ثأراً له.

بين سطور هذه المقالات والتحقيقات، عبرت أمينة عن جانب هام من جوانب حياتها منذ أطلق سراحها وعادت إلى إسرائيل، يسحقها الحزن والأسى.

وفى إسهاب وصفت مشاعرهما الدفينة حيال الأزمات التي مرت بها منذ غادرت بيروت إلى تل أبيب.

بذلك، اكتملت حلقات مذكراتها التي مثلت حالة فريدة أمام أطباء الأمراض النفسية، وكذا الباحثين والمهتمين، وإن كانت فى ذات الوقت تعد ذا قيمة أدبية رفيعة لما تحويه من أوصاف مسهبة عن الخيانة وواد العقل والضمير والدين والمبادئ والتقاليد، وهى تضيف إلى مكتبتنا العربية تصنيفاً جديداً من كتابات الخونة والجواسيس يمكن أن نطلق عليه «أدب الخيانة»، فبالمذكرات تشريح دقيق لشتى الخلجات والانفعالات وردود الأفعال، وكذا كشف لكوامن خلایا الخيانة عند بعض البشر، وهذا ما لم يتوافر بشكل دقيق فى مكتبتنا من قبل.

لكن...

الذى لا يعرفه القارئ، أن المذكرات الأصلية قد اختفت أو احترقت أثناء حصار بيروت سنة ١٩٨٢^(١)، وقصف مبنى منظمة التحرير الفلسطينية، وكنت قد حاولت باستماتة الوصول إلى هذه المذكرات، لكننى أصبت بالإخفاق مرات ومرات، وخطر ببالى بعد طول يأس، أن الإسرائيليين ربما استولوا عليها بطريقة أو بأخرى، لذلك تراجعت همتى فى البحث عنها وإمكان الوصول إليها، إلى أن تحقق أملى بعد لآى، حيث تسلمت صورة ضوئية، سيئة للغاية، (١) بدأت عملية غزو لبنان عملياً يوم ١٩٨٢/٦/٤ حيث تعرضت جميع مواقع القوات المشتركة للقصف الجوى والمدفئ والبحرى لمدة ٥٥ ساعة متواصلة، وبكثافة عالية جداً. وبلغ متوسط نشاط الطيران الإسرائيلى نحو ١٢٠ طلعة فى اليوم الواحد، واندفعت القوات الإسرائيلية بقيادة أرئيل شارون لإحكام حصارها لبيروت، فجر يوم ١٩٨٢/٦/١٣، بعد أن توصل فلييب حبيب المبعوث الأمريكى إلى ترتيب وقف دائم لإطلاق النار بين القوات السورية والقوات الإسرائيلية، لتمهيد الطريق أمام القوات الإسرائيلية لتطويق بيروت، الذى استمر حتى ١٩٨٢/٩/٤. حيث ارتكبت أبشع المذابح فى صبرا وشاتيلا للمدنيين الفلسطينيين العزل، وأرغمت القوات الثورية الفلسطينية على مغادرة بيروت إلى تونس واليمن، مع استخدام كافة أساليب الحرب النفسية والسيكولوجية المضاعطة لتحقيق مصالح إسرائيل وأطماعها فى احتلال الجنوب اللبنانى لتدعيم أمن المستوطنات الشمالية وحدود الدولة العبرية، «وتنظيف» مخيمات اللاجئين فى سائر لبنان من الشباب الثورى...!!

للمذكرات الأصلية، بواسطة صديق قديم تبوأ مركزاً مرموقاً، وكنت قد تصادقت معه في منتصف السبعينيات عندما تعرفنا عن طريق «المراسلة والتعارف»، ففي ذلك الوقت كنت قد أسست «نادى المنصورة للتعارف» ونشر عنه في بعض المجلات وقتها.

تسلمت صورة ضوئية للمذكرات لا يمكن قراءتها إلا بواسطة عدسة مكبرة، وتخمين وتحليل الكلمات والألفاظ والجمل، وعكفت على دراسة كومة الأوراق هذه، وإعادة كتابتها وصياغتها وتنقيحها، وحذف كل ما بها من ألفاظ فجّة مكشوفة، أو تلك التي لا تتلاءم أدبياً وأخلاقياً.

كان الناشر، الحاج محمد مدبولي، قد ألح على كثيراً، لكي ألتقي بأحد سفراء فلسطين في عاصمة عربية، حيث أنه قرأ كتابي: «أمانة المفتي.. أشهر جاسوسة عربية للموساد»^(١)، ويرغب في الحصول على صورة من مذكراتها، وهو الكتاب الذي جاءت به إشارة إلى هذه المذكرات، وكان هناك أكثر من مسئول فلسطيني مهم، سمعوا جاهدين لنفس الطلب، وكنت أعتذر وأنا أرفض طلبهم في حرج شديد.

وأخيراً، أتاحت الفرصة لأنشر المذكرات للقارئ العربي لأول مرة، عسى أن أكون قد وفقت،

والله الموفق والمستعان..!!

فريد الفالوجي

القاهرة - مدينة نصر

٠١٢/٧١١٢٦٦٢

٠١٢/١٤٩٧١٧٥

(١) الكتاب يصف بالتفصيل حياة أمانة في عمان، وفينا، وإسرائيل، وتجسسها في بيروت، وكيفية كشفها، وطرق استجوابها، وسجنها خمس سنوات في مفارة جبيلية، وأنصح كل من يريد تفهم المذكرات بعمق، بقراءة هذا الكتاب أولاً، لأن المذكرات تكلمة له، لا العكس..!

القسم الأول الأردن (١)

«وقبلما أستوعب ما قاله أبي.. أضاف: إنتي
يا ابنتي خائف جداً عليك.. فهل ترى
ستكون أيامك هناك فروحة كشبابك الفض
البديع.. أم هي رحلة معاناة ستذويين في
محيطها..؟»

٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٦

اليوم هو عيد ميلادى السابع عشر.. لا أشعر بأية بهجة بهذه المناسبة التى طالما كنت أنتظرها وأترقبها بشوق من قبل، لكن اليوم لست أدري لماذا أنا مكتئبة. منقبضة، وتجتأحنى أحزان شلالية الوقع ظالمة.

فمنذ عدت من المدرسة وأنا أميل إلى الوحدة والانزواء، ولا رغبة لدى حتى للتبسم بافتعال، برغم مظاهر الفرحة التى تملأ البيت من حولى، وانشغال أمى بترتيب الحفل ودعوة الأهل والأصدقاء.

ترى.. هل لغياب «بسام»^(١) عن المدرسة اليوم صلة بذلك..؟

كان بالأمس قد هاتفنى ونقل إلى نأى حالته الصحية السيئة. مما قد يعوقه عن مغادرة بيته اليوم.. لكن، ألا يهاتفنى اليوم مهتماً بعيد ميلادى؟

أيعقل أن ينسانى فى هذا اليوم؟

كنت قد ارتديت فستاناً جديداً لأظهر به أمام المدعوين.. وعلقت أمى العديد من قطع المجوهرات الثمينة فى عنقى، وملأت بها أصابعى وصدر فستانى، فلم أعبأ لكل ذلك.. فالجميع يعرفون أن والدى بالغ الثراء، ويمكنه أن يزننى بأثمن المجوهرات، وربما تكون هذه هى المرة الأولى التى ألحظ فيها نظرات الإعجاب من نساء العائلة وغيرهن، اللائى يبحثن عن عروس ثرية وجميلة لابنائهن، وكانت نظرات أمى الفخورة مليئة بالسعادة.

كالعادة، انتهى الحفل مبكراً.. وفى حجرتى كانت هدايا الأصدقاء والأهل تملأ أحد الأركان.. هدايا ثمينة تتناسب مع فتاة من أسرة ثرية مثلى، فلم أهتم بكل ذلك ولم أحصر تفكيرى سوى فى ذلك الحزن الذى يجتاحنى..!

لماذا لا أزال حزينة.. وخائفة..؟

ماذا يا ترى تخبئ لى الأيام القادمة..؟

(١) لم تكن تكتب اسمه صريحاً.. بل تشير إليه بالحرف اللاتينى "B".

امتدت يدي إلى كتاب «الأبراج» الذي لا يبارح حجرتي.. وكان طالعي ببرج
العقرب يحمل أنباء غير سارة تنتظرني.

فقد قرأت أن برجى مائى طبيعته البلغم لأنه بارد رطب، المولودة به تكون
امراً بيضاء اللون تميل إلى صفرة معتدلة الطول، حسنة الوجه مقرونة
الحواجب، ملفوفة الساق، نمامة، مليحة العينين، غليظة الكفل، كثيرة الخصام
والمغامرة، لا تمر بأحد إلا خاصمته، تحب الرجال والترحال، سريعة البطش،
حاذقة نحريرة، ترى أهوالاً كثيرة وتقال حرق نار، ولا تعرف لحبيها قبرا، كلما
كبر سنهما بفضها الناس، ولا ترزق بولد.. أما الحبيب.. فهو أشقر اللون
بحمرة.. أزرق العينين.. مدور الوجه.. أحمر الشفتين.. معتدل القامة.. حسن
الصورة.. بيطنه علامة.. وعلى فخذه شامة.. يحب النساء والخمور.. ويكره
عناقيد البخور.. عمره قصير.. وميراثه وفير.

صدمنى ما جاء بالطالع وأصابنى بالتوتر.. وحاولت أن أهدأ وأكذب ما
جاء به من وصف للحبيب لا ينطبق بالمرّة على «بسام».. فهل ترى صاحب
إنساناً آخر.. أشقر.. أزرق العينين..؟

وحتى إن تحقق ذلك.. فعمره قصير على أية حال.

إذن.. ماضية أنا إلى الحزن والآسى غصياً عنى..!!

١٤ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٥٦:

أهواك.. يا أول من حرك لدى المشاعر.. فرقرق قلبى بحبك الدفوق..
وأرعشت بسمايك سننى عمرى.

قبلك.. كنت لا أشعر بأن لى قلباً بصدري يخفق عندما يحب.. والآن
عرفت أن هذا القلب يدق فى اضطراب، عابد فى محرابك.. وفى كل خفقة
من خفقاته ينطق باسمك.. اسمك أنت وحدك..!!

١٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٦:

هذه الملعونة.. إنها تهدد بدنى كلما جاءتني بغير انتظام بعد كل عدة أشهر.. بكيت بسببها اليوم كثيراً.. وكادت أمي أن تبكى لأجلي.. وأظن أنها أطلعت أبي على الأمر.. فكانت نظراته الحنون لي تحثني على التماسك.. لكن هيهات أن أقدر.

وفي المساء جاء أبي مبكراً وبرفقته الطبيب.. انصرف الرجل بعد ما أعطاني أقراصاً.. بينما بقيت أمي معي تحكي لي حكايات، حفظتها لكثرة روايتها لي.. تتصل بما كانت تفعله في شبابها المبكر مع هذه الملعونة.

وعلى صدرها الدفيء أهدأ... وأنام..!!

٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٦:

طقس بارد يجتاح البلاد.. ويغمر شوارع عمان مطر هطول.. من نافذتي بالطابق الثاني يبدو المطر رائعاً من خلف الزجاج.. إنني أحب المطر حينما تنقر حباته زجاج نافذتي.. وحينما أراه يلمع على أوراق أشجار حديقتنا.

لكنني برغم ذلك أكاد أموت هلعاً إذا ما أرعدت السماء وزمجرت.. وومض البرق الخاطف.. فلحظتها أكاد أصرخ في جنون دون أن أعرف لذلك سبباً.

٢٠ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٦:

تسلمت اليوم الخميس من بسام خطاباً غريباً.

كانت عبارات الخطاب هذه المرة غامضة لا أفهمها.. لكنه على أية حال يتهمني ظلماً بأنني قاسية ولا قلب لي.. وأنني أتلاعب بمشاعره لأجل أن أتفرج عليه وأتسلى به وهو يلاحقني بعواطفه.

هل كتب بسام هذه الرسالة حقاً..؟

ولماذا..؟

إنني لا أكاد أصدق ما قرأته.. فأنا زينة الله.. كما أحبه منذ عرفته في أذار/

مارس الماضي.. ولو أن لديه هاتفاً بالبيت لطلبته الآن وعاتبته لأنه ظلمنى وصدمنى أيضاً.. وما كان له أن يفعل ذلك بإنسانة تحبه، وبمثل هذه القسوة.

بكيت كثيراً عندما قرأت رسالته.. وساكتب إليه لأناقشه فى اتهاماته الباطلة.

إنه يحاول مقابلتى فى أحد المتنزهات.. وحاول ذلك مراراً.. لكننى رفضت ذلك بحسم.. فأسرتى كبيرة.. والشركسيات معروفات.. وأخاف أن يرانى البعض برفقته فيطلع أهلى على سرى ويزوجونى فى الحال لأقرب شخص يطلب يدى. هكذا.. وبسبب نزوة رعناء أترك المدرسة والدراسة.. وأحبس فى البيت كالسجينة حتى يأتى زوج المستقبل.

حاولت كثيراً إفهام بسام أنه لا يقدر المسؤولية ولا يخاف على، فسلوك البنت هو الذى يحدد طريقها ومستقبلها.. وطالما كنت فتاة ملتزمة، مهذبة، حظيت بثقة أهلى وموازرتهم.

بيد أن بسام لم يكن يفهم ذلك.. ولم تكن لديه القدرة ليفهم. (١)

لذلك فقد بدأ يتعامل معى بفضاظة واثقاً من حبى له.. وأننى حتماً سأستجيب لرغبته مهما كانت العواقب.. لكنه كان واهماً.

فماذا أفعل مع هذا المخلوق الأنانى المحير..؟

أحبيته نعم.. لكن خروجى معه فلا.. ١.

إن الأوصاف التى قرأتها عن فتى أحلامى بكتاب الأبراج بعيدة عن ملامحه كل البعد.. لكننى لا أرسّخ هذا التصور بنفسى.. ذلك لأننى أحببت.

نعم.. أحببت بكل كيانى وليس لى خيار.. ١١.

٢ كانون الثانى / يناير ١٩٥٧،

هل أنا غبية وحمقاء إلى هذا الحد..؟

وبخنى معلم الكيمياء أمام زميلاتى بالفصل.. ووقفت كالبلهاء لا أعرف ماذا أقول.

لقد ضبطنى المعلم وأنا اكتب حرف "B" مكرراً بدفتري دون أن أنتبه لشروحه.
زميلاتى ضحككن بينما كنت أبكى فى صمت.. أبكى على حبنى الذى ينسحب
من بين يدى شيئاً فشيئاً.. دون أن أستطيع أن أفعل أى شىء لإبقائه.
بالأمس أخبرتنى صديقتى «خلود» أنها شاهدت «بساماً» يحدث «جيداء»
وكانت تبسم له وتكاد تأكله بعينيهما.

فماذا بينهما إذن..؟

أعرف أن زميلتى «جيداء» أجمل منى إلى حد ما.. لكنها أقل منى بكثير ثراءً
وحسباً.. فأبوها يمتلك مصنعاً للحلويات ولا يرقى بأى حال لمستوى والدى
ومكانته.. لكن «بسام» قد لا يهمه هذا الأمر.

إن ما بدا لى أنه يبحث عن فتاة حلوة تخرج معه.. ويتباهى بعلاقته بها أمام
أصحابه.. ومثله لا يؤتمن كما قالت لى «خلود».. فهو محب للتظاهر وإثبات
الذات، وإبراز قدرته على اجتذاب الفتيات والتلذذ بدموعهن ومطاردتهن له..!!

٤ شباط / فبراير ١٩٥٧:

اليوم، الأربعاء، تأكد لى صدق ما جاءتنى به «خلود».. ففتاى الخائن ارتبط
فعلاً بعلاقة حب مع «جيداء».. وبدأ أنهما فى انسجام إلى أبعد مدى.
ربما كان يتعمد إظهار حبه لها نكاية فى.. أو للتباهى أمام أقرانه.. أو هو
«يمثل» الحب للفتاة المسكينة.

لقد كان فى الأسابيع الأخيرة يتهرب منى ويتحاشى التقاء نظراتنا حتى
وإن كانت بالصدفة.

فَلَمْ ذَلِكَ..؟

يا لحسرتى فى حبنى الأول..!!

تركنى هذا الفلسطينى المفرور ألوك الوجع دون أن يأبه بى.. أهكذا يقابل

الحب بالجحود والأذى..؟

وهل هذا هو الحب الذى تتحدث عنه الكتب وتصدعنا به الأغاني..؟

إننى أمقت هذا الحب.. وأحتقر ضعفى أمامه..!

مزقت اليوم رسائله وحرقتها.. وعندما كنت أنظر إليها والنار تزحف على حروفها أحسست باللهيب فى قلبى.. وعقلى.. حتى صورته الوحيدة التى كانت لدى، حرقتها تشفياً.. ويا ليتة كان إلى جوارى لأحرقه أيضاً كما حرقتى بخداعه وخيانتة.

أهذا هو بسام الذى أحببته ومنحته قلبى ومشاعرى؟

أهذا هو الحبيب الذى اقتحم حياتى بلا استئذان.. فأحالها إلى حياة جديدة تملؤها النشوة والسعادة وأغاريد الحياة..؟

لقد سألته يوماً:

- أتحبنى كما أحبك يا بسام..؟

وماذا تقول لنفسك عما بيننا..؟

وماذا تقول نفسك..؟

فقال لى:

- إن الإجابة أصعب من أن تترجمها الكلمات.

ويومها سألتنى أن أجيب أنا.

لكن بماذا كنت سأجيب وقتها..؟

وأين لى بالجرأة التى تدفعنى لأفصح فى مواجهته عن مشاعرى التى

تنطق بها عيناي وارتجافات قلبى ورعشات حروفى..؟

كان هذا الشعور الجميل قد غزا خلاياى واهتزت له حياتى طرباً وبشراً..

وأدمنت صوت الحبيب الذى يجيئنى عبر الهاتف لدقائق معدودة.. حتى صرت

أنتظر رنين الهاتف يحمل أنفاسه وخفقاته.. وصوته الموسيقى العذب المنغم
الذى يشبه اهتزازات أغصان الورود فى الربيع.. ويمائل ارتعاشات الموج على
صفحة الفدير.. بل هو كعزف نسيم يداعب أجنحة الفراشات الساحرة.

والآن...

حتى بعدما تأكدت لى خداعاته.. واتهاماته لى بأننى فتاة مفرورة شرسة
الطباع وأنانية.. اكتشفت أننى ما زلت أحبه.. أحبه بكل كيانى وجوارحى.. ولا
أجد للحياة طعماً بدونه..!

إننى ممزقة من الداخل.. تصرخ بأعماقى آهات لوعة قاسية.. ويخالجنى
إحساس دافق بأننى تائهة.. ضائعة فى واد سحيق موحش.. مشلولة الأعضاء
بلا حول أو قوة.

إنه إحساس رهيب الوقع مشحون بالقتامة والشجن والمعاناة.. بل هو ملء
بالندم لأننى كنت حمقاء غبية.. لم أستطع الدفاع عن حبى الأول والاحتفاظ به
قوياً صامداً ضد الأعاصير وتقلباتها.

هل يرجع ذلك لأننى فتاة غريبة بلا تجارب.. صادقة إلى حد السذاجة فى
زمن لا يعرف الصدق..؟

وبرغم كل شئ.. أعترف بأننى حتى هذه اللحظة لا أزال أحبه.. ومن
الصعب تخيل حياتى بدونه.. أو تصور أنه فضل على فتاة أخرى وارتبط بها.

تلك الفلسطينية الساذجة البهاء التى سحقتنى بانتصارها على.. فخلفتنى
حطاماً أجرع المرار والألم.. وخيبة الفشل.

حتى هو.. بسام.. تجاهل مشاعرى وحطم كبريائى وعزة نفسى.. وبسهولة
فرق ما كان بيننا.. وداس على حبى المقدس بشماتة دون أدنى اهتمام أو مبالاة.

يا لجبروت الإنسان وطفياهه عندما يملك ويتحكم..!

إننى أنهزم بقسوة أمام ضعفى وأندحر.. وأتفتت إلى جزيئات متناهية

الصفر فأرى أننى لا شىء.. لا شىء مطلقاً.

وماذا هناك بعدما فقدت المقدرة على مقاومة إحساس بالقهر أمام
عواطفى.. ١٩.

* * *

من خلال ما سطرته أمانة هنا، نستطيع أن نتبين بسهولة مدى التخطيط
الذى سيطر عليها، وعدم قدرتها على تصديق ضياع حبيبها منها. فهى تارة
تكرهه وتمزق خطاباته وصورته الفوتوغرافية.. وتارة أخرى تصب جام غضبها
على نفسها لأنها أضاعت حبيبها حفاظاً على كرامتها.. فى حين أنها كانت على
استعداد لمقابلته فى مكان خلوى لكن نظراً لكونها من أسرة مرموقة ومعروفة،
فقد رفضت فكرة الخروج مع حبيبها خوفاً من أن يراها شخص ماً.

كذلك بدت كراهيته لزميلتها الفلسطينية الجميلة التى خطفت الشاب الذى
أحبته.. ويبدو أنها منذ تلك اللحظة كرهت كل ما يذكرها بفلسطين.. وأصبح هذا
الاسم يمثل لديها معانى الخيانة والغدر.. وهو ما انعكس على تصرفاتها فيما بعد
عندما تجسست على الفلسطينيين ليس لأجل مكسب مادي.. أو لاستقصاء أخبار
عن زوجها اليهودى المفقود. بل للانتقام لا شىء غيره..!

وفى مذكراتها التى كتبتهها يوم ١٤ شباط/ فبراير.. سوف نرى مدى ما
أصابها من وهن وتراجع.. وتواضع أيضاً.. حتى أنها بكت بحرقه مؤلمة وهى
تتوسل إليه ألا يظلمها.

لكن يبدو أن الشاب الفلسطينى - الذى لم يكن يخدعها أو يطمع فيها - كان
قد استقر عزمه على إنهاء علاقتهما بالحسنى دون خسائر من أى نوع.. لذلك
اتصل بها معاتباً فى كياسة.. إلا أنها لم تكن بحاجة إلى عتابه بل إلى قلبه
وعواطفه.. وهذا ما لم يتحقق.

تقول أمينة المفتى:

١٤ شباط / فبراير ١٩٥٧،

كأنه الحلم اللذيذ الذى ما اكتمل.. فإلى الآن لا يستوعب عقلى حقيقة ضياع «بسام» منى.. لكن هذا ما حدث.. لقد ضاع الحبيب فضاعت معه بسماتى وضحكاتى.. وحل بقلبى وخز مؤلم يتوحش ويتعاضم ولا يكاد يتركنى لأهدأ أو أستقر.

وبالأمس.. الخميس.. هاتفنى بسام من منزل أحد أصدقائه.. كان الوقت عصراً حينما دق الجرس.. وفوجئت به يطلبنى.. سحبت الكابل إلى غرفتى ودار بيننا حديث طويل وعتاب مر.. وهو يلقي باللوم علىّ ويتهمنى بأننى متعالية وعنيدة كما نشأت كشركسية ثرية.. وأنا أحاول تبرير مواقفى معه والدفاع عن نفسى.

وانفجر الموقف بيننا عندما تحولت المكالمة إلى بكاء متصل أبى أن ينقطع.. كان بكائى أنا.. أما هو فقد لزم الصمت حتى انتهت المكالمة.. ومعها انتهت قصة حبنى الأول إلى الأبد.

قصة الحب التى هددت عمرى.. وسمت بى نحو السحاب ثم قذفت بى إلى الأرض بلا رحمة..!

لقد اكتشفت اليوم كما أنا ضعيفة.. لقد بذلت كبريائى سدى.. وسكبت دموعى دونما أثر.. ودعوت الله فى رجاء أن ينسينى هذا الحب.. وينزع صورة «بسام» من خيالى.. وصدرى.

ترى..

ما الذنب الذى جنيته لأجابه بالصدود والهجران..؟

وإلى هذا القدر من القسوة يواجه بكائى بالصمت واللامبالاة..؟

دموعى هذه ثمينة جداً علىّ.. وسأعوضها ذات يوم إذا أتحت لى الظروف المناسبة.

هكذا نمت بذور الانتقام بداخل أمانة المفتي.. حتى أنها أعلنت عن ذلك صراحة قبل سطرين.. بما ينم عن تضخم هذه الرغبة التي ستسمى لتحقيقها إن استطاعت ذلك.

٢٢ آذار/ مارس ١٩٥٧:

فجر اليوم ماتت خالتي التي كانت مريضة منذ مدة.. وغطت البيت جهامة محزنة اعتلت الوجوه كلها..!!

٢٢ آذار/ مارس ١٩٥٧:

داهمت عصابة من اللصوص متجراً للمجوهرات مجاور لتجر والدي.. واستولوا على كمية كبيرة من المشغولات والنقود بعد أن تمكنوا من فتح الخزانة الفولاذية.

كان والدي شديد القلق لأن متجره أكبر بكثير.. ويبدو أن اللصوص كانوا بالفعل يفكرون في اقتحامه ووجدت خدوش بالأقفال الخارجية.. لكنهم فشلوا.. ومنذ وقع هذا الحادث قام والدي بنقل كميات كبيرة من المجوهرات إلى المنزل.

٥ نيسان/ أبريل ١٩٥٧:

ما يزال خيالي يشطح بعيداً وفكري في انشغال.. حتى أنني لا أقدر على استيعاب دروسى بسهولة.

لقد تصورت أنني أوشكت على نسيان «بسام».. لكنني كنت واهمة.. فهو لم يهجر خيالي بعد.. ودائم الالتصاق بأنسجة عقلي رافضاً أن يفادرنى ويتركنى لأستريح. مراراً حاولت ومازلت أحاول أن أنساه.. لكن ماذا عساي أن أفعل؟..

لقد لجأت إلى الله أن ينسينى حبه.. لكنه يعيش بداخلي غصباً عنى..
وخذعتى ظنوني عندما تصورت أننى قد أنساه.. فإلى متى يصدمنى غبائى؟.. لقد
طلبوا من قيس بن الملوح أن يتعلق بأستار الكعبة ويدعى ربه أن ينسيه حب ليلى..
لكنه تعلق بها وقال: اللهم زدنى لليلى حباً.. ولا تنسى ذكرها إلى يوم القيامة.
فهل أذهب إلى الكعبة أنا أيضاً لأرجو الله أن ينسينى حب هذا الباسم ولا
تخطر صورته ببالى إلى يوم القيامة..؟

إننى لم أجد بعد ولم يذهب عقلى مثل ابن الملوح.. وإن كنت فى خوف مما
سيعتربنى إذا استمر الحال هكذا.

لقد اختفت أخباره عنى.. وبرغم محاولة الظهور أمام زميلاتى كأن أمره لا
يعنينى.. إلا أننى أتشوق لرؤيته ولو من بعيد.. وأتسم أية أخبار تجيئنى عنه.
لكن.. لا أخبار تصلنى.. وكأن زميلاتى تعمدن ألا يتحدثن عنه أمامى..
ولولا خجلى لسألتهن وألححت فى السؤال..!!

* * *

٧ أيار/ مايو ١٩٥٧،

التزمت البيت لتحصيل دروسى استعداداً للامتحانات.. إن علوم «الثانوية
العامة» مرهقة جداً وشاقة.. ووزعت وقتى بين التحصيل والنوم.. عازمة على
حرمان نفسى من مغادرة البيت لأى سبب كان.

إن حديقة بيتنا الخاصة واسعة ومليئة بالورود وأشجار الزينة.. ويكفى أن
أتجول بها بعض الوقت نهائياً لأشعر بانتعاش لذيذ يهبنى القدرة على مواصلة
الاستذكار بقية اليوم.

والدى يحفزنى على النجاح بتفوق لإكمال تعليمى الجامعى فى كلية الطب..
فهو يريدنى طبيبة بأى ثمن ليرتفع قدره بين أفراد العائلة الكبيرة أكثر وأكثر..
وأظن بأننى مهما فعلت أو بذلت من مجهود لن أتمكن من تحقيق رغبته.

ذلك لأننى كنت مشغولة جداً هذا العام بمشكلاتى الخاصة التى أرقّت حياتى وأبعدتني كثيراً عن التحصيل والتميز كما كنت دائماً طوال السنوات الدراسية الفائتة. الآن جاهدة.. أحاول فى وقت قصير محدود تعويض ما فاتنى.. وهذا الأمر يسبب لى ارتباكاً وأرقاً نفسياً يضاعف من توترى.. إضافة إلى انفلات أعصابى لاضطرابات النوم التى تلازمنى.

١٩ حزيران / يونيو ١٩٥٧:

خاب ظن أبى وأمى.. فقد حصلت على مجموع ضعيف فى الامتحان.. إن نسبة ٥٦٪ تعد نسبة هزيلة لن تحقق طموحاتى.. أو ترفع من شأن أبى كما كان يتمنى. حبست نفسى بحجرتى أبكى على مصيبتى.. لكن والدتى جاهدت لتهدئتى والخروج بى من عزلتى.. وفى الوقت نفسه أخبرت والدتى بأن نجاحى المتواضع هذا كان نتيجة لتوترى.. و «الدورة الشهرية».. وضعف بدنى نتيجة عدم إقبالى على الطعام.

وبرغم التهانى التى جاءت من الأهل والأقارب.. فقد كان والدتى يقول أننى تكاسلت فى التحصيل.. ونظراً لتوافر كل الإمكانيات فقد كان من الأجدر أن أنجح بدرجات عالية حسبما كان يأمل.

واصلت المكوث داخل حجرتى أجرع الندم وأبكى لما جرى لى.. لقد كان هذا الفلسطينى الناعم أحد أسباب نجاحى المتواضع.. مأساتى معه أخذت منى الكثير من الوقت.. والآن أشعر بأننى كنت غبية حمقاء.. فكيف ضيعت كل هذا الوقت فى التفكير فى قصة حب فاشلة..؟

لن يفيدنى الندم والتحسر.. ولن يفيدنى أيضاً تعاظم حجم الكراهية التى أشعر بها تجاه «بسام».. إنه السبب الأول فى مأساتى الآن.. ومن الأفضل نسيانه إلى الأبد نكى أشق طريقى بعقل مستريح قادر على التفاعل مع الحياة.

و ذات مساء وأنا غارقة فى خضم معاناتى .. همست لى أمى بأن أبى ألح
إلى إمكانية إلحاقى بإحدى جامعات أوروبا على غرار أبناء الذوات فى الأردن ..
لكن عمى الضابط فى القصر الملكى عارض هذه الفكرة .. بدعوى أننى ما زلت
بعد فتاة صغيرة يخشى عليها من الاغتراب وحدها فى بلاد غريبة بعيدة .
تمنيت ألا يقتنع والدى برأى عمى .. فالسفر للتعليم فى أوروبا منتهى آمالى
وطموحاتى .. وتماديت فى عزلتى كوسيلة ضغط على والدى .. لعله يوافق ..!!

* * *

٢٣ حزيران / يونيو ١٩٥٧:

اليوم ودعت أحزاني وقفزت فوق آلامى .

صعد والدى فى المساء إلى حجرتى وأخذ يحملنى لبعض الوقت .. ثم اقترب
منى وسحبني إلى صدره .. وقبلنى بعاطفة جياشة ثم أجلسنى قبالة وقال لى:
- يا ابنتى .. كم كنت أتمنى أن أراك دائماً طيبة أفخر بها .. ولأن هذا الأمل
لم يفارقنى حتى هذه اللحظة .. فقد فكرت فى إيفادك إلى إحدى جامعات
أوروبا لدراسة الطب .. وبالفعل اتصلت بالسفارة النمساوية للاستفسار عن
شروط الالتحاق بجامعة فيينا .
وبعد صمت للحظات أردف:

- لكن أريد منك وعداً بأن تحققى لى هذه الرغبة .. وأن تكونى فى الغربة
فتاة مهذبة كما ربيتك .. ومجتهدة بما فيه الكفاية .. أريد وعداً ألا يسخر الناس
منى ويتلفظون بالسيء فى الخفاء .. إن ثقى بك كبيرة يا ابنتى .. فعدينى ألا
تتصرفين بحماقة .. أو تجعلينى أضحوكة العائلة والناس فى عمان .
فوعده بما أراد .. وبت ليلتى أرفل فى ثوب الحبور .. وتتهادى من حوالى
عراس الأحلام .

٨ تموز/ يوليو ١٩٥٨،

تم ترتيب كل شيء بواسطة السفارة النمساوية.. حيث استقر الرأي على إلحاقى بجامعة فيينا.. وجاءت الموافقة النهائية أخيراً متضمنة سائر الشروط.

خرجت إلى المحلات مع أمى.. حيث تبضعنا واشترت لى أمى العديد من الملابس.. وعندما كانت تعيد ترتيبها فى البيت كانت تبكى بالرغم من ابتسامتها التى لم تفارق شفيتها.

كنت فى قرارة نفسى أرفض الأزياء التقليدية التى تعرضها المحلات.. وأتشوق بضغف زائد لأزياء أوروبا الحديثة التى تتناسب مع تطلعاتى للحياة الجديدة والمجتمع الجديد.. لكننى لم أكن أبغى مضايقة أمى بالرفض.. وتركها تنتقى لى ما تريد.

ومع حلول الليل وانفراداتى بنفسى شرد خيالى إلى الأيام القريبة التى تنتظرنى فى فيينا.. وكيف لى مواجهة الحياة بها وأنا التى لم أغادر عمان من قبل..؟ وأخذت أتخيل أشياء غريبة وأحلم فى يقظتى.. وأرسم صوراً رائعة لإنطلاقى بعيداً عن تقاليد الشرق البالية.. والأعراف التى لا تتفق مع رغبتى فى أن أحيى حياة مختلفة رائعة.

إن ما يبهجنى حقاً هو أن لا أحد له صلة بعائلتنا يقيم بفيينا.. على العكس من والدى الذى كان يؤرقه هذا الأمر ويشغله كثيراً.. لكنها رغبته على أية حال.. فهو الذى أرادنى طبيبة.. ولأنه يعرف بمدى هلعى لمنظر الجروح والدم.. أراد لى دراسة الطب النفسى.. ورشح له العديد من معارفه جامعة فيينا.. حيث تتميز بوجود قسم «علم النفس الطبى» - MEDICAL PSYSHOLOGY - الذى هو فرع من فروع الطب.. يختص بدراسة استجابة الشخص للمرض.. بهدف خلق أكفا ظروف تناول المريض علاجياً.. بما يتفق مع ملامح شخصيته الفردية.

يختص هذا القسم أيضاً بطرق البحث السيكولوجى التى تستخدم الدراسة الإكلينيكية للحالة العقلية للمريض... فيما يتصل - ليس فقط بمرضه ذاته - بل

أيضاً بالإمكانات التعويضية الكامنة في شخصيته.

ولما اطمأن والدي على أنني سأدرس فرعاً جديداً من فروع الطب الحديث، بحيث لن أدخل غرفة العمليات.. وافق على جامعة فيينا مضطراً.. وإن كان بداخله رفض مكتوم لأنني سأكون غريبة ووحيدة.. بعيداً عن معارفه وأقربائه في باريس وروما وبروكسل.

هكذا تحدد سفرى في أوائل أيلول ولم يتبق لى بالأردن سوى شهر ونصف الشهر.. بعدها سأعانق الحياة وأطير كالقراشات بلا قيود..!!

١٨ آب/ أغسطس ١٩٥٧:

كنت آمل أن أراه قبل مغادرتي لعمان.. هكذا طاف بي الهاجس مراراً وتكراراً.. وحاولت نسيان الأمر.. بيد أن هناك في داخلي كان ثمة إلحاح لا يكاد يتوقف إلا للكر.

حاولت كثيراً أن أنسى هذ الرغبة.. ففشلْتُ.. وكانت أمامي كل الفرص للخروج والتبضع وزيارة الأصدقاء.. لذلك بحثت عنه في كل مكان يفترض وجوده فيه.. إلا أنه اختفى وذاب وسط زحام عمان.

وطوال الأيام الفاتئة حاولت باستماتة العثور عليه أو تلتقط أخباره.. فباءت محاولاتي بالخيبة.. ولولا حيائي لاتصلت هاتفياً بصديقه الذي طالما اتصل بي من منزله.. واعتقد أنني فكرت أيضاً بالذهاب إلى منزله للسؤال عنه.. ثم تراجعْتُ.

وأصابني ضيق حاد لاحظته أهلى على وجهي.. فاعتقدوا أنه القلق والارتباك بسبب التجربة الجديدة والسفر والاغتراب.. وكنت أضحك من ظنهم بيني وبين نفسي.. وأتألم.

صديقتي الوفية «خلود» هي الوحيدة التي تعرف كل ما أفكر فيه.. وتلمس عن قرب تمزقاتي وهمومي.. وبحب، قالت لى يجب أن أنسى.. فالمستقبل مفتوح

أمامى وحتماً سأقابل يوماً ما الشخص الذى يحبنى ويحترمنى .
كانت كلماتها تساعدنى كثيراً على الجلد والتماسك .. وبعد فترة قليلة كنت
أخور لاهثة .. وسرعان ما يطار دنى شبح «بسام» وكنت على استعداد لأن أسامحه
وأنسى إساءاته لى .. لكن ها هى الأيام تجرى وأكاد أغادر عمان وهو لا يعود .
فهل حقاً أستطيع نسيانه فى فيينا ..؟

ليبتى أقدر ..!!

٣٠ آب / أغسطس ١٩٥٧،

حقائبى ملأى بالملبوسات .. وقلبى ملئ بالأسى .. وأرّق عيني الفكر والشرود
والسهر .

المح بعينى أمدى شعاعات حزن تحاول إخفاءها عني .. وأبى فى كل لحظة
يرانى فيها يقبلنى .. ويحتضننى .. وتعهد ألا يقضى وقتاً طويلاً فى المحل حتى
يكون بجوارى أطول وقت ممكن .

أما أخوتى .. فهم أيضاً يعاملوننى بحنان غريب يفوق ما عهدته منهم .. حتى
عمى الذى كان مشغولاً دائماً فى البلاط الملكى .. أوجد وقتاً إضافياً لزيارتنا كل
ليلة قبلما يذهب إلى بيته .

كل هذه المظاهر أزعجتنى .. ورسمت بخيالى صوراً مخيفة للفراق .. إنه
لحدث بشع ذقت مرارة على يدى «بسام» وعرفت ألوان مذاقاته كلها .. فكيف
الحال مع أهلى ..؟

٣ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧،

غداً سأودع عمان وأطير إلى فيينا برفقة والدى .. أمضيت نهاري بحديقة
البيت مع صديقاتى وقريباتى اللاتى فى مثل سننى .. كن يضاحكننى وبوجوه
بعضهن يطفح الحسد .. والحزن أيضاً .. وكنت أبدو متحمسة للسفر وللمستقبل

الجديد المنتظر وبدأخى يقبع مارء من الخوف.

التقطت «خلوء» عدة صور تذكارية جمعتنا معاً بين الزهور والأشجار..
وأحسست بكفها يضغط بقوة على كفى وكأنها تخشى أن أهرب منها.

وعندما صعدت لحجرتى لأنام وجدتنى لا أستطيع.. تمنيت والهاتف إلى
جوارى أن يفعلها «بسام».. لكنه ذهب إلى حيث لا أدرى وتركنى أقلب صفحات
ذكرياتنا.. وأناجيه بلا مجيب.

أحقاً تسينبنى..؟

هل طردنى من ذاكرته بمثل هذه السهولة..؟

طردت هذا الهاجس المؤلم وقمت إلى النافذة لعلى أراه يطوف بيتنا.

كانت السيارات تمرق ولا أحد يكاد يلتفت إلى ناحية شُباكى.. لا أحد يفكر
بمأساتى.. لا أحد يهتم بأهاتى الجريحة التى نرفت.. أو يمسح عنى بعض دمعاتى..
لا أحد.

استأسدت خواطرى ونهشت ذخائر صبرى.. وبقيت متيقظة طوال الليل
يصم أذننى طنين عجيب.. ولم أنم إلا عند الفجر..!

٤ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧،

كان الوداع حاراً مؤلماً دامعاً.. برغم إلحاح عمى على أفراد الأسرة ألا يبكوا
فى الوداع.. وكان هو الوحيد الذى بدأ بشوشاً جلدأ أمام محنة الفراق والوداع.

وحينما حلقت بنا الطائرة فى سماء عمان بكيت غصبأ عنى.. وربت والدى
على كتفى وهو يحيطنى بذراعه ويبتسم مشجعاً.. واستمر اللهب يحرق
أعصابى لساعات طويلة.. وعندما رأيت فىنا من شباك الطائرة هدأت نفسى
قليلاً وقد انشغلت بمشاهدة المدينة وشوارعها الرفيعة ومباينها الأنيقة.

لحظات وشرد عقلى.. وأيقظنى والدى من شطحاتى وقال لى:

- «هذه هى فيينا يا أمينة.. بين بيوتها ومعالمها ستعيشين عدة سنوات.. وكما بكيت وأنت تغادرين عمان.. ستبكين أيضاً ذات يوم وأنت تودعين فيينا إلى وطنك.. لأنك سوف تخلفين مراتع ذكرياتك هنا التى لن تفسد أبداً».

وقبلما أستوعب ما قاله أبى.. أردف:

- «إننى يا ابنتى خائف جداً عليك.. فهل ترى ستكون أيامك هنا فروحة كشبابك العوض... أم هى رحلة معاناة وشقاء ستدوبين فى محيطها العميق؟»
كانت كلمات والدى غامضة بالنسبة لى.. تغلفها نبرة أقرب إلى التحسر والندم.. ربما الندم لأننى سأتبقى وحدى فى خضم هذا العالم والغريب.. ندم القائد العسكرى الذى خطط لإحدى العمليات الإستراتيجية دون دراسة كافية لحال جنوده.

أنهينا إجراءاتنا فى سهوة.. وعندما غادرت صالة المطار فى جنوب شرق فيينا ولفحنى هواء المدينة الجميل.. سبحت مع الأحلام والأمنيات.. وأذهلتنى الشوارع والحدائق والميادين ذات النافورات.. وأصابنى صمت يسيجه الانبهار بالمدينة الساحرة.

تخللت أنسجتى رائحة الورود وعبق التاريخ والفن والعمارة.. فسكرت من النشوى.. واصطخبت بأعماقى أعذب المشاعر.. وها هى ليلتى الأولى فى أوروبا.. ما أروعها من حقيقة لا أكاد أصدقها.

القسم الثاني في النمسا (١)

«إنهم في بلاد الشرق.. في بلادنا.. الناس تحيا في
الزرائب كالغنم.. منافقون افاقون خاملون.. اغبياء
كالصنم..

وعندما كبيرهم يُضْرَطُّ..

يهاللون للفراسة والحكم..

ويؤرخون فساد كبلادة..

فاقت بها شعوبهم كل الأمم..»

٩ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧

ياله من حلم رائع أرى فى يقظتى تفاصيله وأعيها.. حلم يمر أمام ناظرى
حلو المذاق ناعم الملمس.

قد كنت أحيا فى فلاة مجدبة موحشة.. واليوم أخالنى فى جنة الله التى لا
مثيل لها.. جنة ما أبهى تضاريسها الخلافة وروعة صفائها.

إننى ما كنت قبل اليوم أحيا كالبشر.. بل كنت سجينه الجهل مقبرة فى
ظلام التخلف والعادات البائدة البالية.

ليتنى ولدت هنا وعشت هنا.. حيث الحياة بلا قيود أو نواه.. أو متاهات
الغباء التى سكنت بلادى وعششت كغيمة سوداء تحجب النور الذكى.. موروثة
من جيل إلى جيل لا تتدثر أو تدفن بين الكثبان.

فهنا الحياة ملأى ضجيج أغنيات وضحكات.. إنها تموج بلذات ليس لها
من حدود.. لذات أنستنى ذلك الكلب العقور الذى خاننى فى عمان وفرق
كبريائى.

لقد كنت أخشى أن تظل ذكراه تطاردنى وتؤرقنى.. لكننى بصقت على كل
ذكرياتى معه.. نعم.. بصقت على كل لحظة استبد فيها بفكرى.. فبين الزحام
والأضواء هنا تاهت منى ملامحه.. وانسحقت سحقاً فى خيالى.

لكم كنت ساذجة حقاً عندما أحببته.. وظننت أن الحياة بدونها بلا مذاق أو
جمال.. الآن عرفت الحقيقة.. واكتشفت مدى غبائى وجهلى وسذاجتى.. فمن
يعيش بفيينا لا يعرف حزناً أو ألم.

١٠ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧:

اليوم ودعنى والدى وغادر إلى عمان.. ترك لى نقوداً ونصائح.. وسأبقى هنا
بعجرتى وحدى فى «٥٦» شارع «يوهان شتراوس». لقد كان على اجتياز دورة

مكتنفة فى اللغة الألمانية قبلما أنخرط فى دراستى بكلية الطب.. فنجاحى فى الألمانية هو الشرط الأساسى للقيـد ضمن طلبة الكلية.. حيث تدرس العلوم بالألمانية التى هى لغة البلاد هنا.

لذلك التحقت بأحد معاهد اللغات للطلاب المغتربين.. والذى يقع مقره داخل أسوار الجامعة.. وإن كان ذلك لا يمنعنى من الاستمتاع بالخروج والتجوال بحرية بين المتزهات والمحال التجارية.. تساعدنى معرفتى بالفرنسية والإنجليزية فى التحرك.

لكن يضايقنى كثيراً إصرار النمساويين على تجاهل أى لغة.. ويتحدثون مع الأجانب بالألمانية التى لم أفهمها بعد.. والمثير فى الأمر أن لسانى قد تحرك أخيراً واستطعت نطق بعض العبارات المتداولة فى المحال والأسواق.. وإلى حد كبير فقدت توترى وارتباكى عندما أـحدث غرباء..

كنت عكس أغلب الطلاب الوافدين أجد ليونة فى اللغة الألمانية وطريقة نطقها.. لذلك كنت أتقدم فى تعلمها يوماً بعد يوم.. لدرجة أننى كنت أساعد زملائى أحياناً فى شرح ما ندرسه.

* * *

١ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٧

كتبت رسالتى الثانية لصديقتى «خلود».. ضمنيتها وصفاً دقيقاً لحياتى هنا ودراستى فى معهد اللغات. وتعجبت لأمرى عندما أوشكت أن أطلب منها موافاتى بأية أخبار عن «بسام».

ولماذا يخطر ببالى هكذا وأنا فى قمة انشغالى هنا..؟

ترى هل لا يزال يذكرنى..!!؟

١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٧،

انتقلت اليوم لبيت الطالبات المفتربات بالجامعة.. المبنى رائع ونظيف وتحيط به حديقة مزهرة.. كما تطل حجرتي ذات السريرين والحمام على حديقة دائرية خيالية التنسيق.. وجاءت إقامتي مع طالبة بنهائي الطب من «جوهانسبرج» اسمها «جولي باتريك» بقصد تنشيط لغتي الألمانية.

في البداية اعتقدت أنني سأقيم مع فتاة زنجية.. لكنني دهشت عندما وجدتها فتاة شقراء ذات حسن خلاب وضحكة رنانة.

ضحكت «جولي» كثيراً عندما صارحتها باعتقادي الأول.. وأخبرتني وهي تكاد تموت ضحكاً بأنها إنجليزية الأصل.. وأن الأوروبيين البيض من استوطنوا «روديسيا» ويمثلون الأقلية في البلاد.. لكنهم مع ذلك يحكمونها ويعملون على إخراج السكان السود الأصليين من ظلمة الجهل إلى النور.

كانت «جولي» فتاة رقيقة تكبرني بنحو خمس سنوات.. تدخن السجائر.. وتشرب الخمر سراً في الحجرة.. وتسخر من ملابس وعاداتي.. وتتوعدني دائماً بأنها لن تعود إلى وطنها إلا وقد غيرتني من الخارج.. والداخل.

٢١ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٧،

أخذتني «جولي» إلى أسواق وسط المدينة حيث المحلات الكبيرة الفخيمة.. وانتقت لي العديد من الملابس الأوروبية الحديثة.. وكانت تنصحنى في كل وقت بأن أحرص على رونق وجمالي وإظهار أنوثتي من خلال أناقتي.. كذلك كانت تنصحنى كيف أبدو متحررة سلوكاً وعقلاً.. وأن أنسى كل موروثات عاداتي القديمة في بلاد «الخيمة والناقة» كما تسميها.

في البداية كنت أشعر بالخجل وأنا في الملابس الحديثة.. ثم اعتدت على هذه الملابس ولم أعد أظن بأن هناك عيوناً ترقبني.

أيضاً.. اعتدت على وضع «الماكياج» حيث علمتني زميلتي كيف أتجمل في سهولة وبساطة دون الإعتماد عليها في ذلك.

لكن ما أرقني حقاً هو إصرارها على أن أدخن في تحرر كالأوروبيات.. وكانت التجربة الأولى مريرة وشاقة.. فقد تملكنتي نوبة سعال عنيفة.. وبعد محاولات وتشجيع من «جولى» أجدت التدخين.. ولم تعد حقيبة يدى تخلو من علبة السجائر والقداحة.

٢ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٥٢

بالأمس.. خرجت و«جولى» وبرفقتنا زميلتنا «شارلوت» إلى سهرة بأحد نوادى فيينا الليلية.

لا أعرف كيف أصف سعادتي وأنا أرقص فى انطلاق بلا حدود.. أرقص فأنفض حياتى الذى يلجم تصرفاتى ويعرضنى للسخرية والتهكم.. وكلما رقصت أحسست كما لو أننى أطيّر فى الآفاق بلا أجنحة.. فيزهو عمري وتنتشى أحلامي.

شربت «جولى» كثيراً حتى ترنحت من السكر.. بينما لم تعارضنى واحترمت رغبتى عندما رفضت مشاركتها.. فمقط حذرتنى من برد أوروبا الذى لا يدفئه إلا الخمر.. الخمر وحده و«الجنس»..!

بدت الكلمة الأخيرة غريبة على مسامعى.. وتلجلج لسانى وأنا أنطقها متسائلة على استحياء.. فنظرت «جولى» إلى فى دهشة وقد فغرت فاهها كأننى ارتكبت جريمة.

لكن «شارلوت» كانت صريحة معى أكثر من اللازم.. وذلك عندما أخبرتنى أن الجنس حرية شخصية.. وأنها تمارسه مع صديقها السويدي فى أى وقت. عند ذلك تكلمت «جولى» وقالت رداً على كلام «شارلوت»: أن ممارسة

الجنس مع صديق أمر له مخاطرة.. وقد يؤدي إلى مشكلات وخيمة خاصة إذا كانت الفتاة مازالت طالبة.. (١)

ثم وجهت «جولى» حديثها إلى قائلة فى نصيح بأننى يجب ألا أفكر مطلقاً فى الانطلاق ومصاحبة أحد الشباب.. وذلك حتى لا أنجرف إلى علاقات جنسية تضر بى.. خاصة وأنا فتاة شرقية قبل أى شىء.. ويجب أن أكون عذراء عند زواجى.

حيرتنى «شارلوت» وأخافتنى «جولى».. وفكرت كثيراً فيما دار من حديث.. وبرغم إحساس بصدق «جولى» وخوفها على.. إلا أننى كنت بحاجة لمعلومات أكثر تغذى نهى لمعرفة أسرار مثل هذه الأمور الغامضة.. التى تخفى على فتاة مثلى ولدت وتربت وعاشت فى بلاد يسودها الجهل والقهر.

لكن مثل هذه الأشياء فى أوروبا تعد ثقافة لا ضرر من تداولها وتعليمها وتعلمها.. حيث تناقش وتدرس وتشرح فى المدارس والصحف وعلى الألسنة بحرية بلا أدنى خجل.

١١ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٥٧:

تحاضر لى «جولى» كل يوم وتخصنى بمعلومات هامة جداً وخاصة.. إنها بلا شك صديقة وفية مخلصه.

فمنذ عدة أيام وهى تحذرنى من الجزائريين والمغاربة.. وبالأخص الجزائري «عونى بن قاسم» الذى يهوى الإيقاع بالفتيات المستجدات بحجة مساعدتهن.. ثم يقيم معهن علاقات خاصة تحت مسمى الحب وال صداقة.

كنت أعرف «بن قاسم» هذا.. لكنه لم يكن مقرباً إلى بالقدر الذى يجعلنى أخافه.. لكننى منذ عرفت سيرته بدأت أرقبه عن بعد.. ودهشت حيث لمحت نظراته الثاقبة للفتيات.. ومطارداته لهن بين أروقة الجامعة وحدائقها.

شغلنى هذا الأمر كثيراً .. وسألت «جولى»:

- لماذا حذرتنى من «بن قاسم» بالذات ..؟

فأجابتنى بلا تفكير:

- لأنه تسبب فى وفاة طالبة من بلجراد اسمها «أوفيليا» .. حيث أقام علاقة حميمة معها فحملت منه .. وماتت المسكينة فى المستشفى عندما كانت تجرى عملية الولادة.

صدمتنى الحكاية لأيام طويلة .. وجعلتنى أتساءل عن جدوى العلاقات الجنسية بين الشباب فى أوروبا بهذا التفشى الموبوء .. وهل هذه هى الحرية التى يريدون تصديرها إلينا ..؟

الحرية التى يتشدقون بها فى الغرب .. ويتعاطاها الناس كالبهائم دون قياس لمآسى إطلاق حدودها .

إنها فيروس التفكك الأسرى والانحلال وعصور الظلام.

وبعد اطلاعى على الكثير من مشاكل شباب المغتربين من الجنسين .. تملكنى الفزع .. خاصة وقد انتشرت حادثة الاغتصاب المروعة داخل إحدى قاعات الجامعة أثناء حفل صاحب.

كنت عقيمة الثقافة قبلما أجيء إلى أوروبا .

نعم هذه حقيقة لا أنكرها .

والآن .. عرفت الكثير والكثير .. وتكونت لدى رؤى حقيقية عن أسرار الفتيات الوافدات من مجتمعات منغلقة إلى حد ما .. ومدى اشتياقهن لحياة الحرة والمجون بشتى صورها ، بعيداً عن الرقابة والخوف والقيود الاجتماعية .

والمدعش .. أن «جولى» كانت تسخر من هؤلاء الفتيات .. وترفضن مثلى الإنخراط وسط مجتمع الشباب بشكل واسع ، تخوفاً من انسحابها دراسياً إلى الخلف .. فهى كما كانت تقول ما جاءت إلى النمسا إلا لأجل الدراسة فقط .

لذلك.. كانت جولى لا ترتبط مع الشباب إلا بعلاقات زمالة واحترام.. ونصحتنى كثيراً أن أحذو حذوها لكى تمر سنوات الدراسة فى الغربية بلا منغصات.. فأعود إلى وطنى «الشرقى» وأنا أشعر بالأمان.

بيد أنها ذات يوم تحدثت بصراحة مفردة أذهلتنى.. حيث أفهمتنى أن لكل فتاة منا أحلامها الخاصة.. وحاجاتها الحسية الملحة كالجنس والإشباع.

فى بادئ الأمر استنكرت ما تقوله.. ومع حديثها الأكثر تحرراً غصت فى خجلى.. وشعرت بيدنى كله يرتجف حياءً.. فعتبت على استخفافى بما تقول.. وأكدت أننى لن أسمع أبداً هذا الشرح من أى إنسان.. ولن أجده فى كتاب.. أو أصل إلى شروح سهلة تفسره كما تفعل هى.

وفجأة سألتنى ونظراتها مسلطة إلى:

- لا تخدعيننى يا أمينة.. ألا تستمتعين وحدك فى السر؟ إن هذا الفعل يطلق عليه علمياً «العادة السرية».. فهل تمثلين على دور الراهبة العفيفة التى لا تعرف شيئاً سوى التعبد والصلاة والدعاء..؟!

فصرخت فيها أن تكف عن هذا الهراء.. لكنها كانت لا تزال تحقق فى وجهى بثبات وقالت:

- ألم تمارسى العادة السرية يا صديقتى أبداً؟

انتفضت كما لو أن ثعباناً لدغنى.. فضحكت هازئة وهى تقول:

- إننى أمارس هذا الأمر بشكل يومى منذ سنوات.. فهو صبحى جداً وذو فائدة للعقل والبدن معاً.. ولا يعقل ألا يمر إنسان قط بتلك المرحلة النموية الهامة.. وإلا فستطحنه العقد النفسية وأمراض الكبت.

قالت هذا ثم أخرجت من دولابها كتاباً بالإنجليزية عنوانه:

"The repression" وطالبتى بقراءته.

كان الكتاب - وعنوانه «الكبت» - يشرح الإنسان فسيولوجياً ويكشف أمراض

النفس فى تحليل مبسط واضح.. وعند ذلك انشغل عقلى بأمر جديد كانت خافية عنى.. ووجدتنى أسرح بين ضفاف شاسعة لا نهاية لها.. وكلما أمضيت فى قراءته ازددت اقتناعاً بأننى كنت غبية ساذجة.. بلغت الثامنة عشرة من عمرى ولا أعرف شيئاً البتة عن وظائف العديد من أعضاء جسدى!!

٢٥ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٥٧

لم تكن الأيام الفاتنة هادئة صماء.. باردة.. بل كانت صاحبة مثيرة وأكثر سخونة من صيف بلادى.. وأحداثها أكاد أخجل من تسجيلها هنا بمذكراتى ويوميأتى التى لا أدرى لماذا أحرص على كتابتها..

ولن..؟

لكننى أمام هذا الحدث العجيب فى حياتى لا يسعنى إلا أن أكتب عنه بأسلوب بسيط.. وبألفاظ مخففة.

فمنذ أيام أصيبت «جولى» بدوار حاد فى المساء.. وطلبت منى كوباً من عصير الليمون.. فشربته ونامت.. وكانت تلك المرة الأولى التى أراها تخفى وجهها تحت الأغطية.. فأشفقت عليها وهممت بالخروج لأخبر طبيبة الدار.. لكنها رفضت بإصرار.. فجلست إلى جانبها أتحنس جبهتها الدافئة.

كنا قبيل منتصف الليل.. تتساقط فى الخارج ندف الجليد.. بينما حجرتنا معتدلة الحرارة.. مما دعا «جولى» إلى تخفيف ملابسها.. وفى الظلام تجاورنا نتحدث.. ويتجه بنا الحديث شيئاً فشيئاً إلى الجنس حتى فوجئت بها تقول وقد استردت عافيتها أو كادت:

- «أنت الآن يا صديقتى فتاة مثقفة ذكية.. معك الآن أستطيع التجوال بحرية لا نهائية فى شتى الأمور.. أعندك رغبة فى الحديث»؟

قلت وأنا أزدرد لعابى:

- «نعم»..

أمسكت عند ذلك بكتفى وجذبتني لأسفل.. فاستجبت وانزلت حتى جاورتها على سريرها الضيق وبى شغف لأعرف المزيد والمزيد.

أشعلت سيجارتها وناولتني أخرى.. ومع الدخان المتصاعد امتد الحديث طويلاً.. وعند وميض السجائر كنت ألمح بعينيها نظرات ناعسة ذات بريق غريب.. وأجد في صوتها نبرة أخرى لم أعهد لها.

قالت فيما يشبه الهمس أنها ما نصحتني بالابتعاد عن الشباب إلا لأنني فتاة شرقية طيبة تفتقد الثقافة الجنسية الصحيحة.. ولولا ذلك ما تخوفت على من سوء المصير في بلاد تمثل الحرية أحد أهم معالم حضرتها.

وأضافت في صوت أقل همساً أنها قد ارتاحت لصحبتى.. واختارتني بالذات رفيقة لها في الحجرة.. وصديقة وحيدة تأنس إليها في الغربة الكثيبة.. بل واعتبرتني حبيبته أيضاً.

قالت ذلك وقد مالت واستكانت على صدرى تداعب شعري المنساب.. واستمرت في حديثها الهامس تتصحنى بأن أستمتع بالحياة.. استمتع بكل ما لا أعرفه لأتعلم وأعرف.. وأن أنشد اللذة بلا خوف أو توتر.. فهذا لن يتوفر إلا برغبتى في استكشاف ذاتى وإطلاقها من معقلها إلى حيث النشوة اللانهائية.. بلا خوف أو خجل.

لست أدري كيف سحرتني «جولى» ليلتئذ وسيطرت على عقلى.. فخضعت لها مستسلمة بلا مقاومة.. ذلك لأن جسدى قد تفاعل مع لمساتها ولم أعد بقادرة على إسكات نداءاته.

ترى.. هل هو هاجس البحث عن ذاتى المبعثرة بين الشرق والغرب؟

أم هو الخجل الشديد الذى كيّل إرادتى وشل مقاومتى؟

ربما هو وذاك معاً..

وربما لأننى استشعرت أحاسيس غريبة.. بدت كدبيب نمل له خدر مسكر
ومذاق شهى؟

هذا الدبيب الخدر تحول إلى رعشات ارتجافية أترعتنى لذاذات ما ذقتها
قبلاً أو تخيلت مذاقاتها التى لا توصف روعة.. وانتشاء.. وأحاسيساً بكرةً دفوفة
فى استكانة.. وأعاصيرية نائرة متقلبة..

كانت تجربة مثيرة حقاً.. وما أدهشنى أننى رضخت خاضعة لـ «جولى» وهى
تكاد تعتصرنى وتتخلل مفاتيح نفسى بأصابع خبيرة عليمه.. حتى أننى تركتها
تتصرف كما تريد.. وأستجيب لها أيضاً كما تريد.. وفى الظلام كنت مذهولة
وأنا أنصت لضجيجها وهى تهمس بلفة أمرة تطالبنى بالمزيد من التلاحم..
والاندماج.. والسباحة تلذذاً..

ففعلت.. (!)

نعم.. فعلت كل ما أمرتنى به.. بل وزدت عليه لإضفاء المزيد من النشوة
وامتزاج الأحاسيس.

بعدها نمت ثملة لا أعى شيئاً.. لكن جسدى كان يزفر فى فوران محبب..
وارتجاف لطيف بعث فى نفسى سكوناً حانية..

وفى الصباح تملكنى الخجل عندما تصطدم عيني بنظرات «جولى».. لذلك
لزمت الفراش حتى خرجت من الغرفة إلى الكلية.. فقممت استعداداً للخروج أنا
كذلك.. وعلى حين فجأة انفتح باب الحجرة ووجدتها فى مواجهتى.. فوجمت
وأدرت وجهى.. ولم أتخيل كيف سأواجهها من جديد.. ومن أين لى بالقدرة على
ذلك؟

لكنها كانت ذكية حقاً عندما قرأت ما يجول بخاطرى.. فقد اقتريت منى
وأدارت ذقنى إلى ناحيتها.. ورأيتها ممتعة اللون مضطربة وهى تقول:

- اسمعى يا أمينة.. إن ما حدث بالأمس يا صديقتى تجربة عملية وجب

عليك معايشتها.. للتغلب على خجلك من ناحية.. ولإدراك مكنون ذاتك من ناحية أخرى.. ولتعلمى أن طريقة تصريف الطاقة هذه.. هى الوسيلة الوحيدة المأمونة.. والبعيدة عن مشكلات الحمل والإجهاض ورعب الخوف منهما.

وأضافت:

- لقد كانت الجنسية المثلية Homosexuality فى يوم ما هى العلاقة الصحيحة أخلاقياً كحب.. ويتحول إليها فى عصرنا الكثير من الأفراد الذين يعتبرون أسوياء ناجحين.. بل عباقة.

وفى نهاية حديثها تركت لى الخيار فى أن نظل معاً فى الغرفة.. أو انتقال أحدها إلى غرفة أخرى.

تركتنى «جولى» وخرجت.. وأخذت أقلب فكرى فيما حدث.. والهث وراء إجابات لألف سؤال.. وأعترف بأننى عجزت عن الوصول إلى نتيجة ترضينى.. وبقيت طوال النهار متوحدة.. خجلى.. أدور فى دوامة عنيفة الضربات لا ترحمنى.. أو تدعنى لأهدأ.

وعند المساء جاءت «جولى» فهاجمنى خجلى.. ولفنى سكون وصمت.. وحاولت أن أبدو هادئة مرحة كطبيعتى لكننى فشلت.. ويبدو أن «جولى» أدركت أن لا فائدة منى.. لذلك سحبت حقيبتها الكبيرة فى سهوم وأخذت تعبئ ملابسها.. وعند ذلك تبين لى مدى فداحة الأمر.. فأنا بدونها سأبدو كاليتيمة.

وقبلما أفتح فمى ضارعة.. التفتت إلى وقالت فى أسى:

- آسفة جداً يا عزيزتى.. سأنتقل إلى غرفة أخرى.. فالحائط الذى انتصب بيننا يبدو أنه لن ينهدم أبداً.

فى خطوتين قفزت نحوها وألقيت برأسى على صدرها وأخذت أبكى.. كنت لا أصدق أنها ستتركنى وحدى.. ولا أتخيل ماذا سأفعل بدونها، وبلا تردد حملت ملابسها بنفسى إلى الأدراج والخزانة.. فمانقتنى بقوة ثم نظرت إلى عيني بعمق.. ومسحت دموعى..!!

١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٥٧:

تبدلت فتاة الشرق التي تكره التخلف وترنو إلى التحرر.. تبدلت كثيراً..
فكراً.. وروحاً.. وعقلاً.. ومشاعراً.. هذه هي الحقيقة بلا كذب.

ف ذات يوم كنت أهوى «بساماً» وأعشقه.. واليوم أدمن «جولى» وأبغيتها.. صارت
كالخمر عندي أطلبها.. وأنشدتها.. وأشربها لذائذاً كالدفق تصليني.. فتبعث
الرجفات موجاتاً لا تهدأ.. لكن تصور فيصطخب العمر منى لواعجاً عجباً.

الآن.. أنا لم أعد أنا.. بل تشكلت بأشكال أخرى.. نضت فتاة الشرق
حياءها.. وغدت اليوم ملامحها جديدة.. ودواخلها جديدة.. وثقافتها جديدة..
وكلها صارت جديدة فى جديدة.

هل ترى فى الشرق بعض روح من هنا.. ١٩..

هل ترى فى البداوة والمجاهل بعض نور من هنا ١٩

وهل هناك بعض أمل فى أن تباد عقول تجهل كيف يحيا الناس هنا.. ١٩..

إنهم فى بلاد الشرق.. فى بلادنا..

الناس تحيا فى الزرائب كالغنم..

منافقون أفاقون خاملون..

أغبياء كالصنم..

وعندها كبيرهم يُضَرِّطُ..

يهللون للفراسة والحكم..

ويؤرخون فساؤه كبلاغة..

فاقت بها شعوبهم كل الأمم^(١)..

إن جذور أسرتى الشركسية الأصل، لم تكن أبداً رخصة للعقلانية فى النظر

(١) ونعم البلاغة حقاً يا أمينة.. ١١

لحقوق المرأة.. فالعشيرة الشركسية المحدودة العدد في عمان قياساً بعدد السكان.. أصيبت بذات الفيروس اللعين.. وأخذت بغضاً من تقاليد البداوة كمعيار في شتى أمورها .

فقد كان لزاماً علينا - نحن النساء الشركسيات - ألا نبدو بين عامة الناس كنسيج مغاير منهجاً.. وسلوكاً.. وشكلاً.. إلا أن ثمة اختلافات كبيرة كانت جلية خلف الجدران لا يراها أحد سوانا .

فالشراكسة كانت تضمهم عادات موروثة أصيلة.. لا تكاد تظهر إلا فيما بينهم.. وتربطهم جميعاً أهداف واحدة سعوا لتحقيقها.. كان من أهمها التعليم.. وتقلد المناصب.. والتجارة.. ففتحوا لهم بذلك مكانة مرموقة.

بيد أن الرؤى على حقيقتها بدت مبهمة غيمية.. فلا نحن ذائبون في نسيج العادات العربية البدوية من ناحية.. أو تظللنا عاداتنا الخاصة من ناحية أخرى.

لذلك فقد انسحقت هويتنا وفقدنا الكثير من أصول جذورنا.. لكن بقيت هناك بعض أطلال تحضر تحكم سلوكنا في أقل القليل من المواقف.

وما بين هذا الانسحاق ومظاهر الذوبان.. بدت شروخ وتصدعات في عقولنا نحن الصغار.. حيث البداوة في السلوك الظاهري.. وبالباطن رفض لها.. وتمرد، وكان تعليم أبناء الأثرياء في جامعات أوروبا أحد مظاهرها الصرايع بين العلم والتخلف في مجتمع من الجهلاء!

٢ كانون الثاني / يناير ١٩٥٨:

كانت ليلة رأس السنة من أروع أمسيات حياتي.. سهرت لقرب الصباح في ملهى "Aube".. كانت معي «جولى باتريك» و «شارلوت» ولفيف من زميلاتنا.. وهناك رقصت بحرية وانطلاق.. وشربت كثيراً حتى أشفقت «جولى» لحالى ومنعتنى من الشرب.

كان يتواجد أيضاً «بن جاسم» الذى تمادى فى التحرش بى.. لكن «شارلوت» لم تتركه يزيد من وقاحاته وعملت على إبعاده عنى طوال السهرة.. بيد أنه كان يتحين الفرصة ليهمس لى بكلمات بذيئة وهو يكاد يفترسنى.. وزجرته بعنف وأنا أقول له:

- حاذر أيها الجزائري القذر.

أيظن هذا الوغد بأننى كنت لأستجيب له؟

آه لو يعلم هو أو غيره من زملاء الجامعة أننى مشبعة تماماً.. ولا أمل لأحدهم فى الوصول إلى حالاً.. أو مستقبلاً!

الغريب أننى فى هذه الأمسية كنت أشعر بزهو مدهش بدا على ملامحى.. ولاحظت «جولى» ما طرأ على فجأة من تغير.. فسألتنى بدهشة عما جرى لى.. فقلت لها فى جرأة مذهلة:

- ألا تشعرين بما بى..؟ إننى أكاد التهمك أينها الوحشية الناعسة العينين.. إن عينيك تثيران بداخلى أشياء صعب وصفها.

وفهمت الملعونة مقصدى.. فغمزت بعينيها وهى تضحك.. وتبعتنى إلى دورة المياه فانفردنا لدقائق.. ولم أسترح إلا بعدما تخلصت من ضجيج لسماعى اللاهبة. تلك كانت إحدى صور فتاة الشرق فى ثوبها الجديد.. (!!).

٩ نيسان / أبريل ١٩٥٨:

تحولت حياتى خلال المدة القصيرة التى قضيتها فى النمسا إلى حياة أخرى مغايرة لما عهدته قبلاً فى عمان.. وتطورت علاقتى بـ «جولى» إلى ذروة أشكال التحرر.. حتى أنها كانت تقول:

- لقد تفوقت علىّ يا ابنة الشرق.. وصرت أكثر إيماناً منى وخبرة واحترافاً.

هكذا تطورت تجاربي وثقافتى «الخاصة» الجديدة.. وعرفت مدلول
«السيكوباتية» Psychopathic ولماذا أنا سحاقية..!

ونظراً لتحليلاتى المنهجية لما طرأ على حياتى وشخصيتى وسلوكى من
تغيرات.. عكفت على قراءة كتب علم النفس.. واطلعت على كتابات كولمان
Colman وسيجموند فرويد، خاصة ما جاء فى «ثلاث مقالات فى نظرية
الجنس» "Three Contributions to the theory of Sex".

لذلك عشقت دراسة علم الأمراض النفسية والطب العقلى والنفسى..
وتأهلت نفسياً لدراسة هذا الاتجاه بالجامعة.

* * *

٢٢ نيسان / أبريل ١٩٥٨:

منذ أيام جاء والدى لزيارتى والاطمئنان على.. وهذه المرة قمت بدور المرشد
السياحى له.. فأخذته فى جولات مختلفة بالمدينة الساحرة.. وبعد خمسة أيام
عاد إلى عمان تغمره سعادة كبيرة لتقدمى الواضع فى اللغة الألمانية.. بالرغم
من أنه بدأ متضيقاً إلى حد ما بسبب ملابسى المودرن ومكياجى الخفيف.

وبقدر ابتهاجى برؤيته كنت التحف بالخوف.. فأيام الامتحانات كانت على
الأبواب.. وانحصر هذا الخوف فى انفصالى عن «جولى» التى من المفترض أن
تعود إلى جوهانسبرج وتتركنى هنا وحدى.. وتمنيت من الله ألا تنجح صديقتى
لتظل إلى جوارى عاماً آخر.

صارحتها بما أفكر فيه وأتمناه.. فأزرتنى وحاولت تلطيف الجو المشحون
قدر الإمكان عندما قالت أنها أيضاً تفكر فى حالى بعد سفرها.. على وعد بأن
تعود إلى فيينا العام الدراسى القادم لقضاء عدة أيام.

نصحتنى «جولى» أيضاً بأن أجتهد فى دروسى.. وأتخير صديقة جديدة،
وافدة، لتقيم معى فى الغرفة.

ضغطت حروفها وهي تنطق «وافدة» بما يؤكد رغبتها في إقامة «صداقة» مع فتاة بلا تجارب.. تماماً كما فعلت هي معي.

وبالرغم من سعيها للتفوق لضمان مركز مرموق في بلادها.. إلا أنها كثفت كثيراً من «جرعات» صداقتنا كناحية تعويضية.. وأعترف بأنني خلال هذه الفترة.. صرت أكثر تبجحاً.. وحرية في التجاوب والمشاركة وطلب الوطر.

هكذا أمضيت أياماً جميلة ورائعة في قيينا مع حبيبتي «جولى».. ونبذت التفكير في حياتي بمفردي بعد سفرها.. فالأيام القليلة التي بقيت لها هنا لا تستدعي سوى مناشدة السعادة واللذة.. دون إرهاق العقل والخاطر بأية منغصات. حاولت ذلك قدر استطاعتي.. فنجحت أحياناً.. وفشلت أحياناً أخرى.. فطرقات الحقيقة على أبواب عقلي بدت متصلة مستمرة.. توقف الوعي وتتأى به عن أحلام الرعونة.

تري..

كيف ستمضى بي الحياة هنا طوال السنوات المقبلة..؟

وهل ستكون كما الآن هائلة رائعة وردية..؟

لست أدري..!!

٧ تموز/ يوليو ١٩٥٨،

انتهت امتحاناتي.. ونجحت عن جدارة في اختبارات اللغة الألمانية وقبلت أوراقى بشكل رسمى في كلية الطب لأدرس مواد الطب العقلى والنفسى -Psy- chiatry إلى جانب المنهاج الطبى.

شكّل هذا الأمر خطوة هامة في حياتي العملية.. وبدلاً من السفر إلى عمان فور قيدي بالكلية.. فضلت أن أبقى بفيننا إلى جوار صديقتى «جولى» التي نجحت وانشغلت بإنهاء أوراقها.. وتوثيقها في الجهات الرسمية لترجع بها إلى جوهانسبرج.

لقد تحدد سفرها بعد أيام.. ولم يعد بمقدورنا إضاعة أية لحظة فى الخروج للتنزه.. بل قبعنا بحجرتنا نكاد لا تغادرها إلا للضرورة.

الساعات تجرى ولا تتوقف أبداً.. ونحن أيضاً فى سياق محموم مع الزمن.. حيث ننتهز الساعات والدقائق لكى ننهل معاً من ينبوع سنحن إلى قطراته بعد أيام.. لذلك فنحن نتزود منه ولا نكاد نشبع.. فبداخلنا عطش أبدي لا ينقطع ولا يروى.. ورغبة جامحة مغلفة بالحب والشوق والحنان.

أحياناً.. تبكى «جولى» لأجلى فتبكي.. وتجمعنا معاناة واحدة.. فالضعف أوشك أن ينقلب انهياراً.. وألم الفراق تلسعنا مرارته ونحن لا نزال معاً.

التقطنا صوراً كثيرة لعننا لمرآنا نطفئ نار البعد السحيق.. وكتبت لى رسالة حب على منديلى وهكذا فعلت أنا أيضاً.. وكانت تحذرنى فى كل وقت قائلة:

- نصيحتى الأخيرة لك يا صديقتى: لا خير فى مصاحبة الشباب.. وإياك والاعتزاز بنفسك.. فهم لا يُقدِّرون فكرك بقدر ما يتلهفون على جسمك، فإذا ما نضوت ثياب العفاف والشرف.. زهدوا فيك كزهد السباع للجيف..!!

وأضافت:

- مكرمة لك انتقاء فتاة يروقك شبابها فتتخذينها صديقة.. ولتطويعها أنت أدري.. فهناك ألف طريقة وطريقة.. لكن قبلما تخطين أول خطوة معها.. لتكن بينكما أولاً صداقة وثيقة.. فالوفاق النفسى أحرى بالامتزاج والتفاهم والتسامح..!!

٩ تموز ١٩٥٨:

ودعت «جولى» بالمطار وكأنى أنزع أضلعى.. فكيف الحياة بدونها وكيف يهنا مهجعى..؟ من بعدها سأبدو فلاة جرداء وعُود قشيب بكينا أكثر مما بكينا من قبل.. كنت ملتاعة وكانت بائسة.. كنا نصبر بالوعد والدعاء.. وعندما انسلخت

منى ودلقت إلى المطار.. كأنما انسلخت روحى عن جسدى.. فشهمت وكدت
أنهار لوعة وحزناً.

وعدت إلى حجرتى وحدى أجزجر آلامى وأطيب جراحاتى.. يا ليتنى ما
عرفتها أو تعلق بها.. وتساءلت:

- ترى هل ستجمعنا الأيام ثانية ذات يوم؟ أم هو الفراق الطويل المرير الذى
لا لقاء بعده..؟

لقد اغتمت نفسى ولم تعد بى رغبة للسفر إلى عمان.. فماذا هناك فى عمان؟
هناك الحبس فى البيت والأوامر والنواهى كل لحظة..

هناك قيود لعنة الله عليها تكبلنى وكأننى أذنبت فأودعونى سجنًا لا ضوء به
أو شعاع هارب.

فلماذا إذن أعود..؟

- أشواقى لأهلى نعم.. لست أنكرها.. لكننى أخشى قيودهم وقد تحررت
هنا منها.. تحررت بحيث لا أستطيع أن أتبرقع ثانية أبداً.. فما ذنبى وقد
أطلقونى وحرّرونى من القيود..؟

أرجع إلى عمان شوقاً إليهم.. سأموت لو بقيت هناك يوماً واحدة...
فحياتى لا معنى لها فى غير الضياء.

١١ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

أبرقت لوالدى كذباً بأننى سأبقى بالجامعة لإعداد أبحاث ميدانية هامة..
أعرف أنه هاج ثائراً عندما قرأ برقيتى.. وليس ببعيد أن يحزم حقيبته ويطير
إلى غاضباً.

دفعت مصروفات الإقامة الصيفية ببيت الطالبات المفتربات.. وكنت أبيت
بحجرتى وحدى بلا رفيقة.. فالدار شبه خاوية إلا من فتيات لا يتجاوزن التسع..
لا أعرف منهن واحدة.

وعندما عرضت المشرفة أن تشاركني إحداهن غرفتي رفضت.. فمن تلك التي ستبيت بسرير «جولى» حبيبتي..! إن هذا لن يكون.

١٦ تموز/ يوليو ١٩٥٨،

كما توقعت.. جاء والدى بالأمس ثائراً على بقائي بفيينا.. وأقسم بأغلظ الأيمان ألا يعود بدونى.. وفشلت كل محاولاتي معه لأبقى.. وعلى ذلك طلبت منه إمهالى حتى توافق الجامعة على طلب إعفائي والعودة إلى الأردن.

واليوم أوهمته بموافقة الجامعة.. وتحدد موعد سفرنا يوم ١٩ تموز/ يوليو قبل منتصف الليل.

واختنقت غصباً عنى.. فها أنا أعود للحبس من جديد..!!

القسم الثالث في الأردن (٢)

«ودون أن تدري.. أيقظت براكين أشواقى من
رقادها.. فأينعت من جديد براكين ذكرياتى
وأورقت لهفة.

هكذا اكتملت خيوط الحب الأول التى ظننتها
تهتك.. وانساب أغنيات الغزل تروى ظمأ
الأوردة المتيسة،

٢٥ تموز/ يوليو ١٩٥٨

مرغمة عدت إلى عمان محملة بالضجر والأرق.. فقد كنت أعرف أن الحبس الانفرادى ينتظرني هناك.. فى بيتنا الذى يشبه السجن الكبير.. وتصورت أن والدى سيمنحني قدراً من الحرية يتناسب وحياتى فى فيينا.. هكذا تصورت.. لكن الحقيقة كانت مؤلمة وبعيدة عن الصواب.

فما أن استقبلنى الأهل بالترحاب والأحضان الحارة حتى شملت رائحة الأصفاد التى سوف أكبل بها.. فادعيت السذاجة والموافقة على لائحة النواهي والأوامر التى كنت أحفظها عن ظهر قلب.

صعدت معى أمى إلى حجرتى لتساعدنى فى ترتيب حوائجى.. فقممت بمناورات لإخفاء صندوق سجائرى.. وتمجبت هى من شكل ملابسى الحديثة مستغربة هذا التطور الخطير الذى طرأ على شخصيتى وسلوكى.

مراراً حاولت الاتصال بجوهانسبرج لكننى فشلت فى ذلك بعد ما كنت أقف لساعات طويلة بمكتب الهاتف المركزى.

كانت صديقتى «خلود» هى سلواى فى «غريتى» حيث دأبت على زيارتى برغم أنها صارت زوجة لابن عمها النقيب بالحرس الملكى.. فى حين لم يسمح لى أهلى بزيارتها بسبب حجة ساذجة وهى أنها متزوجة ولا يصح أن يرانى زوجها بيته.

هذه هى إحدى آفات الجهل السائدة.. فأنا العائدة من بلاد الحرية أعيش من جديد تقاليد رثة عفنة.. ويعاملنى أهلى كالبهيمة لا أتحرك إلا بإذن خوفاً على من «جزار» يسحبني ويذبحني.. وكأنتى كنت فى فيينا حبيسة جدران غرفتى لا أكاد أغادرها ليلاً أو نهاراً.

كلما كبرت كنت أفكر فى ذلك كثيراً.. وأتساءل كيف لأبناء القوزاق الشراكسة أن يتعايشوا مع حياة القبيلة؟ صحيح أنهم يحافظون على عادات

المجتمع الذين يعيشون فيه .. لكن ليس لهذه الدرجة .. فالتمادى فى القيود يورث التمرد والبحث عن أية وسيلة للفرار .

وها أنا أعانى آلام القيود التى تدمينى .. وتراودنى رغبة البحث عما يكسر هذه القيود وينقذنى منها !!

٢٩ تموز/ يوليو ١٩٥٨:

جاءت «خلود» لزيارتى وصعدنا معاً إلى غرفتى حيث منظر الحديقة أجمل .. واعتيادنا الجلوس فى الشرفة .

كانت مهمومة وهذا ما كان واضحاً على وجهها .. ولما ضغطت عليها صارحتنى بأن أعراض الحمل لم تظهر بعد .. وما يطلقها هو السؤال المستفز الذى تسمعه كل يوم من أسرتها وأسرة زوجها .. الكل يريد أن يعرف لماذا تأخر الحمل وكأن هذا الأمر بيدها هى وحدها .

أما زوجها فهو متعنت يرفض فكرة العرض على طبيب النساء لأن هذا «عيب» وموقف حرج لا يقبله كرجل .

لقد كان يتنفس البداوة والرجعية بالرغم من تعليمه الراقى ومركزه المرموق .. وعمله بين أناس مرموقون أيضاً .

ثم صفعتنى «خلود» بالمأساة التى تعيشها .. مأساة حقيقية كانت تقصها على وهى تبكى بحرقة وتكاد تموت خجلاً .. حيث أعترفت لى بأن زوجها (ضابط فى الحرس الملكى الأردنى) يصر على معاشرتها بشكل مخالف للشرع .. وكلما رفضت طلبه كان يضربها بعنف .. ويأخذها عنوة .. بالاغتصاب .

ثرت لهول الأمر ووجدتنى عاجزة عن إيجاد كلمات فى مثل هذا الموقف .. ونصحتها بأن تتفاهم معه وتبين له أن الدين يحرم ذلك .. فكادت تصرخ وهى تقول إنها استنفدت شتى السبل لإفهامه وإقناعه .. لكنه يصر .. دائماً يصر ..

ويفتصبها شذوذاً قاتلاً ببجاجة: إن جسدها ملك له .. وله الحرية فى استخدامه كما يشاء دونما أى اعتراض منها .

كان ما يؤرق «خلود» أيضاً أنها من أسرة كبيرة يعمل أفرادها فى تجارة واسعة .. ولأنه ابن عمها فهناك تشابك فى المصالح بما ينفى فكرة الطلاق فى العائلة مهما كانت الظروف .

إنها عادات موروثة وأعراف لا سبيل لتنحيثها .

ولما طلبت منها أن تصارح والدتها بهدوء .. وضعت يدها على فمى .. وقالت وهى تتهد فى أسى:

- لقد أخبرتها بالفعل .. فصفعتنى وبصقت فى وجهى وهى تتعتنى بأقذع الصفات لأننى جرؤت وتكلمت فى أمور خاصة تمس أسرار بيتى!!

عندئذ لم أجد إلا الصمت رداً .. فما أبلغ الصمت إذا عجز الكلام .

لكن دموع صديقتى عند كل زيارة كانت تفقدنى صوابى .. وأكاد أجن لمحنتها التى تملأ مجتمعاتنا .. فهل سيأتى على الدور يوماً؟!

٢ آب / أغسطس ١٩٥٨

شممت رائحتها قبلما أفضه ..

كان أول خطاب من حبيبتي «جولى» يحمل فيضانات من الأشواق .. وإشارات رمزية توضح مدى احتياجها إلى مرأى .. لكن الظروف السياسية فى روديسيا «جنوب أفريقيا الحالية» كانت سيئة بحيث تمنعها من مفادرة جوهانسبرج عما قريب .

قالت «جولى»: أيضاً إن السود والبيض يأكلون بعضهم البعض فى بلادها .. وأن للبيض حقوقاً فى الأرض يرفضها السود .. لذلك فبلادها تتعت بأنها عنصرية تقوح منها رائحة القتل والمذابح .. وصدرت ضدها عدة قرارات من الأمم المتحدة تدين هذه «العنصرية» .

فكرت بإقناع والدى بالسفر إلى «جولى».. لكننى كنت أعرف رأيه مقدماً.. لذلك حبست بداخلى رغبتى فى الفكاك ولو قليلاً من سجن أهلى.. ورضخت رافضة نظرة المجتمع الشرقى القاصرة.. وقيود الجاهلية «للحریم» فى الوقت الذى سمح لى فيه بالسفر والاغتراب وحدى.. وكان هذا التناقض الواضح والشاسع بين الموقفين يزيدنى حيرة وتعجباً.

ففى الوقت الذى ما تزال فيه المرأة العربية تغطى وجهها فى بعض المجتمعات.. تتقدم وتنهض فى مجتمعات عربية أخرى وتنال قسطاً أوسع من الحرية.

وبالقياص ففى المجمع الأردنى تبدو البداوة غالبة وملحوظة.. حتى بعمان نفسها.. فى حين تستأثر أسر بعينها مساحة رحبة من التمدن والتحرر نتيجة الثراء الفاحش والامتزاج.. لكن على ما يبدو فى رأىى.. فإن الحرية هنا جاءت على غير قناعة.. بل هى إحدى مظاهر التعلق بأهداب التحرر فى مجتمع يحترم عقلية المرأة.. ويعاملها بإزدراء وانحطاط.

إن جذور أسرتى الشركسية التى نزحت من القوزاق لم تكن أبداً رخصة للعقلانية عند النظر لحقوق المرأة (!) فالعشيرة الشركسية - وهى أقلية جداً - برغم الثراء والمناصب الرفيعة أصيبت بذات الفيروس اللعين.. وأخذت من تقاليد البداوة معايير فى شتى أمورها.. إذ كان لزاماً علينا - نحن الشركسيات - ألا نبذو بين عامة الناس كنسيج مغاير منهجاً.. وسلوكاً!

لكن ثمة تباينات كبيرة كانت جليلة خلف الجدران لا يراها أحد سوانا.. فالشركس كانت تضمهم عادات جلبوها معهم عندما فروا من أوطانهم وتفرقوا فى البلاد.. هذه العادات لا تكاد تظهر إلا فيما بينهم فى مناسبات اجتماعية ودينية مختلفة.

ونظراً لقلة أعدادهم فى البلاد التى استوطنوها.. فقد سعوا لتحقيق عدة أهداف تمكنهم من التكيف والتعايش بكرامة.. وكانت أهم هذه الأهداف التعليم

العالي والتجارة والسعى لتبوأ المناصب.. فلتتحقق لهم بذلك مكانة مرموقة.

وكانت هناك رؤية خاصة تتعلق بالتجارة.. إذ نبذ الشراكسة التجارة التقليدية البسيطة.. واتجهوا إلى الإتجار فى الذهب والأحجار الكريمة.. وفى الوظائف اتجهوا إلى العمل بالبنوك والترجمة.. والحرص الشديد على الانخراط فى الجيش والمجتمع العسكرى والدبلوماسية عموماً.

هناك مسألة أخرى أيضاً تتعلق بالنساء.. فالزواج من خارج العائلة والعشيرة أمر مرفوض ولا نقاش فيه البتة.

وعلى ذلك بدت الرؤى على إطلاقها مبهمة غيمية.. فلا نحن ذائبون فى تماماً فى نسيج العادات العربية القبلية من جانب.. أو تظلن عاداتنا الخاصة بشكل علنى من جانب آخر!

وهكذا السخف هويتنا.. أو هى فى طريقها إلى الإنسحاق.. فقد نسينا أو تناسينا موروثات جذورنا.. لكن بقيت أطلال تحضّر تحكم سلوكنا فى أقل القليل من المواقف!

فما بين هذا الانسحاق ومظاهر الذوبان.. بدت شروخ وتصدعات فى عقولنا نحن الصغار.. حيث البداوة فى السلوك الظاهرى.. ورفض لها بالباطن المتمرد، وكان تعليم أبناء الأثرياء فى جامعات أوروبا.. أحد مظاهر الصراع بين العلم والتخلف فى مجتمع من الجهلاء..!

١٢ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

كنت قد نسيته فى غمرة انشغالاتى فى فيينا.. حتى أننى تخلصت من طيفه الذى كان يقتحمنى اقتحاماً.. لكن الآن لا أعرف كيف تمكن منى طيفه ثانية.. وبات يسيطر على فكرى قسرياً طوال الأيام التى أمضيته بعمان..!

إنه «بسام» حبى الأول الذى أهاننى شر إهانة.. ذلك الحب المجنون الذى

ظننت أن البعد سيقهره.. لكن بئس ما ظننت.. منذ اكتشفت هنا مدى ضعفى
حياله.. وبت اشتاق إلى رؤياه ولو من بعيد.

كثيراً ما فكرت فى قصة حبى الفاشلة.. وأكاد أجزم أحياناً بصدق ما قاله
«بسام» عنى واتهمنى به.. وفى وحدتى المملة هنا والقاسية.. توافر لى الوقت
لأفكر بعمق وبعقلانية.. وفى أحيان كثيرة كانت أطلال الحب بأعماقى تتقلب
إلى إعصار عات.. فعجزت عن المقاومة وأسلمت نفسى للذكرى والخيال.. أعذب
بهما فؤادى المكثوم.

لقد أدركنى الندم لأننى مزقت صورته وخطاباته.. فمزقت معهما أهم أيام
عمرى.. واتصلت بزميلاتى القديمات استدرجهن فأكدن لى بأنه اختفى وذاب
وسط ضباب الحياة.

وبرغم خجلى لانشغال «خلود» بمشاكلها.. إلا أننى سألتها عنه باستحياء..
وكانت نصيحتها لى بأن أحب من جديد إجابة كافية عن تساؤلاتى.. فراودتنى
الأفكار، وتخيلت وجهها عندما أخبرها بأننى بالفعل أحب «جولى».. وأقص
عليها تفاصيل أسرارى معها.. لكننى خشيت أن تخافنى وتحتقرنى وتهرب منى
إلى الأبد.

وفى أوقات أخرى تسلطت على فكرة إغوائها بمشاركتى المتعة التى تفتقدها..
وأعترف بأننى حاولت معها.. وخطوت فى ذلك خطوات أولية لم تلق استجابة ولم
تحدث شكوكاً أيضاً.. فتوقفت عن المضى معترفة بأستاذية «جولى».

آه من معاناتى ومأساتى.. إن جوعى يتعمق كل يوم.. وينقر متوحشاً خلايا
الجسد.. شوقاً إلى تلك الرعشات السحرية.. والسباحة على أجنحة غريزة
مصطخبة.. يعقبها صفو فجوع من جديد.

١٨ آب/ أغسطس ١٩٥٨:

مرضت أمي.. وجاءت إحدى قريباتي من «إربد»^(١) ومعها طفلتها ذات الخمس سنوات.. وبمجيئهما تمنيت أن تظل الوالدة بالفراش لفترة طويلة.
وبقدر ما كانت أمنيته هذه تحز في نفسي وتشعرنى بحقارتى.. إلا أنني كنت أرغب في ذلك بشدة.. فمرضها كان يمثل لى شيئاً ثميناً أسعى إليه بكل جوارحي.

٩.. ١١

تلك هي الحقيقة التي لا يعرفها أحد سواي.

لقد دأبت الطفلة على اللهو بحديقة الفيلا طوال النهار بلا كلل.. وعند المساء أخذتها معي إلى حجرتي للنهوض معاً.. فنامت مرهقة في فراشي.. وألحت أمها على حملها معها لتنام بالأسفل.. لكنني رفضت بشدة وتمسكت بالطفلة لتنام إلى جوارى.

وتلك كانت أمنيته التي أبغيتها.

ليلتئذ رقدت بجانب الطفلة الفارقة في نومها.. وكان سباتها العميق مدعاة لأن أتشجع.. فقلبتها يميناً ويساراً لكنها كانت في وادٍ آخر.. عند ذلك مارست معها ما تعلمته من «جولي» وإن كان الوضع أحادي الطرف.. ولأول مرة منذ افترقت و «جولي» أجد نفسي على طرفي نقيض.. فقد استرحت بالفعل لكن حقارتى تؤرق ضميري..!!

(١) تقع في شمال المملكة الأردنية قريبة من الحدود السورية، وهي عروس الشمال للمدن الأردنية، حيث تقع على السفح الشمالي لجبال عجلون.. وهي مشهورة بالتجارة والسياحة والصناعات الغذائية.

٢١ آب / أغسطس ١٩٥٨:

رتبت نفسى للعودة إلى النمسا فى الرابع من أيلول.. ومع بكائيات أمى لقرب فراقى.. فوجئت بوالدى يقترح إبقائى بعمان للدراسة.. فصعقت.. وقلت له: إن هذا الفرع من الدراسة غير متوفر إلا فى أوروبا.. ومن المهم بمكان أن أحصل على إجازتى فى هذا الفرع.

وبرغم أن الفكرة راقت لأمى فى بداية الأمر.. إلا أنها وافقتنى على ضرورة إكمال تعليمى فى جامعة فيينا.. وسكت والدى على مضض.. كأنه كان يستقرئ الغيب ويعرف ماذا سيحدث لى مستقبلاً. (١)

وكان لوالدى الدور الخفى وراء إقناعه.. لتباهى بى بين العشيرة والأهل والأصدقاء.. ذلك أنه لم تكن هناك، بعائلتى أو بعشيرتى، فتيات سبقتنى فى تلك الخطوة وحظين بتعليماً عالياً فى أوروبا.. وهذا ما دعا البعض لانتقاد أبى الذى كان يرد عليهم بقوله:

- إن تعليم البنات نعمة كبرى.. فنحن لا نريدهن إماءً.

كما كان يصرح بأنه لثقت به أتاح لى فرصة التعليم التى لم تحظ بها فتاة أخرى من العائلة.

أمى أيضاً تعرضت للكثير والكثير من نساء العائلة.. وكانوا يحسدنها على قدرتها على تحمل فراقى وإقامتى فى بلاد بعيدة.. وكانت تجيبهن بأننى «تربيت تربية حسنة ولدى القدرة على التفوق والتميز».

فكن - ربما غير - يحثها على منعى من السفر بالضغط على مفاتيح أمومتها، وتخويفها من مغبة هذا التصرف.

بيد أن أمى التى كانت تريد لى مستقبلاً أزهى لم تكن تهتم بما يقلن.. فقد وضعت ثقتها بى كأبى إيماناً منها بأن هناك نساء قدن مجتمعاتهن وتفوقن على المستحيل.. وكانت دائماً تحفظ قصة «هيلين كيلر» عن ظهر قلب وتردها فى مناسبات مختلفة.

كنت فى صفرى أسمع منها قصة تلك الفتاة العمياء الخرساء الصماء التى تفوقت على أعتى المبصرين فى العالم.. فيغزوني اندفاع حماسى يدفعنى بقوة لأن أتفوق.. ولازمنى ذلك الحماس حتى وأنا فى «فيينا» وتذكرت قصة «طه حسين» وما جرى معه فى «باريس».. وكيف واجه محنته بصبر وعزيمة وإيمان.

لقد أحب الفتاة الفرنسية التى كانت تقرأ له وأحبته.. وفى إحدى محاضراته أمر بإحضار خريطة كبيرة لبلاد «الإغريق».. وأمام تلامذته المذهولين أخذ يشير إلى المدن والأماكن على الخريطة وهو الأعمى.. ثم قال لهم:

- لا تتعجبوا.. فزوجتى كانت بصرى الذى فقدته.

هكذا تفعل الإرادة بمن يمتلكونها.

وفى النمسا قرأت عن امرأة أصيبت بالعمى فى الحرب.. وفقدت يديها ونصف ساقها اليمنى.. إلا أنها بإرادة من حديد قادت أولادها الخمسة إلى النجاح حتى أنهم دراستهم فى الطب.. وقالت ابنتها الوحيدة أنها تعلمت على الفلوت لكى تعزف مقطوعات كانت أمها تلحنها بفمها.

مثل هذه القصص كان تحضنى على النجاح والتفوق.. لكن سرعان ما أنشغل بأمور أخرى.. ويثور بداخلى دائماً سؤالاً لا أجد له إجابة:

- لماذا أنا شرقية ينظر إلىّ فى أوروبا كهمجية متخلفة؟

* * *

الأول من أيلول / سبتمبر ١٩٥٨:

جاءتنى صديقتى «خلود» وكانت شاحبة كئيبة.. وفى حجرتى بكت بحرقة لأننى أوشكت على مفارقتها.. وقالت فى ألم:

- لمن أشكو معاناتى ومشاكلى بعدما ترحلين؟

كانت المسكينة ترتجف من الحزن وهى تحكى لى قصة اغتصابها ليلة أمس.. إذ دفعها زوجها دفعاً إلى الفراش ولما قاومت شذوذ ضربه بعنف.. ثم

واصل اغتصابها وقد شل حركة يديها .

هذه التجربة المريرة التى تعيشها صديقتى .. إضافة إلى نصائح «جولى» أصابتنى بحالة كراهية للرجال .. وترسبت بفكرى مخاوف الإختلاط بهم أو الإنتياد إليهم .. فحتماً سأصاب بضرر بليغ لو أن إرادتى ضعفت يوماً وارتبطت بعلاقة ما برجل .

عند ذلك تذكرت حبيبى الأول .. ذلك الفلسطينى المتعجرف الذى أذلنى .. لكنه على كل حال كان شاعرى النزعة مهذب وديع .. ولا يعقل أن يكون أحد أولئك الأشرار من الرجال .

كنت متأرجحة ما بين ما أسمعه وما أعتقد .. وخلصت إلى أننى لكى أكون فتاة طبيعية يتوجب على معرفة رجل .
نعم .. رجل .

لكن أى رجل ذلك الذى سأهبه مشاعرى وعواطفى ..؟

ما هى صفاته ..؟

وثقافته ..؟

ولونه ..؟

وما طبيعة العلاقة التى ستكون بيننا؟

ملأنى الخوف وحاصرتنى الريب، فصديقتى «جولى» صورت لى الرجال على أنهم وحوش آدمية يجب تجنبهم والابتعاد عنهم .

فهل كانت تفعل ذلك لمجرد أن تحتفظ بى .. وتستثمر هذا الخوف لدى بغية امتلاكى وتدريبى على التساحق معها ..؟
ربما يكون ذلك صحيحاً ..

وربما أنا مخطئة فى ظنونى .

ورأت قناعتى أن أنسى هذا الأمر.. فأمامى دراسة شاقة ورسالة أؤديها..
وهدف..!

٢ أيلول / سبتمبر ١٩٥٨،

عند الظهيرة هاتفتنى صديقة لى تدعى «ريم» جاءت من أجازة صيفية
قضتها عند أختها المتزوجة فى بيروت.. وبتلقائية شديدة جاءتنى بمفاجأة لم
أتصورها.. فقد أخبرتنى أنها التقت هناك بـ «بسام» الذى يدرس بجامعة بيروت
العربية بعدما انتقل مع أسرته للعيش فى لبنان.

دون أن تدري.. أيقظت «ريم» براكين أشواقى القديمة من رقادها.. وأينعت
من جديد براكين ذكرياتى وأورقت لهفة.

هكذا اكتملت خيوط الحب الأول التى ظننتها تهكت.. وإنسابت أغنيات
الغزل تروى ظمأ الأوردة المتيبسة.. من جديد عشش الحب بالشفاف وطفى..
وعلت خفقات القلب وانتشر ضجيجها.. تمنيت يومها أرى «بساماً» فأحتضنه..
أضمه فى حنان إلى صدرى فيلفحنى زفيره. تمنيت أن أراه فأركع فى ذل لكى
يسامحنى.. وتمسح أنامله دمعاتى.. فآلثمها.. ويلثمنى.

ألهذا الحد عاد «بسام» ليفزونى من جديد؟

كذبت مشاعرى إذن وأنا ألغنه فى الصفحات السابقة.. فالحبيب كان يقبع
فى عمق أعماقى. يتشبث بجدران الخلايا. ويسبح حبه فى شرايينى.. يرقب
جنونى وانفعالاتى.. ويصطلى بنيران شكوكى الآثمة..!!

فهل أقوم بمغامرة جزافية وأزور بيروت بحثاً عنه..؟

٤ أيلول / سبتمبر ١٩٥٨،

غادرت عمان يرافقتى والدى إلى فيينا.. كان لا يكف طوال ساعات الطيران
عن توجيه النصيح.. ولفت انتباهى إلى أننى مهما تأثرت بالحياة فى أوروبا
فمرجعى فى النهاية إلى الأردن.. حيث سيكون عملى وزواجى وبيتى.. ويجب ألا

أنسى ذلك فى كل لحظة.

كنت أستشف من نبرات صوته ونظراته القلقة أن ثمة مخاوف تراوده..
وجاهد كثيراً ل يبدو طبيعياً.. لكننى كنت أعرف والدى.. ولا تخطئ مشاعرى فى
ترجمة انفعالاته ودواخله.

كان والدى أماناً يبدو دائماً بشخصيته الفذة جافاً قوياً.. هكذا اعتدناه
منذ طفولتنا المبكرة حتى كبرنا بين أحضانه.. إلا أننى الآن اكتشف فيه جوانب
أخرى كانت خافية.. أو ربما لم تدركها عقولنا.. وأراه اليوم أباً يفيض بالحنان
والحب.. فيه وداعة تقطر عطفاً وأبوة.

وتذكرت الآن ما حدث لى عندما كنت فى الثامنة من عمري.. فقد وقعت
أثناء لعبى من فوق إحدى أشجار الحديقة.. وجريت إلى داخل البيت يسبقنى
صراخى.. أمد ذراعى هلعاً والدم يسيل منها.

قفزت أسمى تجاهى فتعثرت ثم نهضت ملتاعة لحالى.. وارتفع صياحها
المدعور تستغيث بأبى.. وعندما جاء مهرولاً من حجرته وأدرك ما حدث لى..
كان تصرفه مغايراً ومحيراً.. إذ لطمنى على وجهى وهو يصيح.. واتهمنى بأننى
فتاة مدللة أستحق ما حدث وأكثر.

يومها.. ومازلت أذكر إلى هذه اللحظة.. كانت صفعته أقسى من آلام
الجرح النازف بذراعى.. وتصورت بخیال الطفلة أن أبى رجل قاس.. متعجر
القلب والمشاعر.. وأغلقت على حجرتى ونمت بعد شوط بكاء طويل.. لكننى
استيقظت على خطوات وقد جاءنى متسللاً فى المساء.. فتصنعت الإستغراق فى
النوم.

وفوجئت به يلثم يدى ووجنتى برفق.. ويتمدد إلى جوارى.. وعندما ضمنى
إلى صدره غمرنى دفء أحضانه فتمت حقيقة.. وما استيقظت إلا وهو يقبلنى
وينسحب ببطء من فراشى عند الصباح.

وسألت نفسى وقتها:

- لماذا وهو بكل هذا الحنان يبدو لنا وللآخرين جهوماً.. متعنتاً.. صعب المراس..؟

والى الآن لست أعرف ما السبب.. ولماذا يظهر عكس ما يبطن؟
والإجابة على كل حال لن تفيدنى بشيء.. فوالدى الآن هى أفضل صورة..
وطبيعية.. بلا تكلف..!!

* * *

القسم الرابع في النمسا (٢)

«على مفترق الطرق..
هناك شب عراك
بين اثنين..
أحدهما يصرخ
من ثقب أحمر في بطنه
والصارخ والجرح.. أنا»

١٢ أيلول / سبتمبر ١٩٥٨

بعد عدة أيام قضاها والدى معى فى فيينا .. رجع إلى عمان بعدما اطمأن على إقامتى ببيت الطالبات.

حاولت «شارلوت» معى لأقيم معها فى الغرفة .. لكننى اعتذرت بحجة اختلاف دراستنا .. واختارت لى المشرفة فتاة سويسرية اسمها «جينيفيف ووترود» جاءت حديثاً إلى فيينا.

كانت «جينيفيف» ريفية شقراء ممتلئة قليلاً تعيش فى إحدى قرى «لوجانو» Lugano جنوب سويسرا بالقرب من الحدود الإيطالية.

وأعترف بينى وبين نفسى أن هذه الفتاة موفورة الصحة والجمال جذبت انتباهى لأول وهلة .. وفكرت فيها كحبيبة تعوضنى فقد «جولى» .. خاصة وقد أخبرتنى أنها تميل إلى الإنطواء وليست لها علاقة بصديق ماً .. كما أخبرتنى أيضاً أن شغفها بدراسة علم النفس الطبى يفوق كل وصف.

كانت هذه الفتاة صيداً سهلاً بالنسبة لى .. وأخذت أفكر فى شتى الوسائل التى أستطيع أن أستميلها بها لتشاركنى حياتى الخاصة .. ونظراً لأننا سنخروط فى صف دراسى واحد .. فكان معنى ذلك أننا سنتلازم فى الكلية وفى المسكن فى مواعيد واحدة .. وكان على لى أفوز بها .. استخدام ذات الطرق التى استخدمتها «جولى» معى من قبل.

١٦ أيلول / سبتمبر ١٩٥٨:

لليوم الثالث أكتب خطابات إلى «بسام» وأعود لأمزقها .. لقد استعصت على الكلمات حتى بدت السطور ركيكة الوصف لما يعتل بوجدانى ويثور فى نفسى.

عجزت تماماً عن وصف مشاعرى بالشكل الذى يحرك عواطفه تجاهى.

عواطف توارت قليلاً وتستلزم الكثير لإعلانها وإشعالها فى صدره .. حتى

أننى فكرت فى بعض الأوقات بزيارة بيروت للقاءه.. فالرسائل لن ترجعه إلى.. ثم عدت واستبعدت الفكرة لأن عواقبها ستكون وخيمة. فذات يوم سينكشف الأمر لا محالة.. وسيقيم والدى الدنيا حتى يعرف السبب.. ولأننى لن أقدر على مصارحته فسوف يسحبنى خلفه كالبقرة العمياء إلى عمان.. وعند ذلك سأفقد أى أمل فى مغادرتها بعد ذلك.

بقيت إذن فرصتى الآمنة الوحيدة.. وهى أن أكتب إليه.

نعم.. لابد أن أبعث إليه برسالة رقيقة.. لعل وعسى..!!

٢٢ أيلول / سبتمبر ١٩٥٨

فقدت السيطرة على نفسى وأنا أشاهدها عارية تبدل ملابسها بعد الاستحمام وترتدى غلالة أكثر إثارة.. داعبتها بأسلوب عفوى فلم تفهم.. إنها فتاة ريفية بسيطة تجهل الكثير من أمور الدنيا.. حتى إنها لم تكن تعى شيئاً بالمرّة.

استخدمت معها ذات الأسلوب الذى فعلته معى «جولى».. فلانت الفتاة.. واستجابات على استحياء فى البداية.. ثم تجاوزت بعدما استشعرت رجفات جديدة أرعشت فيها الشباب الغض وهددته.

كنت أنا التى أقود المهمة لأجل تدريبها.. فبدت مطيعة.. وتعمدت إشباعها أولاً حتى آخذ منها ما أريد.. ومررت التجربة الأولى معها بسلام.

٢٨ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٨

ردت إلى الرسالة الأولى التى كنت قد بعثت بها إلى «بسام» وعليها إشارة تقول: «لم يستدل على المرسل إليه».. ففقدت الأمل فى التوصل إلى عنوانه الصحيح.

٢٤ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٥٨:

كانت الدراسة بالكلية صعبة للغاية.. وبرغم إجادتى التامة للغة الألمانية إلا أننى كنت أشعر فى أحيان كثيرة بعمى غبائى فى استيعاب العلوم المقررة.

وفوجئت بالأمس بطلب استدعاء من أستاذى البروفيسور «جوستاف راشت».. وفى مكتبه أطلعنى على درجاتى المتدنية وطلب منى إطلاعهم على المشكلات التى تواجهنى فى دراستى أو فى حياتى الشخصية حتى يساعدنى على حلها.. وإلا فسوف أخضع لدورة مكثفة طويلة فى اللغة الألمانية.

عندئذ رجوته أن يعطينى فرصة ثانية لإثبات جدارتى فى فهم الألمانية.. وإلا فالويل لى من والدى الذى لن يتفهم الأمر على حقيقته.. وفى هذه الحالة سيجد المبرر الكافى لكى يعود بى إلى عمان.

قلت هذا للبروفيسور «راشت» وأنا أبكى.. فما كان منه إلا أن صرفنى وقال لى أنه يمنحنى فرصة أخيرة يقرر بعدها ماذا سيفعل معى.
ولما أخبرت «شارلوت» بما لدى من مشكلات فى اللغة.. نصحتنى أن أبحث عن طالبة نمساوية من طالبات الدار وأقنعها بالسكن معى لتحسين لغتى.. وإلا.. فهناك الحل الأخير.

قلت لها فى رجاء:

- الحل الأخير..؟ أخبرينى به من فضلك يا «شارلوت».

قالت:

- أن تتركى دار المغتربات وتبحثى فى إعلانات الصحف عن أسرة نمساوية تطلب فتاة مفترية للإقامة معها.

وأضافت:

- هناك أيضاً فى مكتب الخدمات الطلابية.. يمكنك العثور بسهولة على إحدى الأسر التى تقدمت للجامعة عارضة استضافة طالبة مفترية.. على أن

تتوافر فيها شروطاً معينة، أى تكون أفريقية مثلاً أو رومانية، والعمر، والديانة، وغيرها، وفى هذه الحالة تطلب الأسرة مبلغاً معيناً تضمنه الجامعة طالما الطالبة مسجلة بها.

قلت لها:

- لكن لماذا كل ذلك؟ هل لى أن أعرض شروطى أيضاً؟

أجابت شارلوت:

- نعم.. يمكنك الإعلان عن شروطك.. كعدد أفراد الأسرة التى تريد العيش بينها وأعمارهم، وتجهيزات الغرفة المعروضة للسكن، وأنواع الأطعمة والمشروبات وما إلى ذلك.

كان هذا كله لأجل اكتساب اللغة الألمانية بشكل أفضل.. ولم أجد أمامى أى بارقة سوى الإلتجاء لمشرفة الدار.. فتوجهت إليها من فورى وأطلعتها على مشكلتى فاتبسمت وقالت:

- لا عليك.. سأجد حلاً لمشكلتك فى أقرب وقت.

٤ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٨،

كنت قد انتهيت لتوى من مباراة حامية أنا ورفيقتى «جينيفى» عندما استدعتنى مشرفة الدار السيدة «باول».

ولما ذهبت إليها قالت لى:

- اسمعى يا ابنتى.. منذ أيام وصلتني توصية من البروفيسور «راشت» يطلب منى هو أيضاً محاولة إيجاد حل سريع لمشكلتك.. حيث أنك تكتبين الكلمات الألمانية بشكل خطأ نتيجة لتهجئة غير صحيحة بنسبة كبيرة.. واليوم.. اليوم فقط وجدت لك حلاً.

تعلقت عيناى بشفتيها انتظر ما ستقوله .. وأضافت:

- أعرف أنك استرحت لرفقة «جينيف» .. ونظراً للظروف التى تمرين بها الآن .. رأيت أنه من الأصوب انتقالك للإقامة مع فتاة نمساوية من «جراتز» Graz تدرس الهندسة.

وافقت فى الحال على اقتراحها الذى سيحرمنى من رفيقتى السويسرية .. لكن لم يكن هناك بيد من هذا الحل .. فتواجهدى فى مسكن واحد مع فتاة نمساوية سيحسن كثيراً من لغتى فى الوقت الحاضر.

هكذا تركت حجرتى مشفقة على «جينيف» التى كانت تبكى وذهبت إلى حجرة «كاتى» التى كنت أعرفها شكلاً من خلال تواجدنا فى دار المغتربات. استقبلتنى رفيقتى الجديدة بشيء من الفتور وأشارت إلى حاجياتها المنسقة باهتمام وقالت:

- أنا يا صديقتى أحب النظام وأعشقه .. وحبذا لو كنت أنت كذلك .. فهذا سيريح أعصابى جداً ويجعلنى فى حالة استرخاء نفسى. سكتت لبرهة ثم أردفت:

- لقد وافقت على إقامتك معى تحت ضغوط من السيدة «باول» فأنا لم أكن على استعداد لأن أقيم مع فتاة شرقية فى حجرة واحدة .. فالشرقيون كما أعلم لا يهتمون بالنظام أو حتى تعودوا عليه.

تماسكت وأنا أحاول الابتسام بهدوء .. وأخذت أوضح لها طبيعة بلاد العرب وحضارتهم وثقافتهم .. ففاجأتنى بقولها:

- إننا لا نعرف أى شيء عن العرب سوى أنهم قوم يعيشون فى الخيام المغزولة من الصوف .. ويركبون الخيول .. ويرتحلون على الجمال ويشربون لبنها. وبرغم دفاعى المستميت إلا أنها قالت فى محاولة لإنهاء النقاش:

- هذا ليس رأى الخاص يا عزيزتى .. فالإعلام هو الذى يوضح لنا هذه

الأمور.. ثم إن «أدولف هتلر» نفسه كان يضع العرب فى المرتبة الرابعة عشرة، بعد اليهود، فى سلسلة مراتب جودة الأعراف على سطح الأرض.
وأضافت:

- إنى أحسبك كثيراً يا عزيزتى على حياة الشرق هذه.. وكم أتمنى زيارة بلادكم والاستمتاع بركوب الجمل وبالجو المشمس.

شعرت بشرخ كبير فى كبريائى.. وسكت رغماً عنى أمام هذه المهانة التى أدمت نفسى.. فقد كان علىّ تحمل وضعى الجديد لأجل تحقيق غايتى.. وإلا فسيغنى ذلك تأخرى فى الدراسة لمدة عام آخر حتى أجيد اللغة الألمانية الفصحى.

هكذا صبرت وتحملت إهانات «كاتى».. تلك المفرورة التى تفتقد الكثير من الجمال.. وربما كان هذا ما يتلف أعصابها نظراً لكونى أجمل منها بكثير.

أما «جينيف» فقد تباعدت الشقة بيننا.. بالرغم من انتهائنا للفرص القليلة المتاحة للقاء فى غرفتها.. وبعد مرور مدة من الزمن لاحظت أنها تتهرب منى.. وعند ذلك أدركت أنها أقامت علاقة حميمة مع رفيقتها الجديدة فى الغرفة.

* * *

٢ شباط / فبراير ١٩٥٩:

لم تعد أعصابى تتحمل أكثر من ذلك.. فقد تمادت «كاتى» فى التحقير من شأنى والسخرية من أى تصرف أقوم به.. لذلك ذهبت إلى السيدة «باول» وشكوت لها معاناتى فى الإقامة مع هذه الفتاة المفرورة.. فوعدتنى بالتصرف.

كان والدى قد جاء لزيارتى والاطمئنان علىّ.. ولاحظ أننى مهومة على غير ما كان يتوقع.. فسألنى عن أحوالى الدراسية بيد أننى لم أتحمل السكوت فانفجرت فى بكاء مرير وقت له عما أمر به من ظروف.

وفى اليوم التالى فوجئت به فى الجامعة ومعه شخص لا أعرفه.. وفهمت بعد ذلك أنه يعمل فى السفارة الأردنية بضييىنا وجاء به والدى ليقوم بالترجمة

بينه وبين مسئول الجامعة.. حيث اطلع على موقفي الدراسي.. والتمس من المسئول نقلي إلى غرفة أخرى بعيداً عن هذه الفتاة النمساوية المستفزة.

أحالت الجامعة التماس والدي إلى السيدة «باول» التي ردت قائلة إنها تدرس حالتى وبعمق.. وتبحث فى الوقت نفسه عن فتاة نمساوية، وربما بافاريه، تكون رفيقة لى فى السكن.. وأنها ستعمل على أن يكون بينهما وفاق نفسى يؤدي الفرض المطلوب ويرفع بمستوى إجادتى للألمانية.

من جانبه تبسط مسئول الجامعة.. ووعد والدى بأننى سأدرس علومى الجامعية إلى جانب الدراسة اللغوية حتى يمكننى التقدم لامتحانات آخر العام فى تخصصى.

هكذا كانت زيارة والدى لى فاتحة خير كما يقولون.. ونقلتنى السيدة «باول» قبل عودته بأيام إلى غرفة أخرى للإقامة مع فتاة نمساوية اسمها «سارة بيراد» تعيش أسرتها فى منطقة «وستندورف».

كانت «سارة» رفيقة الملامح هاشة ضحوكة استرحت إليها على الفور.. حتى أنها ساعدتنى على ترتيب أغراضى الخاصة وأثت على أسلوب اختيار ملابسى واهتمامى بتناغم الألوان وانسجامها مع بشرتى.

وعلى ذلك عاد والدى أدراجه بعدما اطمأن على أحوالى مؤكداً على أنه سيعود ثانية فى أقرب وقت ومعه والدتى التى ينهشها القلق هناك فى عمان.

وعندما علمت سارة بأن سبب انتقالى للإقامة معها.. حرصت على مساعدتى والوقوف إلى جانبى بإخلاص شديد.

٢٧ شباط / فبراير ١٩٥٩:

تألفت و «سارة» لدرجة مدهشة.. ويبدو أنها كانت تعرف «جولى باتريك».. حيث لمحت ابتسامة ذات مفزى ارتسمت على وجهها وهى تقول:

- كانت «جولى» محبوبة جداً من جميع زميلاتهما .. خاصة الوافدات الجديديات .. (١١).

قلت لها وأنا أحاول أن أكون طبيعية وكأننى ما فهمت مقصدها :

- نعم .. كانت محبوبة جداً .. من الجميع .

قالت مصححة :

- من جميع الوافدات الجديديات يا عزيزتى .. حيث كانت تستقبلهن وتنتقى من تصلح منهن للإقامة معها .

قالت هذا وهى تضحك ففهمت أنها كانت تعرف أشياء كثيرة عنها .. وعن نزواتها الخاصة .

فهمت بها :

- مالك يا «سارة» .. أليست هذه حرية شخصية ..؟

أجابتنى على الفور :

- نعم يا عزيزتى .. وأنا لا أنكر عليها ذلك .. وأعتقد أنك توافقيننى الرأى خاصة وأن تعرفينها جيداً .. حيث أقمت معها فى حجرة واحدة طوال العام الدراسى الماضى .

كانت تلميحات «سارة» واضحة ومفهومة .. وقد استخدمت كلمات مهذبة فى إيصال رسالتها .. لذلك لم أغضب منها .. بل كنت هادئة البال لا أشعر بأى انفعالات غضب .

١٩ آذار/ مارس ١٩٥٩ :

تطورت علاقتى الخاصة بـ «سارة» خلال وقت محدود .. وتحولت زمالتنا إلى صداقة حميمة غلفتها خبرة كل منا فى إسعاد الأخرى .. واكتشفت مدى تميز

رفيقتى حتى خلت أنها تفوق «جولى» مرات ومرات.. وكان التجاوب المشترك بيننا مذهلاً.

بذلك تحققت لى أشياء كثيرة كنت بحاجة إليها.. أهمها التقدم فى دراسة الألمانية.. وتصريف تلك الرغبة المؤرقة التى فشلت مراراً فى كبجها حتى صرت أسيرة لها.

هكذا مرت على أيام الدراسة وأنا فى أحسن حالاتى.. فمع تقدمى الملموس فى الاختبارات الدورية.. أصبحت لى صديقة تشاركنى (....) بحرية.. ونظراً لهذا التفاهم القائم بيننا.. فقد اتفقنا على الإقامة معاً طوال سنوات دراستنا فى غرفة واحدة.

وعندما كتبت رسالة إلى «جولى» التى عملت فى إحدى مستشفيات جوهانسبرج وأخبرتها بأحوالى فى فيينا.. كتبت لى تقول:

- أهنئك على هذا التطور الجديد فى حياتك.. إننى أذكر «سارة» جيداً ولنا معاً ذكريات جميلة.. فأبلغها تحياتى وأشواقى لعلكما تستمتعان جيداً بصحبة وائتلاف وتفاهم.

٢١ نيسان / أبريل ١٩٥٩،

هذا اليوم - الثلاثاء - اكتشفت بطريق الصدفة أن «سارة» على علاقة بالجزائرى «بن قاسم».. حيث رأيتهما معاً قرب الظهيرة يغادران بنسيوناً بالقرب من الجامعة.. فتجاهلتهما ومشيت فى طريقي.. وفى حجرتنا بالدار سألتها عن «بن قاسم» فقالت لى إنه صديق عزيز دأبت على الالتقاء به فى البنسيون فى أوقات متباعدة.

أخبرتني أيضاً أنهما رأياني أمر أمام البنسيون.. ونظراً لارتباطها بموعد محاضرة هامة لكانت لحقت بى وجلسنا ثلاثتا فى مقهى مجاور.. حيث أخبرها

«بن قاسم» أنه يعرفنى وأعرفه.

وعلى استحياء سألتها عن طبيعة علاقتهما.. فضحكت ضحكة رنانة مكتومة وهى تقول إنهما ناضجان بما فيه الكفاية.. ووجودهما معاً فى مكان كهذا يجيب عن أى تساؤلات.

دهشت صراحة.. وتصورت أنها لا تحبذ أية علاقة لها بالجنس الآخر مكتمية فقط بعلاقتنا المثلية Homosexuality.. لكنها فاجأتنى عندما قالت إنها تستمتع فى كلتا الحالتين.. حتى إنها لا تستطيع الاستغناء عن وجود صديق أو صديقة فى حياتها.

كان تقبل هذه الحقيقة صعباً للغاية.. ولم أستسغ هذا الرد أو أصدق به برمته.. إلا أننى عجزت عن التوصل إلى تبرير يقنعنى بأن «سارة» تمارس حياتها الشخصية بطريقة صحيحة.

وفى النهاية وجدتنى ألتزم الصمت إزاء ما يحدث.. فالفتاة فى أوروبا لديها الحرية المطلقة فى إقامة أية علاقات خاصة دون أن يلومها أحد أو ينظر إليها نظرة سيئة.

لكن.. ما لم أتصوره على الإطلاق.. هو ما قرأته فى إحدى المجلات الفرنسية المهمة بعلم النفس.

لقد قرأت حواراً مع سيدة تحدثت فيه عن الحرية الشخصية وحقوق الولد والبنت فى سن المراهقة.. واستفزنى رأيها عندما قالت بمنتهى البساطة:

- عند بلوغ الفتاة سن الثامنة عشرة يجب أن تعيش حياتها بالشكل الذى تختاره.. ولكى تكون أمّاً ناضجة فى المستقبل.. فإننى أطالب الأمهات باصطحاب بناتهن عند بلوغهن هذه السن إلى الطبيب النفسى فى حالة كونهن بلا أصدقاء.. فقد تكون الفتاة مصابة مثلاً بعقدة نفسية تمنعها من ممارسة الجنس.. لذلك يلزم العلاج النفسى فى مثل هذه الحالة.

هذه هي أوروبا إذن.. الحرية بكل صورها.. والعلم وسباق التكنولوجيا..
والفنون.. والأزياء..

وبهذه العقلية المفتوحة تعيش «سارة» حياتها بلا عقد نفسية كما يحلو لها.

١٩ أيار/ مايو ١٩٥٩،

وصل والديّ بالأمس ليكونا إلى جوارى مدة الامتحانات ثم نسافر معاً إلى
الأردن.

نزلا بفندق «كلا جنفورت» القريب من الجامعة وتناولنا الغداء ثلاثتنا بمطعم
«تيروول».. ثم عدت أدراجي إلى الجامعة وتركتهما يتجولان في ميادين المدينة
ليشاهدا النافورات البديعة والمباني العتيقة التي ترجع لعهد امبراطوريات سابقة.

٢١ أيار/ مايو ١٩٥٩،

أخبرني والدي اليوم بأنه ينوي السفر غداً وبرفقته والدي إلى مدينة
«لننس» Linz التي عاش فيها هتلر والتحق بإحدى مدارسها «ريا لشولة»
Real Schule عام ١٩٠٠.

كان والدي معجباً بهتلر إلى درجة الهوس ويجاهر بذلك للجميع.. وسبب
إعجابه هو صعود هذا الرجل إلى قمة السلطة في ألمانيا بالرغم من عدم
حصوله على أية شهادات علمية أو تعليمياً عسكرياً أكاديمياً.. وبالرغم من ذلك
فقد كان يضع خطط المعارك بنفسه ويصر عليها رغم اعتراض قادته.. وكانت
خططه تتجح بدرجة مدهشة.. لكن الخطأ الجسيم الذي وقع فيه هو مهاجمة
روسيا واتساع رقعة الجبهات.

أذكر أن والدي كان يجد متعة كبيرة في الأمسيات التي تجمعنا في
الصيف.. عندما يقص لنا حكايات مشوقة عن هتلر.. والمعارك التي خاضتها

جيوشه فى شمال أفريقيا والبلقان وروسيا .. وفى أحيان كثيرة كان يمثل هذه المعارك بقطع خشبية ملونة لزيادة الإيضاح..١

وعندما سألته متى سيعود من «لنتس»؟ أجاب بأن السفر يستغرق نحواً من خمس ساعات بطريق البر .. وأقل من ساعة واحدة بالطائرة.. لكنه يفضل السفر البرى حتى يستمتع بمشاهدة ريف النمسا والمناظر الطبيعية.. وكان معنى ذلك أنه سيقضى أكثر من يوم فى «لنتس» التى تقع تقريباً فى منتصف المسافة بين فيينا ومدينة ميونيخ الألمانية.. وعلى خط مستقيم.

أما زيارته الثانية فستكون لدينة «شتاير» Steyr جنوبى «لنتس».. التى ألتحق هتلر بإحدى مدارسها عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره.. وكان ذلك بعد عدة أشهر من وفاة والده.

لقد كان أداء هتلر المدرسى فى «شتاير» ضعيفاً للغاية.. والمادتان الوحيدتان التى تفوق فيهما كانت الرسم الحر وحصل فيها على تقدير «يستحق الشاء».. والجمباز التى حصل فيها على «ممتاز».. وفى الفصل الدراسى الأول كان تقديره فى اللغة الألمانية «غير مقبول».. وفى التاريخ «كاف».

وبالطبع قدم هتلر تبريرات كثيرة لهذا الأداء الدراسى السئ.. وحسب روايته فقد كان على خلاف مع أبيه فيما يتعلق بمهنة الرسام التى يريد أن يتمنها فى المستقبل.. وأنه تعمد الفشل فى دراسته لكى يحقق ما يريد رغماً عن رغبة أبيه.. على الأقل فعل ذلك فى المواد التى كان يشعر أنها لن تفيده عندما يعمل رساماً.. بالإضافة إلى اهتماماته بالتاريخ الذى قال إنه كان يبهره دائماً.

بلا شك.. كان هذا التبرير الذى قاله هتلر لا يستند إلى الحقيقة.. (١) ونظرة واحدة لشهادته المدرسية كافية لتكشف كذب هذا الإدعاء.

وفى الغالب.. فهناك شهادات مدرسية كهذه بين سجلات المرضى النفسيين الذين يتمتعون بذكاء شديد ولكنهم لا يريدون أن يجتهدوا.. فهؤلاء المرضى من الذكاء بما يمكنهم من استيعاب بعض المفاهيم الأساسية دون بذل أى مجهود.

كنت قبل التحاقى بجامعة فيينا شديدة الإنصات إلى آراء أبى فيما يخص شخصية هتلر.. لكننى الآن بعدما قرأت عنه الكثير أصبحت أناقشه وأعارضه أحياناً كثيرة مستندة إلى ما كتبه الألمان أنفسهم.. لكن والدى كان شديد التعصب بحيث يصعب إقناعه..!!

١١ حزيران / يونيو ١٩٥٩،

ما يزال والدى يقيمَان بفندق «كلا جنفورت» بعد زيارات عديدة فى النمسا.. وبالأمس ذهبت إليهما ومعى «سارة» التى صاحبت قائلة عندما رأت أمى:
- إنها تشبه والدتى تمام الشبه.

وعندما ترجمت ما قالته.. احضنتها أمى وهى تردد فى حنان:

- أمينة تعتبرك أختها هنا.. إذن فأنا أمك أيضاً.

ولما أخبرت والدى أن «سارة» لا تحب هتلر وتحمل له كراهية شديدة سأل بدهشة:
- لماذا..؟

وقمت بدور المترجمة حيث قالت «سارة» الكثير والكثير واتهمت هتلر بأنه وحشى آمن بالوحشية وطبقها.. فى حين دافع عنه والدى باستماتة.. وأصابتنى المناقشة بالزهق.

والثبير.. أن والدى تضايق كثيراً من صديقتى وطلب منى ألا أقيم معها فى حجرة واحدة بعد ذلك.. بينما والدتى كانت تحاول فض الاشتباك.. وقالت لى إن «سارة» فتاة ذكية وعلى أن أتمسك بها ولا أخسرها.

١٧ حزيران / يونيو ١٩٥٩،

أنهيت امتحاناتى بالأمس وحجز والدى على طائرة الغد إلى «عمان» مروراً

بـ «صوفيا» و «أنقرة» و «حلب».. دون انتظار لنتيجة آخر العام.. حيث سيتكفل أحد الأشخاص هناك بإبلاغه بالنتيجة فور إعلانها.

لست أدري لماذا انقبضت نفسى عندما ذكرنى والدى بموعد الطائفة.. ورغم أننى أعلم أنه أتم إجراءات الحجز منذ عدة أيام.. ويبدو أننى كنت مشغولة تماماً فى الإمتحانات ولم يكن لدى الوقت لأفكر فى هذا الأمر.

أما الآن فلا شئ يشغلنى.. لذلك فقد ألم بى الاكتئاب واعتصر عطفى لمجرد أننى سأعود ثانية إلى «الأردن».

كانت «سارة» قد ودعتنى وطارت رأساً إلى «إنسبروك» Innsbruck غربى النمسا.. حيث انتقلت أسرتها إلى هناك والتحق شقيقها الأكبر - وهو طيار حربى - بقاعدة عسكرية قريبة من المدينة المطلّة على نهر «إن» Inn.

حاولت أن أنام.. لكن وحدتى ساعدت على تعاظم حزنى.. وقمت ملسوعة من فراشى وفتحت كتاباً فى الشعر والشعراء.. وقرأت للشاعر «باول فينس»^(١) Paul Wiens قصيدة أحببتها كثيراً.. حيث يقول فيها:

أفتح صفحات كتاب..
أدخل بيــــــــــــتاً..
فيه يولد إنسان..
والإنسان: أنا.

لكننى الآن..
على مفترق الطرق..

(١) باول فينس: ولد سنة ١٩٢٢ بمدينة «كونجز برج» الألمانية.. وهى المدينة نفسها التى ولد ومات فيها الفيلسوف «كانت». هرب من الطغيان النازى إلى سويسرا ثم استقر به المقام فى فيينا حتى انتهت النازية فانتقل إلى العيش فى برلين الشرقية.

(د. عبد الففار مكاوى: قصيدة وصورة. عالم المعرفة. عدد نوفمبر ١٩٨٧)

هناك شب عـــراك
بين اثنين
أحدهما يصرخ
من ثقب أحمر في بطنه..
والصراخ والجرح: أنا
شخص يضطرب فوق الزر..
يــــئــــن..
والشخص الضاغط فوق الزر:
أنا

أنصرف لحالي
يقف قطار..
أركبه.. تخرج عبر ليالٍ وليال..
تلعب دور الشطرنج معاً..
وأنا اللاعب مع نفسي
هي الخارج شرر متقد
رجل يتوهج فيه:
والرجل أنا..!!

القسم الخامس في الأردن (٣)

«لكن واحسرتاه.. ماتت «خلود» صديقتي
الوحيدة في عمان.. ماتت صغيرة ولم تنهأ
بحياتها.. حيث لفها الانكسار وأدمت فنواها
المهانة..»

لقد كانت إحدى ضحايا الأمية والجهل والخجل،

٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٥٩

إلى محبسى عدت ثانية.. عدت إلى الزنزانة والجو الخانق والقيود والحراس.

عدت إلى «عمان»..

فمن عاش مثلى فى «فيينا» وعرف حياة النور والحرية.. لن يقول غير ما قلت.. فلا وجه للمقارنة بين الحياة هنا والحياة هناك.. لا مقارنة أصلاً.. وقد ظلم وأخطأ من يقوم بعمل مقارنة بين الليل والنهار.. النور والظلام.. فالنور نور والظلام ظلام.

وأنا هنا.. أقيم فى بؤرة الظلام.

٦ تموز/ يوليو ١٩٥٩،

للمرة الثانية تزورنى صديقتى «خلود»..

فى المرة الأولى بعد وصولى بأربعة أيام كانت حاملاً فى شهرها السابع.. تعاني آلاماً مبرحة نفسياً وجسدياً.. وبرغم محاولاتها.. كل محاولاتها.. فشلت فى إقناع زوجها بأن ما يفعله معها لا يقره دين ولا شرع.

لقد كان ضابطاً عسكرياً ذا عقلية رجعية متخلفة.. يصر على معاملتها معاملة «الأمّة» التى لا تملك من أمر نفسها شيئاً.. وبرغم الحمل الأول وما يصاحبه من آلام.. إلا أنه لم يتوقف عن إهانتها.. حيث كان يفتصبها فى الوقت الذى يريده.. وكان يتمادى فى حيوانيته عندما يأمرها بالانكفاء والإلا..

أن يمارس الرجل حياته الزوجية بشكل شرعى، ولو بالقوة، فالقانون لا يصنف ذلك اغتصاباً.

وإن يواقع زوجته فى محل غير شرعى، وبالقوة، فالقانون يعطى الحق للزوجة فى طلب الانفصال.

لكن.. أى زوجة فى مجتمع قبلى تجرؤ على اتهام زوجها باغتصابها من الخلف..؟

إن الجميع - بما فيهم أهل الزوجة - سينظرون إلى هذه المرأة نظرتهم للمرأة الساقطة أو المومس.. بل لن يحترمها إنسان وربما تظل هكذا - مطلقة - طوال حياتها. وهل هناك امرأة واحدة فى مجتمعنا وانتهت الشجاعة ووقفت أمام القاضى الشرعى تصف له كيف اغتصبها زوجها عنوة فى محل غير شرعى؟ لا أظن ذلك..

وعلى فرض.. فإن المرأة التى قد ترتكب هذا «الجرم» دفاعاً عن آدميتها.. فمصيرها لا يعلمه إلا الله.

وهو المصير الذى كانت «خلود» تتوقعه إن هى اشتكت لوالدها أو لكبير قومها.. وليس أمام القاضى.

هكذا تخفى الأبواب المغلقة مأس ليس يعلمها أحد.. ولا يمكن تصور حجمها وشراستها.. وتلك كارثة ساعد المجتمع القبلى على شيوعها.. فليس بالضرورة أن تكون خلف الأبواب دائماً حياة أسرية سوية ووثام بين الزوجين.

وهذه المرة، قالت «خلود» إنها ستصير على هذا الوحش حتى تضع مولودها.. فربما تتغير قذارته وتنقلب إلى العكس عندما يصل الوافد الجديد!!

١٢ تموز/ يوليو ١٩٥٩،

كان الفراغ قاتلاً مزعجاً.. قرأت كثيراً من كتب الفلسفة وعلم النفس التى حملتها معى.. بيد أن الملل كان يحطم أعصابى ويصل بى إلى حافة الجنون.. فالخروج للتنزه كان بمعجزة.. والذهاب إلى الصديقات كان من المستحيل.. أما عمل المشتروات فكان يأتى بعد إلحاحات ومذلة.. بالرغم من أننى لن أكون بمفردى.

لم يكن والدى متعنتاً فى كل ذلك .. إنما كان يقول دائماً إننى شبعنت تنزهاً
فى «فيينا» ويجب التزام البيت فى «عمان» حتى لا يتهمه أحد بأنه ترك بناته
«يتبخرن» على راحتهن فى الشوارع والحدائق.

ربما كنت أقتنع بوجهة نظره .. فى بعض الأحيان ..

لكن إلى متى سنظل هكذا، إماء، بلا رأى ..؟

أين نحن من صفية زغلول التى خلعت «البرقع» وقادت المظاهرات فى
القاهرة منذ أربعة عقود ..؟

بالطبع لا يمكن مقارنة عمان بالقاهرة .. ففى مصر حجم الحرية أكبر من
أن يقارن .. وهنا ما تزال المرأة تقاد وتحرك وتقوم وتنام وتتزوج بالأمر!

٢٤ تموز/ يوليو ١٩٥٩

أخيراً عثرت على «ريم» التى كانت تصطاف مع أسرتها فى «عجلون»^(١) ..
لقد ظننت أنها سافرت إلى بيروت وأحسست بالسعادة لأنها ربما ستلتقى
و«بسام» .. لكن خاب ظنى.

وبالرغم من ذلك فقد جاءت لزيارتى وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ..
فقصصت عليها الكثير عن حياتى ودراستى فى «فيينا» ثم سألتها فجأة عن زميلتنا
الفلسطينية «جيداء» .. تلك الفتاة الجميلة التى تركنى «بسام» وارتبط بها .

وكم كانت دهشتى عندما أخبرتنى نبال زواج «جيداء» من ابن عمها فى مدينة
«الكرك» جنوبى عمان .. عند ذلك تجرأت وقلت لها إن «بساماً» كان يحبها ..
فماذا جرى؟

(١) مدينة جبلية تقع على السفوح الغربية لجبال عجلون وإلى الشرق من نهر الأردن (حوالى ٢٠ كم)
وهى مدينة سياحية، يعمل ساكنها بالسياحة والتجارة والصناعات التقليدية والخفيفة .. ومن أهم
معالمها الأثرية «قلعة الربض» التى بنيت زمن صلاح الدين الأيوبي لحماية بيت المقدس، كذلك
غابات «أشتينا» الطبيعية.

فضحكت وهى تقول أن ما كان بينهما ليس حباً ..

ولم أرد الاسترسال لمعرفة المزيد .. فقد كان مهماً ألا تشعر «ريم» بأنتى أبحث عن أخبار «بسام» .. حيث سبق لها أن سألتنى عما إذا كانت هناك ثمة علاقة ما بيننا أم لا ؟ فأنكرت وجود أى شىء يربطنى «بسام» .. واضطرت أن أقول ذلك لأن «ريم» لم تكن صديقة مقربة أستطيع أن أطلعها على أسرارى وتقلبات حياتى.

وحتى هذه اللحظة لست أدرى على وجه الدقة:

- هل لازلت أسيرة الحب الأول؟

- هل تخلصت إلى حد ما من شبح «بسام» الذى ظل يحاصرني حتى فى «فيينا» ..؟

- وإذا كنت قد تعافيت من هذا الداء .. فلماذا هذا الإهتمام الشديد بأخبار

«بسام» والبحث عنه؟

- لماذا أبعث كرامتى بالبحث عن إنسان ذاب بين بالبشر ولم يعد حتى يذكرنى ..؟

قرأت كثيراً عن الحب الأول .. حب المراهقة وانفجار العواطف .. وقيل إن هذا الحب ضرب من الرومانسية والمثالية .. وغالباً ما يفشل بعد مدة .. إلا أن هذه الآراء كانت لا تنطبق على حالتى .. فأنا أسيرة لهذه التجربة أحياناً .. وأحياناً أنساها أو أتناساها .. ربما يكون السبب فى تعلقى ببسام تجاهله لى وتفضيله فتاة فلسطينية عني .. واتهامى بالفرور والتعالى .

ربما ..

لكن ماذا أفعل لأنساها ..؟

إن هذه التجربة دفعتنى للتراجع عن إقامة أية علاقات عاطفية .. بل ساعدت على كراهيتى للجنس الآخر بوجه عام .. وقد يكون ذلك أحد أهم أسباب علاقتى الخاصة جداً بصديقتى «جولى باتريك» .. ثم «سارة بيراد» من بعدها .

١٩ آب / أغسطس ١٩٥٩:

احتفالاً بنجاحي.. جاءني والدي بهدية ثمينة كما قال.. وكانت هذه الهدية عبارة عن.. عريس..!

إنه ابن عمي الذي يعمل أيضاً في تجارة المجوهرات.. والمثير أنه كان يريد أن يتزوج في أسرع وقت.. أي أترك الدراسة في النمسا وأتفرغ لحياتي الجديدة في عمان.

لا أدري بالضبط ماذا حدث.. فعندما أفقت من إغماءتي كان الطبيب جالساً إلى جوارى على الفراش في حجرتي.. بينما وقف والدي يقفز الذعر من ملامحه.

أجهشت بالبكاء دون أن أستطيع كبح جماح نفسي.. وحاول الطبيب تهدأتي قدر استطاعه.. واقترب مني والدي فقبل جبھتي ثم جاءت أمي ونهرها أبي فخرجت.

بقيت ثلاثة أيام لا أغادر غرفتي.. يجيء والدي وأخوتي لكن أبي البكاء أن يغادرني.. وفي النهاية التزمت الصمت ورفضت تناول الطعام.. وجلس والدي بجوارى ذات مساء وقال:

- لم كل هذا يا ابنتي.. أنا لن أزوجك غصباً عنك.. وعندما تقدم ابن عمك طالباً يدك لم أعطه وعداً.. بل عرضت عليك الأمر لأن هذا حقك.. وحقى..!

ولما اطمأنتت إلى حديثه.. ورغبتنا المتوافقة في ضرورة إنهاء دراستي أولاً.. قبلت يده.. ففاجأني بقوله أن ابن عمي لا يريد زواجاً الآن.. لكن يطلب إعلان الخطبة فقط على أن يكون الزواج بعد حصولي على شهادتي الجامعية.

انقبضت نفسي عندما تذكرت ما يحدث مع صديقتي «خلود».. وبكل طرق الإقناع استطعت أن أضم والدي إلى رأيي بضرورة عدم الارتباط رسمياً الآن.. بحجة أنني سأتأخر دراسياً لأن ابن عمي هذا كثير الأسفار.. وسيلاحقني في فيينا وعندها سوف تحدث مشكلات ستشغل بالي وتؤرق حياتي..!

هكذا وافق والدي - ربما على مضض - على تأجيل أمر خطوبتي.. وعرفت

فيما بعد أنه تعرض لضغوط شديدة من شقيقه لإعلان الخطبة.. حتى إنه أخذ وعداً بعدم سفر ابن أخيه إلى النمسا للسياحة أو للتجارة حتى لا تفسر سفرياته هذه في غير صالحه.

إلا أن والدى تمسك برأيه.. وأعلنها صراحة.. فقبل رأيه بسخرية لكنه لم يتزحزح قيد أنملة.

* * *

٢ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩،

ماتت «خلود»..

ماتت وهي تضع وليدها البريء في بيت الزوجية..

تخرج زوجها الضابط من أن يقوم بتوليدها طبيب.. واستدعى لها «قابلة» بدوية لتقوم بالمهمة.. فماتت المسكينة بين يديها وهي تصرخ في الرجل أن ينقل زوجته حالاً إلى المستشفى.

لكنه رفض..

رفض الإنصات إليها كما كان يرفض الاستجابة لدموع «خلود» ويصر على اغتصابها ولو اضطر لتقييدها في السرير..

هذا هو زوجها المتعلم الذي بدأ أجهل من ناقة.

قتل صديقتي مئات المرات وهي حية.. ولم يرحمها.

قتل فيها الأمل والأمان وأترعها كؤوس الحزن والأسى ألواناً وألواناً.

قتل فيها هدأة السكينة عندما تعامل معها كجارية من حقه عليها الطاعة بلا مناقشة.. أو شكوى!

ولمن كانت ستشكو «خلود» وقد لطمتها أمها لأنها تكلمت عن أسرارها الزوجية.

تضافر الجميع واتفقوا على قتلها.. فقتلوها.

ولم أستطع وداعها الوداع الأخير.. ذلك لأننى عرفت نبأ موتها فى اليوم التالى.. فذهبت ووالدتى للعزاء.. وقد كنت أولى بهذا العزاء لأننى مت مثلها.. صديقتى الوحيدة..!!

١١ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩:

غداً سأطير إلى النمسا وحدى.. فقد أجرى والدى جراحة فى قدمه منعتة من مرافقتى.. وكان من المحتم أن أسافر لأنتظم فى الدراسة فى موعدها.. على أن يلحق بى والدى عندما تتحسن ظروفه الصحية..!

وبالأمس.. بالأمس فقط.. التقيت بعدد من زميلات اندراسة الثانوية فى منزل أسرة «خلود»... وعرفت أن «جيداء» التى أحبها «بسام» تزلت هى الأخرى.

لكن الذى صعقنى هو ما تردد أن «بساماً» كان لا يزال يحبها وسوف يعلنان خطبتهما فى أقرب وقت.. وما حيرنى حقاً هو ما أخبرتنى به «ريم» عن انتقال «بسام» وأسرته إلى لبنان.. فى حين أنه يعيش ويعمل فى «العقبة»^(١) وقد هجر الدراسة ليعول أسرته.

فلماذا كذبت ريم..؟

وما غرضها من ذلك؟

هذه الحقيرة خدعتنى إذن لغرض ما فى نفسها.

«ما كان بينهما ليس حباً...».

هذا ما قالته لى «ريم» يوم ٢٤ تموز الماضى.. فهل كانت تبعدنى عن «بسام» بتوصية منه.. أم بتصرف منفرد منها.

(١) العقبة: آخر مدن الأردن الجنوبية والميناء الأردنى الوحيد على خليج العقبة.. وتعتبر المدينة مركزاً تجارياً هاماً، وكانت المدينة تدعى «أيلة» وسميت «العقبة» من قبل دولة المماليك نسبة إلى جبل العقبة الوعر الذى يقع على طريق المسافرين من مصر إلى الحجاز.. وهو الطريق الذى ألفى بعد أن احتل اليهود فلسطين.

لكن.. ولحظها الحسن.. سافرت إلى أقاربها في «الزرقاء» وأظنها لن تعود إلى عمان إلا بعد أيام.. حيث سأكون قد غادرت الأردن دون أن أواجهها بكذبها.. وعلى الأقل أعرف منها لماذا كذبت.. ولأجل من؟

لكني يجب أن أعترف أنه بقدر أسفى وخداع «ريم».. فقد استرحت أخيراً حيث اتضحت الحقائق.. ولم يعد من اللائق بي أن أفكر بهذا الإنسان.. إذ يجب على أن أنساه وأطرده شر طرده من خيالي وقلبي.. وقد قيل: إذا تعارض الحب مع الكرامة.. فليمت الحب ولتبقى الكرامة.

هذا القرار لن أراجع فيه مهما كانت الظروف.. ولن أسمح منذ اليوم بأن أضعف أمام أى إغراءات وأتأسى قراراً يمس حياتي أمر مستقبلي.. لن أسمح أبداً.. كنت قد أعددت حقيبة سفرى استعداداً للسفر غداً.. لكن العديد من الأفكار حاصرتنى وأذهبت النوم من جفونى.. ومما شغلنى أكثر وأكثر وفاة صديقتى الوحيدة فى عمان.. تلك الإنسانية الرقيقة طيبة القلب التى صبرت على زوجها وتحملت الكثير لعله يعود إلى رشده بعدما يرى طفله الأول.. لكن واحسرتاه.. ماتت صغيرة ولم تهناً بحياتها.. ماتت وقد لفها الانكسار وأدمت فؤادها المهانة.

هكذا كانت «خلود» إحدى ضحايا الأمية والجهل والخجل.

ترى بماذا يشعر زوجها الآن..؟

هل زاره الندم وعدب فؤاده؟

لا أظن..

رجل على شاكلته يفتقر لأية مشاعر.. بل لا يكاد يعرف شيئاً اسمه الضمير والندم والشفقة والحنان.. ذلك لأن مجتمع البداوة خلق منه إنساناً غليظ القلب متعجراً الوعى..!!

القسم السادس في النمسا (٣)

«يا صديقتي العزيزة.. لقد فوجئت.. فما
بيننا أقوى من كل شيء.. وإذا كنت يهودية
غير متدينة.. فأنا الأخرى مسلمة أكاد لا
أعرف إلا أقل القليل عن ديانتى.. فلنشرب
معاً أقدماح التصافى لنمحو آية آثار
للكر..»

١٥ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩

كانت تراودنى الرغبة منذ مدة طويلة فى زيارة مدينة «فينيسيا» Venice .. ورؤية «جسر التهدات» Bridge of sighs الذى سمعت عنه كثيراً.. وانتهزت فرصة عدم مجيء والدى معى وعرضت الفكرة على «سارة» التى وافقت دون تردد على مصاحبتى.

ذهبنا معاً إلى إحدى الشركات السياحية الكبرى.. وحصلنا على أفضل عروض السفر وأرخصها.. وقررنا السفر بعد الغد.

* * *

١٩ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩

كم كانت ساحرة فى الليل.. فينيسيا.. مدينة الجزر والنور والجنادل.. تلك المعجزة المعمارية التى تضج بالروعة والفن والشاعرية.. ففى القرن الخامس الميلادى عندما أراد «أتिला» Attila الجرمانى أن يصل إلى روما لخطبة هونوريا أخت الإمبراطور.. سبقته شهرته كدموى ينشر الموت والدمار أينما حل.. ففر سكانها فزعاً إلى منطقة مستنقعات رخوة على شاطئ الأدرياتيكى.

ونظراً للاضطرابات السياسية فى ذلك الوقت.. أمام السكان فى تلك المنطقة وبنوا بيوتهم فوق الأجزاء اليابسة داخل المياه.. وظهرت عند ذلك النواة الأولى لمدينة «فينيسيا» الفريدة.

ذهبنا إلى «مجلس العشرة».. وهؤلاء العشرة هم أعضاء الحكومة الإدارية فى «فينيسيا».. هؤلاء الذين كانوا يصدرون أحكاماً قاسية بالتعذيب أو السجن.. والإعدام.. مقابل اتهامات أو جرائم تعد تافهة جداً.. وكانت الغرف السفلية تستخدم كزنايات للتعذيب وتتصل بالقصر بواسطة «جسر التهدات».

وسمى الجسر بهذا الاسم بسبب التهدات والأثام الحزينة للسجناء الذين كانوا يعذبون حتى الموت.. ويمرون من فوق الجسر عند ذهابهم إلى المحكمة

وعودتهم لتنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم.. وكان «كازانوف» قد سجن فى ذلك المكان الموحش عام ١٧٧٥.. لكنه بعدما تعرض لتعذيب شديد نجح فى الهرب بمعجزة.

كذلك زرنا «برج الأجراس» وحملنا المصعد إلى القمة لمشاهدة المدينة من أعلى.. وجلسنا على مقهى «فلوريان» FLorian واستمتعنا بالفرقة الموسيقية التابعة للمدينة وبمقطوعاتها المرحية.

ولمزيد من الاستمتاع ركبنا أحد الجنادل فى «جراند كانال» وهو الشارع الرئيسى الأهم فى المدينة.. حيث تصطف على جانبيه القصور البديعة.. وبه عدد لا يحصى من الكبارى.. ومررنا «بقصر الذهب» الذى تم طلاؤه ذات يوم بالذهب الخالص.

كنا قد نزلنا «بو نيفيشياتى» الواقع على حافة القناة.. وتطل الشرفة الخارجية التى يتم فيها تناول العشاء على كوبرى مقوس تمر من تحته الجنادل المارة بالجراند كانال.

كنت أشعر أننى فى الجنة.. فلا جمال يبارى جمال هذه المدينة الأسطورية الإبداع والروعة.. المدينة العائمة التى تحولت إلى حلم يراود كل أصحاب الخيالات الخصبة فى كل بلاد الدنيا.. أما أصحاب الخيالات المريضة فهم يفكرون فى جندول «فينيسيا» ولكن بطريقة أخرى مختلفة.. أو بالأحرى.. مميتة (١) إذ يفضلون التخلص من حياتهم بين مياه المدينة حتى يحملهم «شارون» الأسطورى إلى الجحيم عبر النهر.

لقد تحير علماء النفس فى كل البقاع ووقفوا عاجزين عن تفسير ظاهرة مرض «أشيبناس».. المقصود بها ظاهرة الانتحار المتزايدة فى المدينة.. و«أشيبناس» هذا بطل قصة «توماس مان» التى عنوانها «الموت فى البندقية» والتى تحولت لفيلم سينمائى.

ففى كل عام ينتحر فى المدينة خمسون من الأجانب.. ومعظمهم من الألمان الذين سافروا إلى مدينة الموت بذاكرة ذهاب بلا عودة.

فما السر وراء حالات الاكتئاب التي تصيب الأشخاص المؤهلين للانتحار.. وتجعلهم يختارون القناة الكبرى في المدينة ليفرقوا فيها أحزانهم وينهوا حياتهم؟ الدكتور «فايديزو راماسيونى» أخصائى الطب النفسى حلل هذه الظاهرة قائلاً: أن «البندقية» أو «فينيسيا».. تعد مثلاً للمدينة الأسطورية الخرافية الغامضة.. ولأن الانتحار نهاية بائسة تحدث لشد انتباه الآخرين.. فلا يوجد مكان أفضل من «البندقية» تجرى فيه أحداث هذه النهاية التي يختارها هؤلاء التمساء لأنفسهم.

وكان للطابع الخاص لهذه المدينة العائمة في استفحال ظاهرة الانتحار.. فالجندول الذى يحمل اللون الأسود.. وهو اللون السائد منذ القرن السادس عشر.. يبدو كقارب «شارون» المتهاذى وهو يسبح فى أنهار المدينة.

و«شارون» هذا شخصية أسطورية فى الميثولوجيا اليونانية - الرومانية القديمة - وكانت مهمته استقبال أرواح الموتى.. وعبر النهر بهم إلى «الجحيم».

والسائحون يتخيلون تلك القنوات المائية الرصاصية بلون الليل.. كقنوات للموت تفوح منها رائحة الجثث المتعفنة وانحلال الأجساد.. فيما تمزف الأناشيد الجنائزية على ضفاف القنوات.

وهؤلاء الذين جاءوا للانتحار.. ينزلون عادة فى أفخم الفنادق التاريخية بالمدينة حيث المباني العتيقة.. وهم يطلبون وجبات رائعة قبل رحلتهم الأخيرة إلى العالم الآخر.. ويتركون لورثتهم دفع فاتورة الحساب.

فالموت فى «فينيسيا» يعد حلماً لراغبي الانتحار وجزء من الأسطورة.. وهو ما يعطيهم إحساساً بالرقى والجمال والرومانسية أثناء الانتحار.. وهذا الشعور يقلل إحساسهم بالخوف.

لكن.. ماذا عنى أنا وصديقتى «سارة»..؟

استأجرنا غرفة مزدوجة بالفندق.. وبرغم ازدحام برنامج الزيارة إلا أننا لم ننس أنفسنا.. وبعد كل سهرة خاصة كانت الغرفة تبدو كساحة معركة شرسة.. إنها

مبارزة من أجل الحصول على أكبر قدر من المتعة... مبارزة نتبادل فيها الأدوار ونسبح فى عوالم من الحبور يصعب تخيلها أو وصفها.
لقد صرنا من عبياد هذا «الأمر».. نبحث عن كل جديد يصل بنا إلى قمة السعادة اللانهائية.

٢٨ أيلول / سبتمبر ١٩٥٩:

هذا الوقع طاردنى اليوم بين أروقة الجامعة.. يبتلى عواطفه الكاذبة التى لا تحمل إلا رغبته فى امتلاكى.. والتباهى أمام الطلاب العرب بأنه تمكن منى وضمنى إلى قائمة عشيقاته.

إنه الجزائرى المفرور «بن قاسم» الذى هددته فى حزم بأننى سأبلغ إدارة الجامعة بمطارداته لى فى كل مكان أذهب إليه.

عند ذلك فقط تغير أسلوب كلامه.. وحاول أن يبدو مهذباً على غير عادته وطبعه.. قائلاً: أنه لا يقصد إيذاء مشاعرى بقدر حرصه على مكاشفتى بمكنون قلبه وحبه الصادق.

بالطبع لم أصدق أن هذا المخلوق البشع الطباع يمكن أن يعرف الحب.. وربما يكون الحب عنده هو الصداقة التى تقود إلى الفراش.. وعلى كل.. لقد ضمنت بأسلوبى العنيف معه ابتعاده عن طريقى والبحث عن ضحية أخرى يخدعها بكلامه المنمق.

١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٩:

بالأمس فقط.. عرفت أن صديقتى «سارة بيراد» يهودية الديانة.. يهودية نمساوية..! صعبت لهذا الأمر.. وتصورت أنها إسرائيلية.. لكنها أفهمتني أنها يهودية غير متعصبة.. لا تذهب إلى المعبد تقريباً.. ولا تحب الخوض فى السياسة.

كان ذلك عندما أخبرتنى أثناء حديث عفوى بيننا .. أن أقرباء لها هاجروا إلى إسرائيل واستقروا هناك منذ سنوات حيث أقاموا فى فيلا رائعة بإحدى المستوطنات .. وحاولوا كثيراً إقناع أسرتها بالحاق بهم بلا فائدة.

وسألتها:

- هل زرت إسرائيل من قبل..؟

قالت:

- والداى قد زارها عام ١٩٥٥ .. وبرغم الحفاوة التى قوبلا بها هناك إلا أنهما لم يستريحا .. وغادراها على وعد بعدم تكرار هذه الزيارة مرة أخرى .. (١)
قلت:

- هل لأنهما لم يستريحا هناك كما قلت..؟!

أجابتنى:

- إن والدى كموظف فى إدارة الوثائق .. درس وعرف الكثير عن تاريخ اليهود وأطماعهم فى فلسطين .. فهو على ثقة بأنهم يغالطون ويزيفون التاريخ ويخدعون العالم بما يروجون له من أن لهم حقوقاً تاريخية فى فلسطين .. لذلك إزداد قناعة فى زيارته تلك أنهم كاذبون .. فالمستوطنات هناك عبارة عن ثكنات عسكرية محصنة . وتم تأهيل الجميع - رجالاً ونساءً - على الإنخراط فى جيش الدفاع وحمل السلاح إلى جانب العمل .

هناك أيضاً الإغراءات التى ينشرون عنها لحث يهود العالم على الهجرة لإسرائيل .. تلك الدولة التى أقامتها الأمم المتحدة وزرعتها فى أرض عربية .. عملاً بمقولة مشهورة روج لها «هرتزل» وهى أن فلسطين أرض بلا شعب .

يا عزيزتى ليس كل اليهود متوحشون كما تتصورين .. فالصهيونية العالمية كان لها ألف ذراع وذراع .. تنشر الفوضى والكاذيب وتصور للعالم بأن العرب هم الأشرار والقتلة .

لقد أقتنعا والدى أن الصهيونية ذات مبادئ هدامة .. حتى أن أغلب يهود

العالم ينكرون على إسرائيل هذه البقعة التي احتلتها لتقيم دولة اليهود عليها .

قالت لى «سارة» الكثير والكثير .. ومن ضمن الذى قالتة :

- لقد خشيت أن تهجرينى لو عرفت بأننى يهودية نمساوية .. لذلك لم أحادثك فى هذا الأمر البتة .. والآن .. ها أنذا .. بكل ما بى من محاسن أو عيوب .. والخيار لك يا صديقتى وليس لى .. فإما أن أحمل حقيبتى وأذهب للإقامة فى غرفة أخرى .. أو أن أظل كما أنا .. معك .. لا مكان للتعصب الدينى بيننا ..!!

قالت لى ذلك وخرجت من الحجرة .

وبعد دقائق حاولت أثناءها امتصاص صدمة المفاجأة .. خرجت للبحث عن سارة .. فوجدتها فى كشك الصحف الخاص بالدار .. ولما التفتت إلى قرأت ما بداخلى .. ومشينا معاً حتى حجرتنا وهناك قلت لها :

- يا صديقتى الوحيدة هنا .. لقد فوجئت .. لكننى الآن لم أعد أعر الأمر التفاتاً .. فما بيننا من صداقة أقوى من كل شىء .. فإذا كنت يهودية لا تهتمين بدينك .. فأنا الأخرى مسلمة أكاد لا عرف إلا أقل القليل عن ديانتى .. إننا إذن غير متعصبتين .. أو عدويتين .. فالأمور هذه كلها كانت خارجة عن إرادتنا ولا دخل لنا بها .

والآن .. وقد انقشع هذا الضباب الذى خيم علينا للحظات .. فإنا أدعوك للمساء فى الخارج أولاً .

ولما سكت ولم أواصل كلامى قالت متسائلة :

- وثانياً .. ١٩ .

قلت لها فى بساطة :

- وثانياً .. نشرب أقداح التصافى عندما نقيم ليلة عرس ملتهبة تمحو أية آثار للكدر .. وتكون امتداداً لرحلة جديدة من التفاهم والصدق والمحبة ..!!

٢٠ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٥٩:

بعدما استرد صحته جاء والدى من عمان كما وعدنى قبل سفرى.. وقضى أربعة أيام فى فيينا اطمأن خلالها على أحوالى.. ثم عاد أدراجه إلى الأردن مرة ثانية..
كان قد حمل إلى عدة خطابات من والدتى وأسرتى.. ومن ابن عمى الذى سيتزوجنى بعد رجوعى إلى عمان بشهادتى الجامعية.. كذلك حمل إلى كوفية من الصوف من عمل والدتى تعيننى على تحمل البرد القارس فى أوروبا أثناء الشتاء!!

٤ كانون الثانى / يناير ١٩٦٠:

بالأمس - الأحد - جاء والد سارة لزيارتها.. وذهبت معها إلى المحطة المركزية لاستقباله.. ووجدته بشوش الوجه.. باسم الثغر.. يرتاح المرء إليه منذ اللحظة الأولى.

جلسنا على مقهى «ريلكه»^(١) Rilke وعلى مدار ساعتين أخذ يشرح لى أشياء كثيرة عن اليهودية والصهيونية لم أكن أعرفها.. لكننى ازدادت قناعة فى النهاية بأن أسرة «سارة» ليس لها صلة بإسرائيل.. بل وأنها تنتقد السياسة الصهيونية فى فلسطين ولا توافق عليها.. وأن ذلك كان سبباً من أسباب رفض الهجرة إلى الدولة اليهودية..(٢)

(١) ربما يكون الاسم لشاعر ألمانيا الأشهر «رينيه ماريا ريلكه» (١٨٧٥ - ١٩٢٦)، الذى قام بجولات فى بلاد عديدة من بينها «مصر» التى تأثر بها كثيراً وأثمرت زيارته هذه عن عدد من قصائده الرائعة التى تعكس انبهاره بأسرار النحت المصرى. (٢) وأثناء زيارته لروسيا أحب المثالة «كلارا فيستهن» وتزوجها.. وعمل سكرتيراً للقنان الفرنسى والمثال الشهير «رودان» الذى ألف عنه كتاباً.. وأتاحت له إقامته فى باريس أن يتردد على متحف «اللوفر» وأن ينطبع وجدانه بروائع فضلاً عن روائع «سيزان» و«كوكوشكا».. وكتب مراثيه الثمانى المشهورة إلى «دونو» عن لوحات «بيكاسو».. كما بهره الرسام «ليونيد باسترناك» بعبقريته ريشته واختياره للألوان..!!

القسم السابع في الأردن (٤)

«غادرت عمان إلى فيينا أخيراً.. وودعني والدي في المطار بفتور لم أعده.. وكان الجميع ينظرون إليّ باستياء وغضب.. (١) فهم رأوا بأعينهم كيف تمردت على السلطة الأبوية.. وعلى كل التقاليد المرعية في مجتمعنا لأجل تحقيق رغبتى..!!»

«وبداية من كانون الثاني/ يناير ١٩٦٠ توقفت أمينة المفتى عن كتابة مذكراتها لأنه لم يعثر عليها ضمن أوراقها.. وربما فقدت يومياتها تلك خلال الأحداث اللاحقة.. وإن كنت لا أتصور توقفها عن الكتابة شارحة كل أمور حياتها بكل صراحة.

وما يجعلني على قناعة بأنها لم تتوقف عن تدوين يومياتها.. أن الجزء المفقود من أوراقها يتصل بقيام دولة إسرائيل ورأيها في اليهود.. فهذه الآراء واليوميات كانت مفيدة للغاية أثناء التحقيق معها لاستبيان فكرها وللإمساك بالخيط التي تقود إلى دراسة شخصيتها وكيفية التعامل معها.

وبعد انقطاع هذا الجزء الهام أو الحصول عليه من قبل جهاز الأمن الفلسطيني لمواجهتها به.. تعود أمينة إلى الكتابة من جديد.. وكان ذلك بعد انتهائها من دراستها الجامعية».

* * *

٦ آب / أغسطس ١٩٦٢

تقول أمينة:

- لم أعد أشعر برغبة في العودة إلى «عمان».. لقد اعتدت الحياة هنا حتى أن مجرد ذكر بلاد الشرق يصيبني بالاكئاب.. لكن بعدما حصلت على بكالوريوس «علم النفس الطبى» Medical Psychology بتقدير متوسط لم يعد أمامي إلا العودة مكرهة إلى «الأردن».

لقد تحادثت كثيراً مع «سارة» في هذا الأمر.. وكان من رأيها أن أرجع إلى أهلى ووطنى.. ولما سألتها عما ستفعله هي أجابت بأنها لن تستطيع مغادرة «فيينا» إلى أية مدينة أخرى.. وعلى ذلك فهي قد حددت هدفها في الحياة والعمل.. وطلبت مني أيضاً أن أحدد هدفى ولا ألعن ظروف نشأتى.. فالإنسان لا يختار مكان مولده أو موته.. ومن المهم أن اقتنع بحياتى بين أهلى فى وطنى.. فالضائع هو من لا وطن ولا أهل له.

ربما أكون قد استرحت إلى رأيها.. بيد أن الحقيقة كانت عكس ذلك.. فما إن عدت إلى «عمان» حتى تحولت حياتى إلى كآبة وجحيم من الغضب نقمة على كل شىء.. ولما فاتحنى والدى فى أمر زواجى أصبت بانهيار حاد فقد تذكرت «خلود» وما فعله زوجها معها.. وقلت لوالدى: إن فكرة الزواج الآن ترهق أعصابى وتدفعنى إلى حافة الجنون.

والدتى أيضاً كانت تريد أن ترانى زوجة وأما.. وبكت كثيراً أمامى ومن ورائى عندما كانت ترانى زاهدة فى الزواج.

حتى ابن عمى الذى كان يريدنى زوجة.. انتظر كل تلك السنوات ليفوز بى.

لماذا..؟

ليست لدى إجابة واضحة عن سبب هذا الانتظار الطويل سوى أنه يبحث عن صفقة ثمينة لا أكثر.. فوالدى تاجر معروف وثرى من أثرياء الأردن..

وصفقة الزواج ستعود بمكاسب كبيرة على ابن عمى الذى يريد الارتقاء والوصول إلى الثروة والشهرة خلال فترة محددة.. ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا من خلال والدى الذى سيرفعه بلا شك.. وربما أشركه معه فى تجارته ومحلاته ليديرهما معه.

زواجى إذن صفقة تجارية رابحة لابن عمى..!

ومع التدقيق قليلاً.. يمكن تبين بوضوح أن زواجى من ابن عمى صفقة أيضاً لوالدى.. فهو كان يعانى من أمراض الريبو والضغط والسكرى.. ومعنى زواجى من ابن العم الذى يمارس المهنة نفسها - وهى تجارة الذهب والمجوهرات - أن تجارته ستظل فى حالة انتعاش سواء نزل إلى محلاته بنفسه أو لم ينزل.

فعريس المستقبل سيقوم بتحمل الكثير من الأعباء.. أو بمعنى أشمل سيدير حركته التجارية.. وربما يكتفى والدى عندئذ بالإطلاع على الأوراق فقط.. كنوع من الإطمئنان على أحوال تجارته وأرصده فى البنوك.

لذلك كان من الواضح وضوح الشمس أن زواجاً مثل هذا هو نوع من تزواج المصالح.. بغض النظر عنى كإنسانة.. وبذا تصبح حياتى ملكاً لرجل لا ينظر إلى كزوجة مثقفة أو أنثى لها حقوقاً عليه.. وقد يعاملها كزوج «خلود» فتصير أمة لا حق لإعتراضها على تصرفاته.. وعند ذلك سيكون الأب فى صفه حفاظاً على علاقتهما التجارية.. وحفظاً لتقاليد البدو التى لا تحبذ الطلاق فتضطر الزوجة لأن تعيش مكرهة.. أو تتحرر يأساً.

٦ آب/ أغسطس ١٩٦٢:

منذ أن فاتحنى والدى فى أمر زواجى من ابن عمى وأنا أرفض بحجة إكمال دراستى العليا.. وكانت هذه الفكرة هى الأساس الذى استندت إليه مبررة رفضى.

أحس والدى بأننى أتهرب وأناور.. رافضة الإنصات لكافة الحلول ولسلطة الأب.. فهددنى بأنه سيمنعنى من السفر.. ولكى لا تستفحل المشكلة أقنعنى بأن أكمل دراساتى العليا فى عمان أو دمشق.. وذهبت معه إلى الجامعة حيث كان قد حدد موعداً مع مسئول هام أرسلنا إلى عميد كلية الطب.

بعد الاطلاع على أوراقى وشهاداتى الموثقة والمترجمة إلى العربية فى النمسا.. نظر العميد إلىّ فى دهشة وقال:

- هذا التخصص الجديد ليس عندنا... ولا يمكن لك عمل دراسات عليا فى عمان.

حاول والدى أن يعرف المزيد من المعلومات والإيضاحات.. ويبدو أن الرجل ضاق ذرعاً فقال موجهاً حديثه إلىّ:

- لماذا وقع اختيارك على هذا التخصص الذى لا يوجد عندنا..؟

فلحقه والدى بسؤال جديد:

- أليس لهذا التخصص نظيراً فى دمشق أو..

قاطعته العميد مؤكداً:

- لا دمشق ولا القاهرة أو جامعة عربية لديها فى كلية الطب مثل هذا التخصص.

نظر إلىّ والدى فى لوم مكبوت.. وانصرفنا.

وفى بيتنا تضاعفت المحاولات لإقناعى بالاكتماء بدرجة البكالوريوس.. لكننى إزددت إصراراً على السفر إلى فيينا لإكمال تعليمى العالى كأول فتاة عربية تتخصص فى هذا المجال الحديث.. على وعد بالزواج من ابن عمى بعد ذلك.

ولما فشلت محاولات الأسرة معى وهددت بالانتحار.. اضطر والدى إلى الموافقة مرغماً وهو يردد عبارات الإستهياء.. معلناً أن مصروفى الشهرى لن يزيد «شلتناً» نمساوياً واحداً.. فى محاولة للضغط على اقتصادياً ربما أترجع عن قرارى.

لكن هيهات.

فكيف لى أن أتراجع عن العيش فى أوروبا عدة سنوات أخرى..؟

ولأى إغراءات أتراجع عن تنشق هواء الحرية..؟

الأجل السجن القسرى الذى سأعيش به كأمة تنتظر سيدها ومولاها..؟ أم
لأعيش - وأنا التى تلقيت تعليماً راقياً فى أوروبا - كغيرى من نساء البدو لا فرق
بينى وبينهن..؟

١ أيلول / سبتمبر ١٩٦٢،

قبل ظهر اليوم غادرت عمان إلى فيينا بمفردى..

كان والدى فى قمة غضبه حتى إنه ودعنى فى المطار بفتور لم أعهده من
قبل.. وفى البيت كانت أمى تبكى فى مرارة.. لاعتة اليوم الذى فكروا فى
إرسالى إلى الخارج لإكمال دراستى.

الجميع كانوا ينظرون إلى باستياء.. مستكرين ما حدث.. فهم رأوا بأعينهم
كيف تمردت على السلطة الأبوية.. وعلى كل التقاليد المرعية فى مجتمعنا..
لأجل تحقيق رغبتى.

حتى ابن عمى الذى كان يأمل فى إتمام زواجنا.. كانت قسمات وجهه تفضح
الغضب الذى بداخله.

لكن ماذا كان بيده لكى يتصرف..؟

ومن الذى سيعطيه هذا الحق خاصة ووالدى كان ما يزال على قيد الحياة؟
ربما كانت الأمور ستتغير كثيراً فى حالة عدم وجود والدى.. لكنه كان حياً
ولديه القدرة والقوة والمقدرة على اتخاذ القرار المناسب دون أن يجزؤ أحد على
مخالفته.. سوى..!

نعم.. لا أحد كان بإمكانه معارضة رأى والدى.. مهما كان هذا الرأى.. ولولا تهديدى بالانتحار.. وما سيؤدى إليه ذلك من فضيحة مدوية.. لما وافق على سفرى لعمل دراسات عليا.

أعلم أنتى أذيته نفسياً ومعنوياً.. وضربت بسلطته عُرْض الحائط.. لكن الأيام كفيلة بأن تعود المياه إلى مجراها مرة أخرى.

فمتى يتحقق ذلك..؟

لا أدرى..!!!

القسم الثامن في النمسا (٤)

«أرجوك يا عمى.. لا تدعهم يذبحونى.. فمن
المستحيل وأنا أدرس للدكتوراه يزوجوننى من ابن
عمى المتزوج والذي لا يحمل إلا الابتدائية.. إن هذا
لن يكون.. نعم.. لن يكون حتى وإن أنهيت حياتى
بيدى.. فكن معى فى محنتى.. أنا فى حاجة ماسة
إليك..»

٢٩ أيلول / سبتمبر ١٩٦٢

عدت من جديد إلى «فيينا» فنزلت بفندق «فيسنبرج»^(١) Wessenberg المتواضع.. وفي اليوم التالي ذهبت إلى شارع «شتراوس» للبحث عن مسكن مستقل.. وكانت مفاجأة مدهشة أن وجدت مسكني القديم خالياً من السكان.. فاستأجرته ونقلت أغراضى إليه.

كانت شقتي الصغيرة عبارة عن حجرة نوم واحدة وحمام ومطبخ صغير.. لكنها عندي كانت أجمل بكثير من بيتنا الفخم الضخم في عمان.

وبعد أن استقر بي المقام في الشقة الحلوة عكفت على البحث عن صديقتي «سارة بيراد» حتى وجدتها، فذهلت لرأى حيث اعتقدت أنها لن ترانى ثانية في «النمسا».. وكان عناقاً حاراً يضيغ بالشوق والحب.

قصصت عليها ما حدث لى في «عمان» فأشفقت على حالى ومنحتنى الأمل فى حياة هائلة.. سعيدة.. بعيداً عن تغت الأهل وقيود التقاليد الشرقية التى أبغى التخلص منها.. ولكى أحس بالاستقلال الذاتى والإعتماد على نفسى فى تحمل تكاليف الحياة هنا.. يجب أن أسلك سلوك الفتاة الأوروبية التى خرجت إلى الحياة من عباءة الأسرة.

هكذا شجعتنى «سارة» على الاهتمام إلى عمل.. أى عمل لأستطيع الوقوف على قدمى إذا ما تقلصت تقودى لأى سبب أو نقصت.. وفى الوقت نفسه الاعتماد على نفسى فى الحياة من حيث الدراسة والعمل لما فى ذلك من إحساس كبير بالذات.

(١) لاشتهار النمسا بحب الفن والأدب.. ربما يكون هذا الاسم للشاعر الألماني الشهير «إجناس هيزيش فراهير فون فيسنبرج» الذى ولد سنة ١٧٧٤ فى مدينة «درسدن» لأمرأة عريقة النبالة.. ومات سنة ١٨٦٠ فى مدينة «كونستانس» بالجنوب الألماني.. وتأثر بأفكار عصر التنوير وانتخب عضواً حراً فى أول برلمان لولاية «بادن».. بيد أنه لم يلبث أن انسحب من مسرح الحياة السياسية وتفرغ لأعماله الأدبية ورحلاته.

(د. عبد الغفار مكاوى قصيدة وصورة، سلسلة عالم المعرفة، عدد نوفمبر ١٩٨٧).

جرعة من ثقة وأمن كان لها مفعول السحر فى حياتى..

لذلك.. بدأت بالبحث عن عمل بمجرد أن وافقت الجامعة على قبول أوراقى لاستكمال الدراسات العليا.. وكنت أبحث بالذات عن عمل يتوافق مع مواعيد الدراسة الصباحية أو المسائية.. حتى وجدت ضالتي فى ورشة صغيرة للعب الأطفال وافق صاحبها على إلحاقى بالعمل حسب ظروفى الجامعية.

فى ذلك الوقت لم أكن أعانى نقصاً فى المال.. فوالدى كان قد أعطانى مصاريف الجامعة كاملة.. بخلاف ما يكفى لإقامتى فى فيينا لمدة ثلاثة أشهر فى مسكن خارجى.. فالجامعة لم تكن تستضيف طلبة الدراسات العليا من خريجيها فى «بيت الطلبة» حتى ولو كانوا من المفتربين.

ابتهجت سارة عندما أخبرتها بنياً عشورى على عمل.. وطلبت منى ألا أتكاسل فى دراستى حتىؤكد لأهلى مدى التزامى وحرصى على التفوق وعدم إغضابهم.

ارتبطت أكثر وأكثر بصديقتى اليهودية التى شجعتنى على شق طريقى مهما كان شائكاً.. وفى الوقت نفسه قادتنى إلى طريق التحرر الجديد.. ألا وهو تيار «الهيبيز» الذى انتشرت أولى جماعاته فى أوروبا فى تلك الفترة.. واستحوذ على عقول ملايين الشباب من الجنسين.. حيث الحياة البوهيمية والسلبية فى مواجهة واقع الحياة ومشكلاتها.. وممارسة الجنس والشذوذ بحرية وتعاطى المخدرات.

هكذا ظهرت سارة بوجه آخر لم أكن أعرفه.. فهى التى كانت تشجعنى على التفوق فى دراستى.. وتأخذنى فى الوقت نفسه إلى حياة جماعات «الهيبيز» لأرى وأتحرر وأطلع وأجرب حياة جديدة لم أعشها.. لكننى على كل حال رأيت وتحررت واطلعت ورفضت تعاطى المخدرات.. أو ممارسة الجنس بشكل فج كما كانوا يفعلون.

ذلك لأن صديقتى «سارة» كانت تجىء إلى مسكنى من حين إلى حين.. فنتحرر من كل شىء ونجرع «الحرية» بكل أشكالها وأوضاعها.

و ذات يوم أطلعتنى «سارة» على بعض الصور لأسرتها وصديقاتها.. واسترعت انتباهى صورة عائلية ظهر فيها شقيقها «موشيه» الذى طالما حدثنى عنه.. إلا أننى لم ألتق به برغم مجيئه إلى «فيينا» مرات عديدة طوال إقامتى بها فترة الدراسة.. وكثيراً ما عرضت على صديقتى أن أذهب معها للالتقاء به إلا أننى كنت دائماً أرفض هذه الفكرة.

كانت صورته بالملابس المدنية أجمل كثيراً مما كنت أتخيل.. وبدأت أسأل «سارة» عنه على استحياء.. واحاول دائماً أن استفسر عن طبيعة عمله كطيّار برتبة ملازم أول.. حتى إنها صرخت محدّدة ذات مرة قائلة:

- أنا لم أقد طائرة من قبل لكى أجيب عن أسئلتك!!

* * *

٨ كانون الثانى / يناير ١٩٦٣،

جاء والدى إلى «فيينا» بشكل فجائى يوم الأحد.. فوضع أغراضه فى الفندق الذى اعتاد النزول به.. ثم ذهب إلى الجامعة للسؤال عنى.. وارتسمت على وجهه علامات الرضا عندما وجدنى داخل الحرم.

جاء معى ليقضى فترة زيارته بمسكنى.. وفى سرعة البرق أخفيت مذكراتى هذه خوفاً من أن يعثر عليها فتصير كارثة.. وبالأمر عندما عدت من الجامعة لاحظت أن والدى عبث بأغراضى.. بل وقلّب فى أوراقى الدراسية لعله يعثر على ما يبحث عنه.. لكنه ما وجد غير أوراق وكتب متخصصة باللغة الألمانية.

ترى.. هل سيواصل تفتيشه ربما يعثر على ما يكشف له بعضاً من أسرارى؟ اطمأننت على مذكراتى وتأكد لى أنه لم يتوصل إليها.. وبالرغم من ذلك تملكنى الخوف.. وصباح اليوم أخذتها معى وسلمتها لصديقتى «سارة».

١٩ شباط / فبراير ١٩٦٣:

منذ أيام رجع والدي إلى «عمان» بعدما ترك لي مصاريف الشهور القادمة.. وحمدت الله أنه اطمأن على أحوالي فلم يعرف أنني أعمل عدة ساعات يومياً في الورشة.. ولم يتوصل إلى أية أسرار خاصة بي.. وبمجرد أن غادر «فيينا» حتى جاءت «سارة» للمبيت معي.. في فراشي.. وفكرنا بالسفر إلى «باريس» لقضاء عدة أيام.. على أن يكون ذلك في آذار/ مارس عندما يتحسن الطقس هناك بعض الشيء..

٧ آذار/ مارس ١٩٦٣:

تم ترتيب كل شيء يتعلق بسفرنا إلى «باريس» التي سنصلها نهار السبت ٢٣ آذار.. واتصلت «سارة» بإحدى صديقاتها هناك وتدعى «سيمون» لتنظيم برنامج زيارة لنا لمدة ستة أيام.

لقد كنت في حالة شوق لزيارة «باريس» عاصمة الجمال والموضة «الأزياء».. ويطلق عليها أهل الفن عاصمة النور والجمال والحرية.. وها هي رغبتى على وشك أن تتحقق أخيراً.

٢٣ آذار/ مارس ١٩٦٣:

كانت باريس تعنى الفتنة كلها.. فهي لوحة رائعة خلابة وليست مدينة.. بل هي الحب والحرية والزهور والحدائق والمحلات والتاريخ.. وأجمل النساء أيضاً.. إلى جانب ذلك هناك العلم والصناعة والعمل والتكنولوجيا.. فاستحقت أن يطلق عليها «مدينة النور».

فمنذ أكثر من ألفى عام أقامت إحدى قبائل «الغال» قرية على أكبر

جزيرتين تعترضان مجرى نهر «السين».. وقبلهم رأى الرومان إقامة مدينة محصنة طبيعياً بالماء.. ولا تزال هذه الجزيرة تسمى إلى الآن «جزيرة المدينة».. التي كانت بمثابة البيضة التي فقست «باريس»^(١).

بيد أن المدينة الساحرة حتى عام ١٧٨٩ لم تكن تروق لأعين ملوك فرنسا.. فالملك «لويس الرابع عشر» لم يكن يحب هذه المدينة.. لذلك نقل مقر ملكه إلى «فرساي» التي كانت مستنقعات للصيد.. وتحولت إلى قصر فخم من أروع ما رأى العالم من تصور.

وعندما قامت الثورة الفرنسية ذحفت الجماهير إلى «فرساي» فذهبت الحرس ونقلت مقر الحكم إلى «باريس».. ولا زال ميدان «الكونكورد» باقياً.. وهو الميدان الذي نصبت به المقصلة التي أطاحت برؤوس الحكام الأرستقراطيين.. وكان الإمبراطور نابليون الثالث أول من وضع لمسات الجمال على باريس.. وأطلق عليه الشاعر «فيكتور هوجو» لقب «الإمبراطور الصغير» مما أدى إلى نفيه عن فرنسا عدة سنوات.

كانت «سيمون» قد استقبلتنا بعدما قطعنا رحلة طويلة مرهقة.. وحسب رغبتنا أخذتنا إلى فندق صغير أنيق، يدعى فندق «ليند برج» Lind bergh الواقع في شارع Chomel حيث أخذنا حجرة مزدوجة مؤثثة بفخامة.. فنسينا تعب السفر وتجولنا أول ما تجولنا بشوارع باريس الشهيرة.. منها شارع «هوسمان» Haussmann، وهو البارون الذي كان عمدة لباريس أيام نابليون بونابرت واشتركاً معاً في تخطيطها.. وشوارع «فولتير» و «سيباستوبول».. و «ماجينتا».. وشارع الأوبرا الذي أنشأه «البارون هوسمان» وكذلك الاثنى عشر شارعاً الذين على شكل نجم يخرج إشعاعه من «قوس النصر».. وسمى الميدان «ميدان النجم» إلى أن توفي الجنرال «شارك دي جول» رئيس فرنسا الأسبق فأطلق اسمه على الميدان رغم المعارضة الشعبية لذلك.

تناولنا الطعام الباريسي في مطعم «لاتور دارجان» La Tour d'argent

(١) مرشد السائحين.. دار ميوزيك، لبنان - ١٩٨٣.

بشارع «الباستيل» وفي المساء ذهبنا إلى شارع «الشانزليزيه» أشهر شوارع العالم وأغلاها سعراً.. ورأيت قوس النصر يتلأأ في أضوائه.. ونافورة «تروكاديرو» الشهيرة بجوار «برج إيفل».. ثم اتجهنا لنهر «السين» وهناك ذهلت لمراى الكبارى الحجرية القديمة التى تعبر النهر.

هكذا رأيت بعضاً من «باريس» فى الليل.. إنها مدينة تستطيع أن تسير فيها وأن تتمشى أنى شئت وكيف شئت دون أن تشعر بحرج.. وما يزيد المدينة جمالاً: المرأة.. فالفتاة الباريسية تختلف كثيراً عن الفتيات الأخريات فى أى مكان من العالم.. فهى الرشاقة والجمال والأنوثة والقوام والثقافة والذكاء واللباقة والثقة.

* * *

١٢ آذار/ مارس ١٩٦٣:

يشطر نهر «السين» عاصمة النور إلى جزأين: الضفة اليمنى والضفة اليسرى.. تصل بينهما حوالى ٣٠ جسراً.

ولكى نرى بوضوح أكثر تفاصيل «باريس» صعدنا برج «إيفل» أعلى برج معدنى على سطح الأرض.. لكن الضباب كان كثيفاً مما جعل نطاق الرؤية محدوداً.. فاتجهنا إلى «قوس النصر» بعد ثلاث ساعات من سطوع الشمس.. ومن أعلى رأينا تحتنا مباشرة اثنى عشر شارعاً كبيراً تتفرع منها شوارع صغيرة.. ورأينا شارع «الشانزليزيه» الذى يصل حتى ميدان «الكونكورد».

أخذنا أيضاً جولة رائعة فى نهر «السين».. واستمعنا إلى شروح تفصيلية لكل ما نراه حولنا.. وعبرنا أسفل جسر «الإسكندر الثالث» ورأينا الخيول الأسطورية المذهبة الرابضة على قوائم وأعمدة الجسر.

ذهبنا كذلك إلى «الحى اللاتينى» حيث جامعة باريس ومقر «السوربون».. وفى هذا الحى دارت عمليات قتال عنيفة بين المقاومة الفرنسية وقوات هتلر.

أما متحف «اللوفر» فكان لابد من زيارته.. حيث كنت أود مشاهدة تمثال

«فينوس» إلهة الحب والجمال عند الإغريق.. كذلك لوحة «المونا ليزا» التي رسمها ليوناردو دافنشى ولا زالت ابتسامتها تمثل لغزاً حتى الآن.. وقد تحققت أمنيتي أخيراً.. حتى أنتى زرت جناح الآثار المصرية وبهرتني المعروضات إلى حد الهوس!

وقبلما تغادر باريس.. زرنا «كرازى هورس صالون» أى «قاعة الحصان المتهور».. وهو مكان يقدم عروضاً غارية يقدمها ممثلون عراة تماماً يفعلون أى شئ.. وكل شئ.. على المسرح الساطع الأضواء أمام الجمهور..! بعد ذاك ذهبنا للعشاء بمطعم «ليدوين» Ledoyen الذى يقدم وجبات رائعة من كبد البط.. أو سمك «لارموريكاين».. أو بط بالخوخ.

وفى حجرتنا أخذنا دشاً وتناولنا وجبة خاصة تبعث الدفء بجسدنا.. وطبعنا بصمات بذكرى تضاف إلى ذكريات عديدة سابقة.. من الصعب نساينها.

فى الصباح كان موعدنا مع رحلة العودة إلى «فيينا»..!

٢ نيسان / أبريل ١٩٦٣،

إلى حد ما انخرطت فى الدراسة مع شعور بعدم الحماس.. فقد كنت أبحث عن ذاتى الجديدة فى أوروبا وكيفية التعايش هنا إذا ما فوجئت بانقطاع مصروف الأسرة عنى.

لقد تواصلت مع عملى فى ورشة لعب الأطفال.. حتى أن العمل كان يأخذنى كثيراً من دراستى.. ويوم الأحد أول أمس انتهزت فرصة أجازتى الأسبوعية لقضاء ساعات لذيدة.. لكن «سارة» أخبرتنى أن لديها ظروفاً تحول دون لقاءنا.. وبالصدفة تقابلت وفتاة صغيرة من جماعات «الهيبيز».. فدعوتهما إلى مطعم قريب ثم أخذتها معى إلى حجرتى.

كانت الفتاة من Leoben الواقعة على مسافة ٢٥٠ كيلو متراً تقريباً جنوبى

«فيينا».. تتعاطى الماريجوانا بإدمان مذهل.. طلبت منى نقوداً فوعدها.. وبعد سهرة مدهشة أعطيتها بعض النقود فأخذتها بفرح.. وانصرفت.

هكذا بدت حياتي والحرية التي اخترتها.. وتخيلت أحياناً أنني فتاة أوروبية انفصلت عن أسرتها كما هي العادة.. واستقلت مادياً عنهم لتعيش حياتها بالأسلوب الذي ترضاه.. فالعمل كان هدفاً من أهدافي.. والدراسة العليا كانت بمثابة التصريح لى بالإقامة في أوروبا ليس إلا.

٢٥ أيار/ مايو ١٩٦٣،

تسلمت خطاباً من والدي يخبرني فيه برغبته في إتمام خطبتي لابن عمي في أجازة هذا الصيف.. على أن يتم الزواج العام القادم بعد حصولي على الماجستير.. حيث يرى أن شهادة الماجستير كافية جداً في الوقت الراهن.. حتى لا يتقدم بي السن أكثر من ذلك.

وفي خطابه هذا كان يطلب مني ردّاً صريحاً وواضحاً يفيد بموافقتي على الخطبة كخطوة أولى.

لقد أصابني كلام والدي بالتوتر والأضطراب.. وفشلت في تهدئة نفسي وتمالك أعصابي لبعض الوقت.. فهو يتصرف بي كما تتص الأعراف القبلية في الأردن.. من حيث تزويج الفتاة من أحد أقربائها دون استئذائها.. وهذا الأمر بالذات كما انتقدته وسخرت منه.. لكن يبدو أنني سأكون إحدى ضحاياها.

لقد استأذنتي والدي في أمر خطبتي أولاً.. هذه حقيقة.. لكن الظروف اختلفت حالياً اختلافاً كبيراً.. فابن عمي يكبرني بسنوات وسنوات.. حتى إنه يقارب والدي عمراً.. هذه واحدة.

كان ابن عمي هذا متزوجاً من إحدى قريباتنا.. لكن لم يحدث إنجاب ولا أحد يعرف من فيهما السبب، هذه ثانية.. أما الأهم.. فهو كان حاصلاً على

شهادة إتمام التعليم الأساسى (الابتدائية) فقط.. فى حين حصلت أنا على البكالوريوس وأتطلع إلى الدكتوراه.

لم يكن هناك تكافؤ بيننا لكل ما سبق.. لكن كان هناك تكافؤ مع والدى من حيث العمر والتجارة والثروة.. وهذا مالا يتفق معى أو مع طموحاتى وأمالى.
فماذا أفعل..؟

وكيف أتصرف فى هذه المحنة..؟

هل أعود إلى عمان كالبقرة المغماء التى يعلقونها فى الناعورة «الساقية»
فتمشى فى دائرة محددة لا تدرى من أمرها شيئاً..؟

* * *

١ حزيران، يونيو ١٩٦٣،

كتبت رسالة إلى عمى.. كان قد تقلد منصب «لواء» فى القصر الملكى منذ فترة وجيزة.. يحدونى أمل بأن يقف إلى جوارى ولا يتركنى بمفردى أواجه هذا المصير المجهول الذى أختير لى.

قلت له:

- أعلم أنك غير راضٍ بتصرفات والدى.

الآن أنا فى طريقى لنيل درجة الدكتوراه... فكيف بالله عليك أتزوج من ابن عمى الذى لا يحمل شهادة؟

كيف يتم الزواج بين فتاة متعلمة وقريبها الذى من المستحيل أن يفهمها.. أو تفهمه..؟

ابن عمى (...) هذا أنا أحبه كابن عم.. كقريب لنا كان يحملنى على كتفه عندما كنت طفلة.. ويجىء لى باللعب.. وبالحلوى التى كنت أحبها.

ابن عمى (...) هذا المتزوج منذ ٢٠ عاماً من (...) التى أحبها وأقدرها

وأحترمها.. ولن يطلقها إذا فرض ووافقت على الزواج منه.. وهذا لن يكون
يا عماء.. نعم.. لن يكون حتى وإن أنهيت حياتي بيدي..
أرجوك يا عمي.. فأنت تعرف جيداً كم أحبك.. وعلى ثقة بأنني أقدر فيك
رجاحة عقلك.. أرجوك لا تدعهم يذبحونني.
كن معي في محنتي.. وسوف لن أعود إلى عمان قبلما يصلني خطاب منك.
إنني أغرق.. فلا تدعني أغوص في الأعماق.. بل سارع إلى وأنقذني.. فأنا
في حاجة ماسة إليك..!

أمينة

٩ حزيران / يونيو ١٩٦٢:

كنت أنتظر خطاب عمي بفارغ الصبر.. لكن لم يجئني الرد.. وجاءني والدي
بدلاً من خطاب عمي.

عنفتني بشدة وكان قاسياً أشد ما تكون القسوة:

- هل ربيتك وعلمتك وأرسلتك إلى هنا لتخرجي عن طوعي أيتها الحقيرة..

الغبية.. ٩

تهدنيني بالانتحار إذا صممت على زواجك من ابن عمك.. ٩ إذن فلتموتي..
فموتك أفضل كثيراً من حياتك.. ولن أضعف مطلقاً أمام تهديدك السخيف
هذا.. لن أراجع عن قراري.. ستتزوجين (...) غصباً عنك..!

أنتصوين أنك تعرفين مستقبلك.. وصالحك.. ٩

أنت أجهل من دابة حتى وإن حذت على الدكتوراه طالما الغباء يعيش في رأسك.

التزمت الصمت أمام ثورته.. لكنني لم أستطع التغلب على دموعي التي
انسابت حادة تلهب خديّ.

قلت لسارة أننى سأهرب من المسكن إلى مكان آخر.. ولن أذهب إلى الجامعة طالما والدى لن يفادر النمسا إلا وأنا معه.. لكنها ونعم الصديقة.. نصحتنى ألا ألبأ لأسلوب التهديد بالانتحار.. بل أنجأ إلى الإقناع كوسيلة للتفاهم.. وأظهر الطاعة لوالدى ممزوجة بعجرات حنان تقريه منى وتزرع ثقته فى من جديد.

عملت بنصيحتها وكم كانت محقة فيما قالت.. حتى إن والدى غمرنى بحبه الفياض وأغدق على بالهدايا الثمينة.. وبقي معى فى مسكنى يعد لى الطعام أحياناً.. ويجيئنى بالشاى وهو يدعو لى بالنجاح ويسهر إلى جانبى أحياناً كثيرة عندما أستاذكر دروسى استعداداً للامتحان.

٢٣ تموز/ يوليو ١٩٦٣،

اليوم.. الثلاثاء.. انتهيت من امتحاناتى.. وقام والدى بإنهاء حجز أماكن لنا على طائرة بعد الغد.

ولأننى سأغيب لفترة فى «عمان» ذهبت و«سارة» إلى أحد الفنادق الرخيصة.. وداخل حجرة سيئة أمضينا وقتاً قصيراً رائعاً.. حيث حصلت على جرعة من الحب تريح أعصابى.. وبعدها ذهبت إلى مسكنى حيث كان والدى نائماً.

لاحظت أنه قد تهيأ للسفر.. فقد اشترى بعض الهدايا للأسرة كما اشترى حقيبة سفر جديدة.

القسم التاسع في الأردن (٥)

«هناك أشياء كثيرة لا تعرفونها يا ابنتي..
وهذه الزيجة لصالحك على كل حال..
وعندما يجيء الوقت المناسب ستعرفين كل
شيء.. وعندها سيتأكد لديك أننا كنا نعمل
لإسعادك..»

٧ آب / أغسطس ١٩٦٣

عندما اقتدت إلى «عمان» كنت كمن أساق إلى نهايتي.. تلك النهاية البشعة التي كنت أتوقعها.. ولما جاء عمى إلى منزلنا يهنئني بسلامة الوصول.. نظرت في عينيه نظرة لوم.. فرمقني بعدة نظرات سريعة كمن يتهرب من مواجهتي.. ولولا وجود أبى لسألته:

- لماذا لم تحترم رسالتي إليك وسلمتها إلى والدي..؟

لماذا لم تهتم بمأساتي وأهملت استغاثتي إليك..؟

لماذا تصمت هكذا ولا تغير مشاعري التفاتاً..؟

لقد وضعت آمالي بين يديك لثقتي في أنك ستفعل الكثير والكثير لأجلي.

فلماذا تذبحنى أنت الآخر..؟

لماذا..؟

غصت في معاناتي ووأدت آخر أمل لي في أن أعثر على مصدر أمان يقيني الشر القادم.. لكن يبدو أن هناك ما لا أعرفه وتم الاتفاق عليه قبلاً.

حاولت الالتجاء بقوة إلى والدي.. إنها في حالة سيئة كما يبدو من ملامحها.. ومن خلال دموعها الصامتة وركونها إلى السكوت أمام ما يجري أمامها.. وفشلت..

فشلت فشلاً ذريعاً في استنطاقها.

نعم.. فشلت في أن أعرف منها ماذا دبروا لي وخططوا وأنا بعيد..؟

ثلاثة أيام بالتمام والكمال منذ وصلت إلى عمان.. وتقرر إعلان خطبتي رسمياً من ابن عمى.

قبلها بيوم واحد جلست معه بمفردنا في حديقة البيت.. سألته سؤالاً مباشراً:

- هل أنت سعيد بخطبتنا يا ابن عمى..؟

أجابنى:

- اسمعى يا أمنية.. أ عرف أنك فتاة ذكية.. وكان من الأصوب أن تفكرى جيداً فى مستقبلك.. فلو حدث وتزوجت من شاب يقاربك عمراً.. فهو لن يوفر لك الحياة الرغدة التى تليق بك.. لكننى يا ابنة العم لى القدرة والإمكانات المادية لإسعادك وتحقيق طموحاتك.. ولسوف أقيم لك عيادة كبيرة أو مستشفى فى أرقى أحياء عمان لتزاولين عملك بحرية كما تريدن.

وأضاف:

- أعرّف أن هناك فروقاً كبيرة بيننا فى مستوى التعليم.. والسن.. لذلك سأسعى قدر المستطاع لإسعادك لتذويب أية فروق.

قلت له:

- وهل تتصور أننى محرومة مادياً لكى تغرينى بعرضك هذا؟.. أنت تعرف أن والدى ثرى جداً.. وتجارته رابحة.. فنحن نقيم فى فيلا راقية.. ولدينا سيارة حديثة.. وتعلمنا تعليماً عالياً.

ثم لا تنسى أننى أعرّف أنه لولا والدى ما كنت ثرىاً.. فقد وقف بجانبك وأزرك بالمال والخبرة.. والعلاقات وأسرار المهنة.

فأى جديد ستقدمه لى يا ابن العم..؟

وما هو الذى أفتقده وأطمح فى الوصول إليه..؟

فهل سأعيش فى فيلا كهذه مثلاً..؟

هل سيكون لى ثلاث خادمات..؟

أم ستحشرنى فى شقة ضيقة الجدران تخنقنى..؟

وربما ستأخذنى لأعيش مع زوجتك.

هه.. ماذا لديك يا ابن العم..؟

تفصد منه العرق مدراراً.. وكاد أن ينصرف وهو يرفل فى خجله.. وقال بتلعثم:

- سأقدم لك ما لن تتصوره يا أمينة.. فلماذا أنت عجولة لا تصبرين؟

قلت له:

- مهما قدمت لى فلن يكون بأكثر مما لدى.. وحتى لو لم يكن لديك ما

يحقق رغباتى، المادية، فأنا سأطيع رغبة والدين ولن أرفض له طلباً.

هذه حقيقة يجب أن تعرفها.. لكن عندى رجاء أرجوك أن تناقشنى فيه الآن

وتعدنى بأن تحققه لى!

نظرت إلى عينيه فى رجاء فأجابنى فى الحال:

- إنى أوافقك على كل ما تريدين.

قلت:

- يا ابن عمى.. أنت تعرف أمينة.. ابنك عمك.. إنها لم تتغير أو تتبدل..

تحبك وتقدرك وتحترمك..!

وما أرجوه منك ألا تعجل أمر زواجنا حتى أحصل على الدكتوراه وأستقر فى

عمان وافتتح المستشفى الذى وعدتني به.. فأنت تعرف أن الزواج سيعطل

دراستى.. وقد يكون هناك حمل وإنجاب فيموت أملى بذلك إلى الأبد.

هذا رجاء أريد منك الآن وعداً صادقاً بتلبيته.. وأنا منذ صغرى أعرف

مدى طبيبتك وسعيك فى كل وقت لإدخال السعادة إلى نفسى.

كلمات انتقيتها بعناية انتهت بخضوعه.. وأعطانى الوعد الذى أريد.

هكذا خرجت منتصرة إلى حد ما من لقاء الحديقة المنفرد.. وبعد عشاء

ذلك اليوم جاء العريس المنتظر يحمل حقيبة ملأى بالمجوهرات.. فتحها أمامى

وتركها لى قائلاً:

- انتق ما يروقك يا أمينة..!

فانتقيت منها ما لائم مزاجى وسط استحسان الأهل ونظرة الرضا من
والدتى.. والظفر من والدى..!!

١٦ آب / أغسطس ١٩٦٣:

بالأمس كان حفل خطبتى.. أقيم حفل عائلى فى حديقة البيت.. وانهالت
على الهدايا من الأهل والأقارب.. وبدوت فى فستان الخطبة جميلة جداً وفائقة
الأنوثة حتى أننى خفت أن أحسد نفسى.

سبق هذا الحفل مشكلة كبيرة كادت أن تقلب حياتى رأساً على عقب.. إذ أن
والدى كان قد صمم على عقد قرائى.. وحاولت مراراً أن أثنيه عن قراره لكنه
أبى. ولم أجد غير ابن عمى الذى أقنعتة بوجهة نظرى.. فبدأ متفهماً.. وربما
تخرج من إلحاحى.. فتراجع وضغط بقوة على والدى لإلغاء مسألة عقد القران
فى الوقت الراهن.

أما عمى.. سيادة اللواء الذى خذلنى.. فيبدو أنه كان من مؤيدى هذا
الزواج.. لذلك كنت أرى ابتسامته العريضة دليل اشتراكه فى المؤامرة.

لكن من سينتصر فى النهاية..؟

لست أعرف بالضبط..

وكل ما أعرفه أننى قررت ألا أقف فى وجه العاصفة.. وفى هذه الحالة
سأخسر الكثير.. وامتثلت - افتعالاً - للمصير الذى اختاروه لى لكن بداخلى
يتوحش الرفض ويتعملق..

وأعود ثانية إلى السؤال الأخير:

- من سينتصر فى النهاية..؟

٢٧ آب / أغسطس ١٩٦٢:

تواصلت زيارات ابن عمى «خطيبى» لبيتنا.. يجىء كل مرة بهدايا ثمينة لإشباع غرورى بالطبع.

و ذات يوم لم يجئ بمفرده كالعادة.. بل جاء ومعه زوجته التى قابلتها بترحاب وعناق.. إلا أننى كنت - كأنتى - ألمح فى عينيها نظرات حزن عميق تحاول إخفاءه.. لكن مهما حاولت فلن تقدر على أن تخف ذلك عنى.. وفى الوقت نفسه لن أقدر على فعل أى شىء حيالها.

وأعتقد أن الأيام القادمة سيتحدد خلالها مصير هذه الزوجة التسعة التى تعاني القهر الاجتماعى فى أبرز صورته.. وأوشكت أن أنفرد بها لأخبرها أننى لن أكون ذات يوم دخيلة على بيتها وحياتها.. ثم عدت ونقضت الفكرة.. فقد كنت على وشك السفر إلى النمسا ولا أريد أن أخلف ورائى أية متغصات أو مشاكل.

وكل ما فعلته هو أننى تمنيت لها فى بالى سعادة موفورة.. وخير صعبة فى كنف زوجها.. خطيبى..!!

٢ أيلول / سبتمبر ١٩٦٢:

سؤال كان يحيرنى ويشغل بالى طول الوقت:

- لماذا أمى سلبية..؟

أين دورها فى حياة أولادها ومستقبلهم..؟

ولماذا تبدو دائماً مغيبة.. لا صلة لها بقرارات الأسرة المستقبلية.. ولا دخل لها فيما يجرى حولها.

ولم أترك الأسئلة الملحة تلج فكرى دون إجابة.. بل سألتها مباشرة:

- أمى.. لماذا لا تتدخلين فيما يجرى وتدلين برأيك فى خطوات حياتهم

وترتيبات مستقبلهم ٩٠٠

أجابت:

- ومن قال لك أننى غائبة عن كل ذلك.. ١٩٠٠ إننى أفعل ما لا تتصوره لإسعادكم، وأنت مثلاً.. لا تظنى أن قرار سفرك إلى أوروبا لإكمال تعليمك الجامعى اتخذ بعيداً عنى.. أو أننى كنت آخر من يعلم.. لا يا ابنتى.. إننى دائماً أعمل كل ما يتصل بمستقبلكم لكن فى الظل.

نعم.. أفعل كل شئ فى الظل لأننى أحب أن يكون والدكم فى المقدم.. الواجهة.. بؤرة الضوء التى يراه الجميع فيها.. وأكون أنا بعيدة.. لكن مؤثرة.

فسألتها:

- إذن لقد كنت وراء أمر خطبتى لابن عمى المتزوج والذى لا يحمل إلا شهادة

الإبتدائية.. ٩٠٠

قالت:

- هناك أشياء لا تعرفينا يا أمينة.. وهذه الزيجة لصالحك على كل حال.. وعندما يجىء الوقت المناسب سوف تعرفين كل شئ.. وعندها سيتأكد لديك أننا كنا نعمل لإسعادك.

حاولت أن أعرف منها طبيعة تلك الأشياء الخفية التى لا أعرفها لكنها رفضت الكلام قائلة:

- إن الزمن كفيل بأن يريك كل ذلك فى حينه.

كانت أمى تتكلم وكأنها تخفى سرّاً رهيباً.. وأحسست بأنها تؤهلنى لاستقبال ذلك السر فى يوم من الأيام.. وبدأت أمى التى كم سخرت من سلبيتها قوية وصامدة.. حتى أنها تحمل عنا معاناة أبت إلا أن تعاني منها وحدها..!

لكن لماذا أنا بالذات التى أخترت زوجة لابن عمى هذا؟

ولماذا وافقت الأسرة على خطبة شقيقتى الوحيدة من رجل أعمال قريب لنا
يعيش فى روما..؟

أسئلة كثيرة كانت بلا إجابة.. وإلى أن تظهر لها إجابة ستكون هناك أمور
كثيرة قد وقعت.. أو تبدلت..!!

٩ أيلول / سبتمبر ١٩٦٣:

سأطير غداً إلى النمسا.. إلى حيث النور والتحرر بعيداً عن حياة الجهل
والظلام هنا.. وسيجىء والدى و «خطيبى» ليقضيا عدة أيام معى ثم يعودان
أدراجهما.

كنت خلال الأيام الفائتة قد فكرت بحياتى.. وخلصت إلى أن هناك تضحية
يجب على تقديمها لأسباب لا أعرفها.. فوالدى كان حريصاً على الظهور أمامى
بمظهر الأب السعيد الذى يفخر بابنته المطيعة.. فى حين كانت أمى تبالغ كثيراً
فى إعلان سعادتها.. وهذا ما كان يؤرقنى.

أما «خطيبى» فقد بدأ متفاهماً ودوداً.. يسعى قدر الإمكان لإرضائى.. حتى
قلت إنه طفل فى المدرسة يتعامل مع مُعلّمتة بكل طاعة وتهذيب.
هناك إذن ما لا أعرف من أمور خافية اتفق عليها الثلاثة: والدى وابن
عمى.

ولما ضقت وأرهقنى التفكير.. نبذت كل ذلك جانباً وقلت فى نفسى: لأترك
كل شئ لحينه.

وجهازت حقيبتى لرحلة الغد المنتظرة..!!

القسم العاشر في النمسا (٥)

«ترنحت سكرى أمام أول تجربة حب..
وسقطت شرقيتي وعذريتني وتعاليدى لتستقر
في الحضيض.. فحاولت أن أهرب من
«موشيه» لكن رجفات الرغبة كانت كالسياط
تلسعني.. وتضرب بأعماقي..»

٢٢ أيلول / سبتمبر ١٩٦٢

عاد والدى وخطيبى إلى «عمان» منذ ثلاثة أيام.. وخلال مدة بقائهما هنا فى «فيينا» أقاما فى أحد الفنادق.. وكنا نلتقى يومياً لتناول الطعام أو للتنزه. وخلال تلك الزيارة لم ينفرد بى «خطيبى» أو بيد رغبة فى أن نخرج معاً.. وحدنا.. بل كان والدى يتأبط ذراعى أحياناً أو يسحب ذراعى لأتأبط ذراعه.. وانتهزت فرصة وجود ابن عمى واشترت عدداً ضخماً من الملابس المثينة التى لم بيد اعتراضه على ثمنها مثل والدى.

وبعد سفرهما جاءت معى حبيبتي «سارة» إلى المسكن.. حيث تهيأنا لسهرة «حب» طال انتظارها.. واشتد شوقنا إليها.. وامتدت حتى لقرب الصباح فى احتفالية أضفت على أجازة آخر الأسبوع بهجة ورونقاً.

كانت سارة على وشك السفر لأسرتها خلال أيام.. حيث كانت أمها تعاني من آلام حادة فى المفاصل.. ولما دعنتى لمرافقتها وافقت دون تردد.. رغبة فى زيارة غرب النمسا حيث تعيش أسرتها بمدينة «إنسبروك» Innsbruck، وهناك سنقضى عدة أيام فى التنزه وزيارة الغابات والجبال!

١٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٢

فى اليوم الأول من هذا الشهر وصلنا إلى «إنسبروك» ورحبت بنا والدة «سارة» كثيراً.. أما والدها فقد صاح بسعادة مرحباً وهو لا يصدق أننى ذهبت لزيارتهم وقطعت كل تلك المسافة من أجل الاطمئنان على زوجته.

كان البيت يبدو كلوحة فنية ثمينة.. بنى من طابقين من الخشب.. وكانت الحجرة التى خصصت لى بالطابق الثانى منسقة رائعة.. على الجدار رأيت صورته بالزى الرسمى.. بدأ وسيماً مليح القسمات ذو ابتسامة وضاءة ونظرات متفائلة.

إنه «موشيه بيراد» شقيق «سارة» الوحيد الذى يعمل طياراً ويحمل رتبة «ملازم أول» First Lieutenant فاجأتنى «سارة» وأنا أحملق فى صورته الرسمية وقالت ضاحكة:

- إنه يبحث عن عروس.. أنتزوجينه يا أمينة؟.

ضحكت أنا الأخرى وقلت لها:

- نحن فى أوروبا يا عزيزتى ولسنا فى بلاد الشرق حتى يبحث الشاب بواسطة أسرته عن فتاة ليتزوجها.

أسرعت تقول وكأنها استدركت شيئاً:

- أرجو ألا أكون قد ضايقتك فأنا ما قصدت تذكيرك بمشكلتك التى وضعت فيها.

قلت:

- لا عليك يا «سارة».. أعلم أنك لا تسمخين من ظروفى وتقاليدنا الشرقية.. لكن، لماذا خصصتم لى غرفة «موشيه» لأنام على فراشه.. ألا يضايقه هذا عندما يجيء من عمله؟.

ردت قائلة:

- لأننى أولاً سأنام مع والدتى بينما سينام والدى بمفرده فى حجرتى الصغيرة.. ثم إن أخى «موشيه» لا يجيء إلى هنا فى مواعيد ثابتة نظراً لظروفه، عمله كطيار.

سهرت لوقت طويل أتصفح كتاباً وجدته على مكتب «موشيه» عن الشاعر الألمانى الشهير «باول هايژه» Paul Heyse الذى درس اللغات والآداب القديمة وكتب القصة والمسرحية والقصيدة وحصل على جائزة نوبل فى الآداب سنة ١٩١٠.

وفى الواحدة ظهراً تقريباً كنت أقطف عدة وردات من الحديقة لأنسق بها غرفة موشيه التى ذبلت بها الورود القديمة.. وفوجئت به أمامى.. بشحمه ولحمه.

ابتسم ابتسامة عريضة وأخذ باقة الورود من يدي فقربها من أنفه.. ثم أعطاها لى من جديد بينما كنت أقف، مبهورة وقد أشلت نظراته السحرية ععلى وجسدى حتى أننى عجزت عن الذلق بحرف واحد عندما سألتى عمن أكون.

أنقذتنى «سارة» من الموقف الرهيب الذى كنت فيه.. حتى بعدما قدمتنى لشقيقها ظلت حالة الشلل مسيطرة على لا أجد منفذاً للهرب منها.

كان «موشيه» يرفل فى شباب وأناقة ووسامة أكبر بكثير مما بدا فى صورته الكبيرة المعلقة بحجرته.. ووجدتنى أعشق نظراته السحرية ونبرات صوته الحنون الدافق بالدفء.. وتلك الابتسامة العذبة التى لم أر مثيلاً لها.

لم يسألنى «موشيه» عن الشرق.. لكنه حدثنى عن الشعر والموسيقى والأدب.. وصارحنى بأنه ولوع بالشعر الأسود وبنجلاوات الشرق التى يرى صورهن أحياناً فى المجلات.

حاولت كثيراً أن أسيطر على عواطفى وألا أنجرف إليه.. لكننى كمن كانت تتشبث بالهواء..

وفى نزهة خلوية صحبنى فيها بسيارته إلى إحدى الغابات.. ارتجف بدنى بقوة.. واستسلمت لأصابعه التى تخللت شعرى.. ولما ضمنى إليه ولفحتنى أنفاسه الحارقة.. خارت قواى إلى غير رجعة.. وعندها ضغط ضغطاً ملهوفاً على مغاليق إرادتى.. فانهرت.. وارتجت قواى فى عنف مع مذاق أول قبل من رجل.

لقد كان الأحاسيس مختلفة.. والمذاقات أروع وأروع.. وقلت فى نفسى عندئذ:

- يا للغباء.. نحن ما خلقنا إلا للرجال.

على المقعد الخلفى للسيارة ذابت أنوثتى بين أحضانها اللاهبة.. تأملت جسده العارى المشعر كالمنومة.. وتركتة يعتصرنى دون وعى منى أو مقاومة حتى وهو يجوب جسدى ويتسلل إلى أغواره.

وفى لحظات أفقدنى عذريتى.

شهقت فى فزع..

عندما رأى بعض الدماء ونظر إلى وجهى أصيب بالارتباك وجحظت عيناه وهو يقول:

- لم أكن أعرف أنك عذراء..

صدقينى يا أمينة.. لم أكن أتخيل ولو للحظة أن هناك فتاة فى مثل عمرك.. وجمالك.. تبقى بعذريتها كل هذا الوقت.

أشفقت عليه جزعه واضطرابه.. وجذبتة إلى من جديد لا أبالى بما حدث.. فالحب كان قد غلف فؤادى وسيطر عليه.. ورجولته أسكرتنى بدفقاتها الممتعة المتلاحقة.. فهذه هى المرة الأولى التى يلمسنى فيها رجل.

وأى رجل..!!

هكذا غرقت فى اللذائذ بنهم وجوع واشتياق.. وتحول حبى للتساقق إلى كراهية شديدة.. فالأحاسيس الجديدة مع «موشيه» كانت دفق من السحر وشلالات من حبور.

أفرغت مشاعرى كلها بين أحضانه.. بصدق.. وضعف.. واعترفت له بحبى منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها.

لم أهتم بكونه يهودياً وأنا المسلمة.. ولم يسألنى هو أيضاً عن ديانتى.. ووطنى.. وأهلى.. إذ أصبح نهر اللذائذات دينى الجديد.. وصار «موشيه» هو وطنى وأهلى.

٢٢ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٦٢:

كان عيد ميلادى الرابع والعشرين فى ٢٧ تشرين الأول.. (!)، اتصل بى «موشيه» تليفونياً مهتئاً بعيد ميلادى.. وطلب منى أن أذهب إلى مطعم

«ماكسيم»^(١) حيث سأجد مائدة حجزت باسمى فى الطابق الأول.

وعندما دلفت من باب المطعم.. وجدته جالساً ومعه «سارة».. وكانت مفاجأة رائعة ما توقعتها.. وعند منتصف الليل عزفت الفرقة الموسيقية أغنية عيد الميلاد.. وقدم لى هدية ذهبية عبارة عن سلسلة وقلب بداخله حرفى "M. A". استأذنت سارة بعد ذلك لرغبتها الشديدة فى النوم.. بينما واصلنا السهرة معاً نتناول العشاء ونرقص فى سعادة واشتياق.

وقرب الواحدة ونصف صباحاً.. ركبنا سيارة تاكسى إلى مسكنى.. وعندما ضمتنا الحجرة عانقنى فى لهفة مجنونة وهو يجوب شعرى وجسدى بأصابعه.. وسألنى بفتة:

- هل سببت لك مشكلة كبيرة بما حدث فى «إنسبروك»..؟

قلت له على الفور:

- لا تشغل بالك بهذا الأمر يا «موشيه».. فهو لا يمثل لى أية مشكلة!!

احتوانى مرة ثانية وهو يقول:

- يجب أن أعترف لك يا «أمينة» أننى أحبك.. نعم أحبك بكل ما لدى من عاطفة ومشاعر.. لقد كان فؤادى خاوياً حتى رأيتك فملأته.. وقبعت بداخلى واستسغت الشغاف والأوردة والخلايا لك سكناً.

ووجدتنى أقول له بحرارة:

- إن حبك يا «موشيه» هو الضوء الذى أنار لى الطريق.. بل هو عقيدتى وملأذى ومرآة نفسى.

(١) لم يكن هذا المطعم أحد فروع مطعم «ماكسيم» الباريسى الشهير.. بل أقتبس الاسم فقط.. (!!) لقد كان مطعم ماكسيم فى باريس أسطورة بحق.. فقد كان من بين زواره الملك «إدوارد السابع».. وهو يتمتع بشهرة عالمية جذبت إليه المشاهير من كل أنحاء العالم.. وقد أضفت عليه ديكوراتهِ وأثاثاته والبار الإمبراطورى بالطابق العلوى شهرة تفوق الوصف.. وهو فضلاً عن ذلك مطعم فاخر اشتهر بوجباته الشهية.. وبالحفاوة البالغة.. وبأسماره الباهظة..!

وعندما استيقظنا فى الصباح.. كنا لا نصدق أننا معاً فى مسكن واحد..
وحجرة واحدة.. وفراش واحد.. نتمرغ فى واحة من المتعة اللانهائية.
بعدها.. أفقت قليلاً وأدركت ما جرى لى.. ومدى المصيبة التى وقعت فيها..
حتى أننى بكيت كثيراً واعتزلت الدراسة والخروج.. وابتعدت عن «سارة» نفسها.
لقد ترنحت سكرى أمام أول تجربة حب.. وسقطت شرقيتى وعذريتى
وتقاليدى لتستقر فى الحضيض.. وحاولت أن أهرب من «موشيه».. لكن غياب
العاطفة ورجفة الرغبة ولسعات الحب كانت كالسياط تلسعنى وتضرب بأعماقى.
هذا الجسد المدنس هتك عفافه وانتهكت أسرارہ.. فماذا بعد ذلك..؟
أفقت إلى حد ما.. إفاقة خفيفة كتلك التى تحدث للمرضى فى غرف
العمليات ثم يغيبون بعدها ثانية.

لكن لماذا لم أفق إلى الحد الذى أستطيع تبين نفسى.. واستخراج طاقتى
الرافضة من الداخل..؟ ذلك لأن مطاردات «موشيه» الهاتمية.. وفى الجامعة..
والمسكن.. كانت مدعاة لأن أضعف وأضعف فلا أجد مقاومة حياله.. بل وأخور
استسلاماً ووهناً أمام جيوش العاطفة التى أغلقت شتى المنافذ التى تحول دون
فرارى.. حتى حاصرتنى.. وأسرتنى.

١١ كانون الثانى / يناير ١٩٦٤:

تعددت لقاءاتنا الحميمة بشكل مستمر حتى صرت عبدة للذة.. والحب..
ولم أعد أدخر وسعاً لإسعاد أول رجل أشعرنى بأنوثتى الطبيعية.. بل وتراجع
إحساسى بالندم وتأنيب الضمير.. ولم أعد أفكر فى كنه هذه اللقاءات وهل هى
محرمة أو غير محرمة.

ولم أعد أجد تبريراً لكيفية تغلبى على ضميرى وواد انفعالاته ورفضه.. إذ
استطعت «تسكينه» أو بالأصح «تبيجه» ففقد وظائفه ولم يعد يؤنبنى.

وكيف يؤنبني بعدما شحنته شحناً بأننى يجب أن أعيش.. وأن أجرب طعم الحياة والحرية.. وأمارس «الحب» بلا أدنى رجفة ندم.. فقد كنت فى أوروبا.. فى بلاد لا تعترف بعذرية الفتاة عندما تبلغ الثامنة عشرة.. وإلا تعد مريضة نفسياً من الواجب أن تذهب للطبيب النفسى..!!

* * *

١٧ نيسان / أبريل ١٩٦٤:

فاجأنى «موشيه» بأنه انتقل إلى إحدى القواعد العسكرية بالقرب من فيينا حتى يستطيع أن يرانى فى أى وقت.. (١١) عند ذلك راودنى الخوف من أن يجيء والدى فجأة فيراه فى فراشى.. فعرضت مخاوفى على «موشيه» الذى طلب تأجيل هذا الأمر لبعد عودتى من «عمان» التى سأسافر إليها بعد عدة أسابيع قليلة.

اقتنعت بوجهة نظره وبقيت فى المسكنا كما أنا.. واتفقنا على ألا يجيء إلى فجأة كما اعتاد.. بل كان عليه أن يهاتفنى أولاً قبل مجيئه.. وكنا فى أحيان كثيرة نذهب إلى الفنادق لنمكث سويعات معاً ثم أعود إلى مسكنى بمفردى.

أما «سارة».. فبرغم أنها صديقتى الوحيدة المقربة.. لم أعد أبحث عنها عن جرعات «حب» كما كنت قبل الإلتقاء بـ «موشيه».. بل تحولت علاقتنا إلى صداقة نظيفة.. طبيعية.

لقد كانت تعرف أن «موشيه» يحبنى كما أحبه.. وأنه يجيء فى أحيان كثيرة للمبيت معى.. لكن الحوار معها لم يتطور ليصل إلى ما يدور بينى وبين شقيقها.. وما يحدث بيننا.. لكننى كنت واثقة من أنها تعرف كل شىء..

فماذا يحدث بين شاب وفتاة يحبان بعضهما البعض ويبيطان معاً فى فراش واحد..؟ هل تتصور مثلاً أنهما يتناقشان فى الفن أو أمور الدنيا..؟

ثم إننى قد زهدت فى علاقتى «الخاصة» معها.. ولم أعد تلك الفتاة المهووسة التى تشعر بالحرمان وتطلب الإشباع منها وتطاردها حتى تنفرد بها.

لكل ذلك كانت «سارة» تعرف أن «موشيه» سيطر على عقلى وحواسى وامتلكهما كما امتلك بدنى..! وكنت على ثقة من أن شقيقها لم يخبرها بأى شىء يمس علاقتنا.. فقد كان أكبر من أن يفعل ذلك.. أو يفكر مجرد التفكير فى إخبارها حتى وإن سألته وألحت فى السؤال.

ثم.. لماذا يتحتم على ألا أعترف لسارة بالحقيقة منذ بدايتها وحتى الآن..!؟ وما الضرير فيما لو أنها اطلعت على أدق تفاصيل علاقتى الخاصة بشقيقها..!؟ إن هذا الأمر لا يشكل أية معضلة.. فعلاقة الشاب بالفتاة فى أوروبا حرية شخصية يقرها القانون وتسمح بها الجماعة للقضاء على العقد النفسية ومظاهر الكبت والعنف.

وأذكر أن صاحبة المنزل أخبرتنى ذات مرة أن صديقة لها لاحظت أن ابنتها - وكانت فى السادسة عشرة من عمرها - ليس لها صديق.. وأزعجها هذا الأمر بشدة حتى أنها ذهبت بها إلى الطبيب النفسى ليناقدش الفتاة ويعرف سبب إحجامها عن إقامة علاقة خاصة سوية بصديق تأنس إليه.

إن الحرية المطلقة هنا فى أوروبا لأمر مفروغ منه.. حرية العمل والرأى والجنس والتعليم وأشياء كثيرة أخرى.. وبرغم ما قد يكون هناك من بعض التجاوزات والسلبيات.. تبقى الحرية الشخصية أحد أبرز صور الحرية التى بلا حدود..!!

١٤ أيار/ مايو ١٩٦٤

تركت العمل فى ورشة لعب الأطفال وتفرغت للدراسة والاستذكار.. وكما اقتريت أيام الامتحانات ازداد قلقى من زيارة مفاجئة لى يقوم بها والدى أو خطيبى.. لذلك فقط طلبت من «موشيه» ألا يزورنى نهائياً فى مسكنى تحسباً لهذا الأمر.. واكتفيا فى الوقت الحاضر باللقاء فى أحد الفنادق على فترات ليست منتظمة حتى أرجع من عمان فأغير السكن ونقيم معاً.

كلما مر يوم ازداد حباً وتعلقاً بى.. فقد بدّل «موشيه» مذاقات حياتى وأترعنى أخرى أروع طعماً وجمالاً.. وكنت إذا هاجمنى هاجس وأتخيل حياتى بدونه.. أصرخ فى داخلى وأكاد أجن.. فالحياة معه وبين أحضانه متعة أخرى لا تعادلها متعة.. (١) وبدونه تبدو حياتى قشبية قفراء بلا نبض ولا حس.. كالموات. وكثيراً ما كنت أهرع إليه يخنقنى الخوف.. فأسلمه نفسى طواعية بحثاً عن الحنان والحب والارتواء.. ولما أحدثه عما يجول بخاطرى يسخر من ظنونى.. ويردد فى حنان:

- أنت يا «أنى» حبى الكبير.. وسأظل أحبك ما حييت إلى أن أموت.. فالموت هو الشيء الوحيد الذى سيفرق بيننا ويبعاد بين جسدنا.. لكن ثقى أن روحى ستظل حينئذٍ هائمة حولك.. تحرسك من كل شر..!

اختصر «موشيه» اسمى إلى «أنى» لسهولة.. وعندما كان ينادينى به كانت حروفه كتموجات موسيقية تعزف أعذب الألحان.. وأقربها إلى نفسى..!

٢٧ حزيران / يوليو ١٩٦٤،

برغم توتر الامتحانات وضيق الوقت.. إلا أتنى انتهزت فرصة اتصال «موشيه» وطلبت منه أن يحجز غرفة بأحد الفنادق لنقضى سويعات معاً كنت أستشعر مدى حاجتى إليها.

وبعد وقت ليس بالطويل اتصل بى لأوافيه فى فندق «كلا جنفورت».. وتذكرت فى الحال أن والدئى سبق لهما أن نزلا بذات الفندق من قبل.. لكن لا بأس.. فهو فندق نظيف وهادئ.. وذهبت إلى هناك يحدونى الأمل فى الاستمتاع بصحبة حبيب العمر الذى طال شوقى إليه.

كانت الحجرة ذات حمام مما يعنى أن «موشيه» دفع مبلغاً أكبر فعرضت عليه مشاركته المبلغ فأبى بشدة.. وغادرنا الفندق وأنا أشرح له ظروف

الامتحانات والمواد التي أخشى حصولي على تقديرات ضعيفة فيها.
وبينما كنا في طريقنا إلى موقف الباصات.. هاجمني مفص حاد.. فتألمت..
وجدبني «موشيه» وسألني وهو يحملني في وجهي بقلق واضطراب:
- ماذا بك يا «آني»..
قلت له:

- لا تنزعج يا حبيبي.. فقد جاءتنى «الملعونة»..
وبهت.. فالإجابة كانت حاسمة.. وفي الحال نادى على تاكسي فركبت
وأغلقت الباب دونه وأنا أقول للسانق:
- شتاروس من فضلك..}}

٢٧ تموز/ يوليو ١٩٦٤:

كنت قد أرسلت خطاباً لوالدي أخبرته فيه أنني سأنتهي من امتحاناتي
السبت ٢١ تموز.. فبعث بخطاب أخبرني فيه أنه سيجيء ليصطحبني دون أن
تحدد بالضبط متى سيجيء.. ولم أهتم كثيراً بيوم قدومه المجهول لأنني على كل
حال لن أستقبل «موشيه» بمسكني.

وبالأمس، الخميس، كنت على موعد مع «موشيه» بذات الفندق،
كلاجنفورت، فخرجت من الامتحان رأساً إليه (١) وعند التاسعة مساء غادرنا
الحجرة بعد ثلاث ساعات تقريباً قضيناها بداخلها.

نزلنا درجات السلم بهدوء وأنا متأبطة ذراعه.. وما إن اقتربنا من صالة
الاستقبال حتى ندت مني صرخة زعر لا شعورية جاهدت لكتمها.. فيما ارتجف
«موشيه» الذي لا يفهم شيئاً البتة.. وانسحب مثلي إلى الخلف وهو يقول في
همس:

- ما الذى أخافك يا «آنى»؟..

قلت وأنا أكاد أموت هلعاً:

- خطيبى.. خطيبى يا «موشيه».. إنه ذلك الرجل الجالس بمفرده يطالع الجريدة.

وفى الحال تذكرت شيئاً آخر زادنى رعباً.. فقلت له بصوت محبوس مضطرب:

- «موشيه».. إن والدى بلا شك ينتظرنى بمسكنى الآن.. يا لها من مصيبة.

أمسكنى من يدى بقوة وهو يقول:

- تماسكى أرجوك.. لا ترتجفى هكذا وإلا ستسقطين أرضاً.. وسوف أجد

حلاً يخرجنا من هنا دون أن يراك أحد.

وقفت مستترة خلف الحاجز الخشبى ذى الثقوب.. بينما ذهب «موشيه»..

فتحدث مع موظف الاستقبال لدقيقتين ثم عاد إلى مسرعاً وهو يقول:

- سنخرج من هنا حالاً يا «آنى» فلا تنزعجى. ثم أنهما قدما إلى الفندق

منذ ساعة واحدة تقريباً.

بالفعل رأيت ابن عمى ينهض من مكانه بعدما تحدث إليه الموظف بكلمات لا

يفهمها.. فهو لا يعرف الألمانية.. واتجه فى الحال إلى حجرته بالطابق الثانى

دون أن يرانا خلف الحاجز.. فانطلقت إلى خارج الفندق تاركة «موشيه» الذى

أدركنى بعدما تحدث إلى الموظف للحظات.. وسألته:

- ماذا قلت للرجل؟

أجاب:

- أعطيته عشرة شلنات وطلبت منه أن يتصرف ويبعد الرجل الجالس

بمفرده عن صالة الاستقبال.. حيث أنه مدين لصديقى بمبلغ كبير.. وصديقى

هذه عصبى ومتهور ولأنه سيجىء الآن فقد يراه وتقع جريمة قتل فى الفندق.

ضجعت وأنا أشير إلى سيارة التاكسى.. وقذفت نفسى بداخلها وأنا أقول له:

- عد بسرعة إلى الفندق قبلما تقع جريمة القتل..!

وما إن دلفت إلى المسكن حتى وجدت والدى بانتظارى.. فارتيمت عليه وأنا أقبل وجنتيه وأردد:

- منذ تسلمت خطابك وأنا بانتظارك.. فما الذى أخرك عنى طوال هذه المدة؟
فلكرزنى فى كتفى بحنان وقال:

- وأين كنت حتى الآن يا شقية..؟ هل تبدأ امتحاناتك فى هذا الوقت المتأخر؟
قلت:

- أنهيت امتحاناتى اليوم فى الساعة الرابعة.. وذهبت لإحدى زميلاتى
لنراجع معاً بعض المسائل المتعلقة بالاختبار القادم بعد الغد.. لكن.. منذ متى
وأنت هنا؟ وهل جئت وحدك..؟

ضحك وقد لاحت أسنانه البيضاء اللامعة التى يهتم بها كثيراً وقال فى
لهجة ذات مغزى:

- أيتها الشقية.. اتطمأنين على خطيبك وكأن وجودى هنا وحدى لا يكفىك.
هتفت فى الحال:

- والله أنا لا أقصد ذلك يا أبى.. ولم يخطر ببالى أن يصلك المعنى بهذا الشكل.
فقال وكانت ابتسامته ما زالت عريضة حانية:

- عموماً أنا لم أجيء بمفردى.. وخطيبك صمم على مرافقتى وهو الآن
بالفندق ينتظر على أحر من الجمر.
قلت:

- والله يا أبت لو لم أكن منهكة لجئت معك إلى الفندق لأسلم عليه.. لكنى
منذ الأمس لم أذق للنوم طعماً.. وأخشى إن لم أذهب معك أن يفضب ابن عمى
يدى.. ر له خياله أننى قد لا أريد رؤيته.. وفى الغد إن شاء الله سنلتقى

وسأعتذر له .

انصرف والدى بشوشاً وهو يشعر بسعادة غامرة.. فابنته بدت مهذبة هذه المرة أكثر وأكثر.. وعندما جاءت من الخارج كانت تحمل كتاباً وأوراقاً مما يدل على أنها كانت تستذكر علومها وتجتهد فى دراستها .

وفى الواقع لم أكن مجهدة لقلة ساعات النوم كما ادعيت.. بل لأننى هُلكت مع «موشيه» الذى اعتصر قواى وخَلَّفنى مرهقة متهاكة.. مكسرة...!

* * *

٢٩ حزيران/ يونيو ١٩٦٤:

خوفاً من أن يتذكرنى موظف الاستقبال.. اتصلت بالفندق صباح أول أمس وتحدثت مع والدى وابن عمى هاتفياً.. وطلبت منهما أن نلتقى بمطعم «ماكسيم» فى الثانية ظهراً لارتباطى بموعد فى الجامعة مع بعض زميلاتى.

أعطيتهما عنوان المطعم وعدت من جديد إلى النوم.. فقد كنت أشعر بإرهاق شديد وكان النوم بالنسبة لى فى ذلك الوقت رغبة ملحة.

وفى الموعد المحدد كنت بالمطعم.. فأبدت سعادة مصطنعة برؤية ابن عمى.. ولم يتركنى أكمل اعتذارى لعدم قدرتى على الذهاب إلى الفندق للترحيب به بالأمس.. حيث بدأ أكثر تفهماً لظروف امتحاناتى وإرهاقى.. وأخبرنى والدى أن السفر إلى عمان سيكون على طائرة الأربعاء ٨ تموز، قبيل منتصف ليل آخر أيام امتحاناتى.

أصبت بفصّة ووخز بمؤخرة رأسى..

لكن.. ماذا كان من المفروض أن أفعله سوى الموافقة..؟

وعلى كل.. اعتذرت لهما عن عدم رؤيتهما كل يوم لانشغالى الشديد.. فلم يعترضا بل طلبا منى بذل مزيد من الجهد والتعب للحصول على الماجستير هذا العام.

وعندما اتصل بي «موشيه» بواسطة «سارة».. طلبت منه أن نلتقى في أسرع وقت قبلما أغادر إلى الأردن.

٩ تموز/ يوليو ١٩٦٤،

التقيت بموشيه ثلاث مرات حتى أمس بمجرد أن أنهيت امتحاناتي مباشرة.. وعندما عدت إلى مسكني كان والدي بانتظاري.. فطلبت منه الانتظار قليلاً حتى استحم.. لكنه صاح محتداً متحججاً بضيق الوقت.. وأعددت حقيبتى على عجل وكنت فى غاية الضيق.. فقد سافرت بنجاستى إلى «عمان»..!!

القسم الحادي عشر في الأردن (٦)

«وفي الدار.. لفنا الصمت كما طوانا طوال
الطريق من المطار.. ثم دخل والدي حجرتي
وأغلق الباب.. وتنامى إلى سمعى صوت
نحيبه المكتوم وهمهمات أمي.. فأسرعت إلى
حجرتي يعضني الأسى والكدر..»

١٥ آب / أغسطس ١٩٦٤

فى عمان كانت بانتظارى مفاجأة مذهلة.. فابن عمى الذى خطبنى على شرط أن لا يتم الزواج إلا بعدما أفرغ من نيل شهادة الدكتوراه.. تتصل من وعده.. وصمم على عقد قراننا خلال أيام.

أسرت إلى إحدى قريباتى بأن رغبته هذه تأتى خوفاً من تراجعى عندما تظهر النتيجة وأحصل على الماجستير.. وأمسكت بهذا الخيط واستخدمت شتى الحيل لإقناعه بأننى له مهما كانت الظروف.. وأننى لن أعثر على رجل مثله يمتاز بالشهامة والكرم والسخاء ورجاحة العقل.

بهذا الأسلوب وحده استطعت أن أجعله يتراجع عن قراره.. ويوافقنى على ضرورة الانتظار حتى أعود نهائياً من النمسا خلال عامين اثنين.

وأعترف بأننى لم أستخدم أى سلاح أنثوى سوى سلاح العزف على رجولته ونخوته.. مع القليل من الرقة التى كانت مطلوبة لضبط إيقاع الحوار بيننا.

لقد كان خطيبى يعتبر أن عقد القرآن حق من حقوقه التى لا يمكن التفريط فيها.. لكننى بدلاً من إثناءه عن قراره فحسب.. أرغمته على مزيد من التنازلات.. إذ جعلته يجوب عمان بحثاً عن مكان يصلح لإقامة المستشفى المزمع افتتاحه.

وهكذا أخذنى ووالدى فى جولات بشوارع عمان الراقية.. وكنت أضحك ساخرة فى نفسى من مدى لهفته على تحقيق رغبتى هذه، لكن حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا هذا الإصرار من جانب والدى لإتمام زواجنا..؟

لماذا برغم إدراكه بمدى الفروق التى بيننا من حيث السن والتعليم وزواجه من امرأة أخرى لا تنجب؟

ولماذا هذا الصمت من جانب والدتى التى تدعى أنها على علم بكل شيء ووراء كل قرار عائلى..؟

فما هذا الشيء الذى لأجله اخترت لأكون زوجة لابن عمى.. فى حين ستتزوج شقيقتى الصغرى من شاب يقاربها عمراً ويعمل فى مركز مرموق فى روما..؟

ترى.. هل وقع الاختيار علىّ لأكون ضحية ظروف لا أدري ما هى.. أم هى فاتورة علىّ أن أدفعها لسبب لا أعرفه؟

منذ أيام ظهرت نتائج الامتحانات.. وعلمت أنني نجحت وحصلت على درجة الماجستير.. وكان على الانتظام فى الدراسة والبحث لمدة عامين حتى أحصل على الدكتوراة فى علم النفس المرضى.. ودعوت الله ألا يخذلنى فلا أعود للإقامة هنا ثانية..!!

١٩ آب / أغسطس ١٩٦٤:

بالأمس كان حفل زفاف شقيقتى الوحيدة «رقية» على الشاب الوسيم «عبدالله» الذى يعمل دبلوماسياً.. حيث يعمل منذ عام تقريباً فى «روما» وسترافقه «رقية» إلى هناك خلال بضعة أيام.

وحسب التقاليد المرعية كان زوج شقيقتى شركسى الأصل أيضاً.. فقد دأب الشراكسة على العمل فى الوظائف المرموقة.. إلى جانب التجارة والسمسرة والانخراط فى القوات المسلحة والسلك الدبلوماسى.. وهى وظائف وأعمال ترفع من شأنهم وتقربهم من السلطة.

ويبدو أن والدى رغبة منه فى التميز اجتماعياً هو الآخر.. وافق على عدم عقد قرانى هذا الصيف حتى لا يحرم الأسرة من شرف حصولى على الدكتوراه.. والافتخار بى وسط مجتمع شركسى يفتقد كثيراً حصول إحدى فتياته على الدكتوراه فى تخصص دقيق مثلى.

هذا ما اعتقدته.. وربما كان ذلك حقيقياً.. فشقيقة زوج «رقية» كانت تعد لدراسات عليا فى الاقتصاد.. وهى الحالة الأقرب التى ينظر والدى إليها ويقارن

بينى وبينها .. وكان يقول بفخر إن دراسة علم الاقتصاد أمر متاح .. بينما الحصول على الدكتوراه فى علم النفس المرضى حالة غريبة ونادرة فى الشرق الأوسط .. بل ربما تكون غير موجودة أصلاً .

بذلك فقد راهن والدى على تفوقى .. وكان يتمنى أن تحصل «رقية» على أطروحة فى الماجستير فى علم التاريخ الذى درسته بالجامعة .. لكنها لم تحقق أمنيتها واكتفت بالليسانس كنهاية لطريقها الدراسى ثم الزواج والبيت والأولاد .

وهاهى تحقق أمنيتها الخاصة التى كانت تسعى إليها !!..

* * *

٢٦ آب / أغسطس ١٩٦٤ :

كان الأمس يوماً مشحوناً بالدموع وألم الفراق .. فقد ودعنا «رقية» فى المطار هى وزوجها .. وللمرة الأولى رأيت والدى يبتسم فى سعادة والدموع تنساب من عينيه .. وبمجرد اختفاء «رقية» بين زحام المسافرين أجهش بالبكاء فأبكنا جميعاً .. وشعرت لحظتها بأن هذا الرجل يحمل سرّاً كبيراً وخطيراً يخفيه بين ضلوعه .

وفى الدار .. لفنا الصمت كما لفنا طوال الطريق من المطار .. ثم دخل والدى حجرتة وأغلق الباب .. وتنامى إلى سمنى صوت نحيبه المكتوم وهمهمات أمى .. فأسرعت إلى حجرتى يعضنى الأسى والكدر .. ولم أدرِ علام كنت أبكى .

أعلى فراق شقيقتى يا ترى ..؟

أم على حالى وسقوطى وحياتى المدنسة ..؟

وربما على مصير مظلّم لست أعلم إلى أين سيأخذنى ..؟

فشلت فى قراءة مكنون ذاتى ..

لكنى بقيت أبكى وأبكى .. وأبكى !!..

القسم الثاني عشر في إيطاليا (١)

«برغم الجمال السحري الذي بهرني في روما وأنا
أشاهد آثارها.. لم أنس «موشيه» ولو للحظة واحدة..
ولم يغب طيفه عن خيالي.. إذ كان يلازمني في النهار
حتى وأنا أقف مبهورة أمام كتوز «روما».. ويطاردني في
نومي.. فهو جزء من نسيج نفسي يصعب انتزاعه..»

٤ أيلول / سبتمبر ١٩٦٤

- ألفت سفرك إلى «فيينا» يا «أمانة»..!

كان وقع الخبر الذي جاءني به أبي كالقنبلة.. ويبدو أنه رأى الشحوب الذي اعتراني فجأة فقال ضاحكاً:

- نعم.. ألفت تذكرة الطائرة إلى «فيينا» واستبدلتها بأخرى.. عمان/ روما - روما/ فيينا.

قضت فرحاً وجريت إليه فعانقته وأنا أكاد أصرخ لفرط السعادة التي انهمرت على فجأة.

كان موعد سفري إلى «فيينا» قد تقرر يوم الجمعة ١٢ أيلول.. والآن بعد هذا التعديل سأطير أنا ووالدي إلى «روما» الإثنين ٩ أيلول.. فنقضى عدة أيام مع «رقية» قبل سفري إلى «فيينا».. والجديد أن والدتي كانت سترافقنا إلى «روما» ولن تطير معي من هناك إلى «فيينا» لا هي.. ولا والدي. بل سيطيران وحدهما إلى «عمان»..!

٩ أيلول / أغسطس ١٩٦٤

ركبنا ثلاثتنا طائرة الخطوط الملكية إلى «إزمير» Izmir ثم إلى «روما» مروراً بـ «أثينا»..

وفي المطار الذي يقع جنوب شرق المدينة كانت «رقية» وزوجها «عبدالله» بانتظارنا على أحر من الجمر..!

ولما اقتربنا من قلب روما كنا قد مررنا بسور المدينة الذي لا تزال بقاياه قائمة منذ أكثر من ١٧٠٠ عام.. كما رأينا أطلال الحمامات الإمبراطورية.. ومررنا بميدان «سينكو يسننتو»^(١) الذي يعد أشهر ميادين «روما» الذي تقع به (١) وهو ميدان «الخمسمائة».. وأطلق عليه هذا الاسم تخليداً لخمسمائة إيطالي قتلوا في القرن التاسع عشر خلال إحدى المعارك بأفريقيا.

محطة السكك الحديدية الرئيسية.. ثم عبرنا نهر «التير» الذى يجرى بين ضفتين بنيتا بالحجارة.. وتطل على جانبيه العديد من آثار «روما» العريقة.

كانت شقة «رقية» رائعة وواسعة تطل على نهر «التير» الذى يخترق المدينة ملتويًا زجاجيًا كرقم «٤» فى اللغة العربية.. وبرغم جمال العاصمة الإيطالية وعراقتها إلا أن زحام السيارات بشوارعها كان مروعاً وبشعاً لدرجة لا تطاق.. حتى إن المشى أحياناً يكون أسرع من حركة المواصلات خاصة أوقات الذروة الأربعة^(١).

الشيء الغريب.. أن «يوليوس قيصر»^(٢) نفسه قد حذر سير العربات أثناء النهار تلافياً للزحام عندما كانت روما محدودة المساحة وقتها.. ولكنها تضج بالعربات الخشبية التى تجرها الخيول.

وبالرغم من اننى قرأت كثيراً عن روما قبيل سفرنا إليها.. إلا أنها كانت أروع وأبهى.. وإن كانت شديدة الزحام خلال شهرى آب وأيلول عكس ما جاء بالنشرات السياحية.

وعن نشأة مدينة روما.. قرأت عدة روايات أسطورية.. فهناك أسطورة تقول أن «رومولوس» Romulus وضع مع توأمه «ريموس» Remus فى سلة وألقى بهما فى النهر بواسطة عم أمهما الذى أراد التخلص منهما.. واستقرت السلة على عند «تل بالاتين» أحد التلال السبعة المحيطة بمدينة «روما».

وتضيف الأسطورة أن «ذئبة» قامت بإرضاع التوأمين.. فى حين قدم لهما طائر نقار الخشب الطعام.. وأخيراً رعتهما زوجة أحد الرعاة.. ولما اشتد ساعدهما أنشأ بلدة فى الموقع الذى شيا فيه.. واتسعت القرية وكبرت وكانت نواة مدينة روما الحالية.

(١) وهى الذهاب إلى الأعمال.. ثم العودة لتناول الغداء بعد انتهاء فترة العمل الأولى.. فالعودة إلى العمل فترة ثانية ثم الرجوع إلى البيت مساءً.

(٢) لم يكن قد اتخذ لنفسه لقب ملك أو إمبراطور.. إلا أنه قد استولى على كل السلطات.. وقبلما يعلن قيام الملكية فى روما، اغتيل بغزربات الخنجر سنة ٤٤ ق.م.

هناك أيضاً أسطورة أخرى تقول أن «أينياس» Aenias الطروادى الذى هرب من طروادة بعد هدمها.. اتخذ طريقه صوب إيطاليا.. وصادف خلال رحلته من الأهوال ما صادف حتى وصل إلى مبتغاه.. واختار موقعه حيث أقام مدينة «روما» من عدة قرى متقاربة.

وهذه الأسطورة جاءت تفاصيلها فى «إنياذة فرجيليوس».

ويبدو أن أسطورة «رومولوس» اعتبرها التاريخ الرومانى حقيقة واقعة.. إذ جاء أن أعمال الحفريات عثرت على كوخ «رومولوس» مؤسس «روما».. وهو كوخ مستدير مخروطى السقف بنى من الأغصان والطين.. وأحيط هذا الكوخ بتقديس خاص حتى عصر الإمبراطورية باعتباره نصباً تذكاريًا قومياً.

المثير أن الرومانيين بعد محاولات حول تواريخ قديمة تحدد تاريخ تأسيس «روما».. استقر رأيهم على عام ٧٥٢ ق.م.. وهو التاريخ الوحيد الذى تم الاعتراف به رسمياً.. بل وصل بهم الأمر إلى تحديد يوم إنشاء المدينة والذى يقابل الحادى والعشرين من أبريل^(١) حسبما جاء فى التقويم اللاتينى.

استمرت «روما» فى النمو والازدهار حتى أصبحت هى القوة الوحيدة فى البحر المتوسط.. وأثناء حكم الإمبراطور «تراجان» امتدت حدود الإمبراطورية الرومانية من اسكتلندا حتى السودان.. ومن شواطئ المحيط الأطلنطى حتى جبال القوقاز.

بيد أن هذا الصعود أخذ فى التراجع شيئاً فشيئاً.. وما أن جاء عام ٤٧٦ حتى كان الجزء الغربى من الإمبراطورية قد انهار تماماً.. وعلى أنقاضه قامت الممالك البربرية التى انبثقت منها أمم أوروبا الحديثة.

(١) تروى الروايات أنه فى ٢١ أبريل ٧٥٢ ق.م. أضافت قبائل اللاتين قرية جديدة إلى القرى التى أقامتها فوق تل باللاتين.. وأطلق على هذه القرية اسم «روما».. ربما لأن نهر «التيبر» كان يطلق عليه حتى فترة قريبة اسم نهر «الرومون» Rumon.

١١ أيلول / سبتمبر ١٩٦٤:

بالأمس قمنا بجولة رائعة فى «روما» حيث زرنا تل «بالاتين» Palatine الذى أحيط بجدار ضخمة.. وسررت كثيراً وأنا أقف أمام قوانين «سولون» التى نقشت على اثنتا عشرة لوحة من البرونز.. ثم عرضت فى الساحة الرومانية التى تتوسط المدينة.

كذلك زرنا «قوس قسطنطين» الذى جعل المسيحية دين الدولة وألغى عبارة الأوثان.. واختار «بيزنطة» عاصمة للملكة وسميت بعد ذلك بالقسطنطينية تيمناً باسمه.. وكان المسرح الرومانى «الكولوسيوم» أحد مزارات روما الهامة.

وكان هذا المسرح يستخدم لعروض المصارعين والوحوش.. والتى لازالت عرائنها وممراتها السفلية تحت الملعب حتى اليوم.

وبالرغم من أن أكثر من نصف المسرح قد أزيل فى العصور الوسطى لاستخدام حجراته فى المباني.. إلا أنه مبنى بالغ الإثارة.

زرنا كذلك مسرح «مارسيلوس» الذى اغتيل يوليوس قيصر بين جدرانها.. وأكمل أوغسطس هذا المسرح وأطلق عليه اسم ابن أخيه «مارسيلوس» Marcellus.

قمنا أيضاً بزيارة تلال «الكابيتول» التى تعد من أقدس الأماكن فى روما حيث كانت معابد «جوبتر» والعديد من الآلهة الأخرى.. وفوق الكابيتول انتصب تمثال الإمبراطور «ماركوس أوريليوس» ممتطياً صهوة جواد صنع من البرونز.. مع آثار لطلاء قديم بالذهب.

وهناك أسطورة تقول بأن الطلاء الذهبى للتمثال سوف يعود للظهور عندما تحل نهاية العالم.

أما اليوم.. فقد زرت قبر «أوغسطس» الذى ضم أفراداً أساسيين فى الأسرة اليوليوسية والكلوديانة.. ووقفت أتأمل روعة الفن المعماري عند قبر «هادريان» الذى يعرف اليوم باسم «قلعة القديس أنجلو».. وهذا الضريح العظيم

بتاه الإمبراطور هادريان لنفسه ولخلفائه.

وعلى حافة نهر التيبر تماماً يقع «مذبح السلام» Ara Pacia الذى شُيد لإحياء ذكرى السلام الذى نشره الإمبراطور «أوغسطس» فى جميع أنحاء العالم الرومانى.. وعلى الحوائط يمكن رؤية صور العائلة الإمبراطورية، حيث أوغسطس وزوجته «ليفيا» وولى العهد.. وكذلك «جوليا» الابنة المتعسة لأوغسطس التى نفيت خارج روما بقرار منه بسبب إفراطها الجنسى.

وهناك أماكن أخرى قرأت عنها ولم يكن الوقت متاحاً لزيارتها أمس.. لذلك انتهزت فرصة الصباح المشمس المعتدل وذهبت لمشاهدة عمود «تراجان» الذى يربو ارتفاعه على الثلاثين متراً وأقيم سنة ١١٢م فى ساحة «تراجان» تخليداً لذكرى انتصارات ذلك الإمبراطور.. وقد زين العمود بالنقوش اللولبية البارزة.

وهو ذات الأسلوب الذى كان عليه عمود «ماركوس أوريليوس» الذى شيد سنة ١٨٠م لتخليد ذكرى انتصاراته عند حدود «الدانوب».

وبعد زيارة حمامات «كاراكالا» وقوس نصر «تيتوس»^(١).. انتهت جولة المزارات الأثرية الخارجية.. واكتفيت بزيارة بعض المتاحف فى قلب «روما» إلى جانب بعض القصور والطرق القديمة التى أعاد «موسوليني» افتتاحها.. قررت متحف «ديلى تيرمي» فى ميدان «الجمهورية» حيث روائع الفن المتجسدة فى النسختين الرخاميتين لـ «رامى القرص» من القرن الخامس قبل الميلاد.. ورسومات تفوق الوصف لـ «فينوس» و «مولد فينوس».

ذهبت كذلك إلى طريق «أبيا أنتيكا» أشهر طرق أوروبا.. وهو يبدأ من أمام «الساحة الرومانية» ويمر خلال سيره خلف «حمامة كاراكالا».. وتوجد على جانبي الطريق عدة آثار هامة منها كنائس بديعة النقوش.. ومقابر وأقواس.

وبعد جولة مسائية فى أسواق المدينة وشوارعها المضيئة التى يرتادها الزوار

(١) ابن الإمبراطور «فسباسيان».. وقد أقيم القوس فى القرن الأول الميلادى تخليداً لذكرى انتصاراتهما كما تشير الكتابة على لوحة بأعلى القوس.

من كل أنحاء العالم.. عدنا إلى المسكن وقد أنهكنا التعب والإرهاق.. واختليت بشقيقتي وسألتها مداعبة:

- هه يا «رقية».. ما أخبار الزواج.. وهل هناك فرقاً كبيراً قبل الزواج وبعده..؟

فاكتسى وجهها بالاحمرار وقرصتني وهى تقول:

- ستعرفين كل شيء بنفسك بعدما تتزوجين.

ذكرتني إجابتها بتلك التضحية التى فرضت علىّ وسأتزوج ابن عمى لأجلها.. ورجعت بفكرى إلى «عمان» ثم سرعان ما ارتد إلى «فيينا» حيث ينتظرني «موشيه» بشوق وشغف.. وكنت أيضاً أشعر بمدى اشتياقى البالغ إليه ورغبتى فى رؤيته اليوم قبل غد حيث سأطير بمفردى إلى النمسا..!

فرحلة إيطاليا برغم السحر الغالب الذى بهرنى.. لم ينسنى «موشيه» ولو للحظة واحدة.. حتى وأنا أقف مبهورة أمام آثار «روما» وروعتها.. لم يكن طيف حبيبى يغيب عن خيالى.. إذ كان يلأزمى فى غدوى ورواحى.. ويطاردنى فى نومي ويقظتى.. فهو جزء من نسيج نفسى يصعب انتزاعه..!!

القسم الثالث عشر في النمسا (٦)

«في قرارة نفسي كنت أشعر بتضحيته
الكبيرة.. فأردت مكافئته ومنحه كل ما
يشتهي.. إرضاء له وعرفانا بالحب الذي
كان يتعاضم ويتضاعف بفؤادينا يوماً بعد
يوم..»

١٣ أيلول / سبتمبر ١٩٦٤

وصلت إلى «فيينا» فى الثانية ظهراً.. ومن المطار اتصلت بصديقتى «سارة» لأسألها عن «موشيه» فلم أجدها.. وهرعت إلى شقتى الصغيرة فكدفت بحقيبتى وشرعت أبحث عن صديقتى فى جميع الأماكن التى يمكن أن تكون بها.. لكنها كمن اختفت من المدينة إلى مدينة أخرى.. ولم يكن أمامى إلا أن أتصل بها فى «إنسبروك».

جاءنى صوت والدتها ضعيفاً بعيداً وهى تهنئنى بسلامة وصولى.. لكنها لم تدلنى على أى مكان أعثر فيها على ابنتها.. وعند ذلك سألتها عن «موشيه» فأخبرتني أنه فى عمله كما هو.. وكان يحادثها تليفونياً منذ أمس الأول.

عدت ثانية إلى مسكنى أخرج رآلى ومعامانة الانتظار.. ونمت مكدره مهمومة سقيمة النفس.. لا أدرى كم من الوقت استغرقت فى النوم عندما أفقت على نقرات خفيفة على بابى.

قفزت إلى الردهة وأنا أشم رائحة «موشيه» من نقر أصابعه.. ولما فتحت الباب كان واقفاً شامخاً منتصباً بزيه الرسمى.. فلم أتمالك نفسى أو انتظر ليدلف إلى الداخل.. بل عناقته عناقاً حاراً يفيض لوعة واشتياقاً.. فحملنى بيدين قويتين وأغلق الباب وقد تعلق شفاها فى نهم وامتزاج جائعين.

قلت له:

- أحبك يا «موشيه».. أحبك أكثر من نفسى وأهلى ودينى.. آه لو تعلم بمدى معاناتى وأنا بعيدة عنك.. كنت أتلوى حزناً.. وأتجرع مرار الكون فى حلقى.. لكن طيفك لم يفارقنى فى كل حين.. (١).

قبل أناملى وراحتى وهو يقول:

- لكننى هنا كنت أموت غمماً وهمماً.. وأجىء إلى هنا فأطوف حول الدار أتسم عبيرك.. وأتخيلك فى الشرفة تودعيننى.. لقد حطمنى الانتظار يا «أنى» وتمنيت لو سافرت إليك فى «عمان» فأختطفك.. وأهرب بك إلى آخر بلاد الدنيا.. (١).

سرى الخدر بأوصالى وهمست: حيك..!

فضمنى بقوة.. تلفح عنقى أنافسه فأذوب سكرى وتسرى بأوصالى رجفة
سحرية تفكك إرادتى.. وتسلب البقية الباقية من وعى وإدراك.. وعند ذلك
مزقت خجلى لا أبتغى إلا رعشة النشوة..!!

١ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٤:

منذ أيام انتقلت إلى شقة أخرى تطل على الضفة الجنوبية لنهر «الدانوب» Da-nube الذى يلتحم مع نهر «الراين» فى جنوب ألمانيا.. ويعد أحد أطول أنهار أوروبا.
كان المسكن الجديد يقارب المسكن القديم مساحة.. فهو عبارة عن حمام صغير
وحجرة نوم واحدة وردهة يقع المطبخ فى نهايتها.. لكن الجديد هو إقامتى بصفة
دائمة مع «موشيه».. وهذا ما كنت أتمناه فى كل حين.. حيث داوم على المبيت معى
أربعة أيام فى الأسبوع.. وكانت هذه الأيام بمثابة الحلم بل هى الحلم نفسه.

٢٨ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٤:

بالأمس جاء «موشيه» مبكراً على غير عادته.. فأعددت وجبة خفيفة
وبعدما انتهينا منها اقترح أن ننام ساعة أو ساعتين ثم نخرج لتمضية السهرة فى
مكان صاخب.. ولما تجاورنا فى الفراش سألتنى:

- هل أنت سعيدة معى حقاً يا «آنى»؟..

أجبتة بقبلة طويلة بقصد إيصال الإجابة إليه.. ونمنا ملء جفوننا يلفنا الحبور.

وفى أحد كباريهات «فيينا» الشهيرة.. شربنا ورقصنا.. ثم توقفت الفرقة
الموسيقية للحظات عند انتصاف الليل.. بعدها عزفت موسيقى عيد الميلاد..
ونظر الجميع فى وجوه بعضهم البعض ليروا من هو الشخص الذى يودع عامه
القديم ويستقبل آخر جديداً.. وعند ذلك سحبنى «موشيه» من يدى وخصرنى
فهلال الحاضرون مهنتين.

لقد كان عيد ميلادى الخامس والعشرين الذى كنت قد نسيتته.. لكن «موشيه» لم ينسه.. فأعد لى هذه المفاجأة.. وأهدانى خاتماً ذهبياً حفر عليه أول حروف اسمه..!

* * *

١٠ كانون الثانى / يناير ١٩٦٥،

تواصلت حياتى هنيئة مع «موشيه» لا يخالجنى أى إحساس بالندم أو بالزهق.. فحبيبى كان شديد الحرص على إرضائى وعمل كل ما يبهجنى.

ومنذ شهر ونصف الشهر تمت ترقية الى رتبة «نقيب».. وسافرت معه الى عائلته فى «إنسبروك» حيث احتفلنا هناك بهذه المناسبة.. لكن «موشيه» عندما حدثنى عن رغبته فى الاستقالة والعمل كطيار مدنى.. فرحت وحزنت فى الوقت نفسه.

فرحت لأنه سيتترك قيادة الطائرات الحربية الأسرع من الصوت.. وحزنت لأنه سينتقل من بلد الى آخر فى حالة عمله بإحدى شركات الطيران.. مما سيبعده عنى فأفتقده.. لذلك حاولت إقناعه ألا يترك فيينا لأجل أن أحيا فلا حياة بدونه.. إلا أنه بدأ مهموماً ساهماً شارد الذهن.. وأخيراً صارحنى بأن هناك وظيفة طيار مدنى بانتظاره وقد تضيع منه إذا طال التفكير فى اتخاذ قرار بشأنها.

هكذا انقلبت حياتى رأساً على عقب... وفشلت فى إيجاد تسوية تريح أعصابى المفككة المنهارة.. حتى أننى تكاسلت دراسياً ولم أعد أذهب إلى الجامعة أو إلى مكتبتها حيث أقرأ أو أستعير الكتب والمراجع.

وأخيراً اتخذ «موشيه» قراره بالبقاء كما هو.. فاجتاحت نفسى فرحة عامرة.. وتضرغت طوال الوقت لحبيبى الذى فضل أن يظل إلى جوارى رافضاً الوظيفة المدنية المغرية.. وجعلت الأيام الأربعة التى يقضيها معى أروع أيامنا على الإطلاق.. حيث كنا نقضيها فى التنزه وارتشاف جرعات الحب بلا توقف..! كنت فى قرارة نفسى أشعر بتضحيتة الكبيرة.. فأردت أن أكافئه وأمنحه كل ما يشتهيه.. إرضاء له وعرفاناً بالحب الذى كان يتعاضم ويتضاعف بفؤادينا يوماً بعد يوم.. تقودنى خطواتى شيئاً فشيئاً، بعيداً عن الهدف الذى لأجله جئت إلى «فيينا».

٦ أيار/ مايو ١٩٦٥،

وصلتني على مسكني القديم رسالة من والدي تسلمتها إحدى جاراتي هناك.. وجاء بها أنه يعرف مدى احتياجي لكل دقيقة للأبحاث والدراسات.. فذلك فهو لن يجرى إلى «فيينا» ليصطحبني إلى «عمان» حتى لا يشغلني طيلة الأيام التي كان سيقضيها معي.

فبعثت إليه بالرد قائلة: إنني فعلاً في حالة انشغال دائم.. حتى إنني ربما لا أسافر إلى «عمان» هذا الصيف لارتباطي بأساتذتي الذين يرعون أبحاثي ويوجهونني نحو الطريق السليم لنيل الدكتوراه.

أتبعت رسالتي هذه بمكالمة هاتفية أبدى فيها والدي انزعاجه الشديد.. حتى أنه قرر المجيء إلّي بعد منتصف هذا الشهر وبرفقته والدتي.

أصابني أنا الانزعاج الشديد لهذا القرار.. وتفهم «موشيه» الأمر واقترح ألا يجرى إلى المسكن بداية من اليوم العاشر من أيار.. فوافقت على طلبه في الحال نظراً لحالة الاضطراب التي تملكنتني.. على أن يتصل بي هاتفياً عندما يصل كاستاذ لي في الجامعة..!

١٨ أيار/ مايو ١٩٦٥،

بالأمس وصل والدي من «عمان» وتساءل عن سبب انتقالي إلى مسكن آخر.. فأخبرتهما أن المكان هنا أكثر روعة على النهر من شارع «شترأوس» وبنفس القيمة الإيجارية.. وأن علاقتي بجاراتي هناك مازالت قائمة لذلك استلمت إحداهن الرسالة الأخيرة من والدي وهاتفنتي فذهبت لاستلامها.

كنت قبل مجيئهما قد نظّفت الشقة تماماً وأزلت أية آثار غريبة.. حتى أنني استعنت بعدسة مكبرة لالتقاط أية شمعة سقطت من رأس «موشيه» على الأرض.. وذلك لعلمي أن والدتي «شكاكة» تدقق كثيراً في كل شيء..!!

ومرت الزيارة التي دامت أربعة أيام بسلام.. ثم طارا إلى «روما» لزيارة «رقية» التي كانت حاملاً..!

القسم الرابع عشر الهروب إلى الخوف

«هكذا هربت.. فعاشت تتجرع التوتر في كل لحظة.. وبنهشها الخوف بلا رحمة.. وتحولت أيامها إلى كابوس مرعب يخنق فيها البسمة.. ويفرز بأظافره الحادة المستطيلة في عنقها..»

عاشت «أمنية المفتى» فى انحلال كامل مع فتاها اليهودى وقد ضمهما منزل مشترك.. ولم تفق من حياة «العسل» هذه إلا بعد مضى وقت طويل من الطيش والنسيان.. والحرام.. ولما تقدمت برسالتها العلمية التى كتبتها على عجل رفضتها لجنة المناقشة لأسباب كثيرة..

فكيف تتصرف فى مواجهة الأمر؟..

عند ذلك فقط بدأت تفكر فى حياتها التى تعيشها.. وكيف تعيش حياة الزنا والخلاعة مع حبيبها اليهودى الذى لن يحتفظ بها كثيراً على كل حال.. وسيهجرها عند أول فرصة يرتبط فيها بفتاة أخرى.

تملكها الندم.. ولكن أى ندم بعد سنوات من الانحلال؟.. فكرت فى «موشيه» ليس كحبيب هذه المرة.. بل كعاشق مفامر غامرت معه فضاع الوقت بين أحضانها إلى أن يلفظها ويدوسها بقدميه.. ويهرب من كل ما يربطه بها.

أرجعت سبب الفشل الذى هى فيه إلى «موشيه» متناسية كيف كانت البداية فى أول لقاء بينهما فى «إنسبروك».. عندما خرجت معه إلى الغابة.. وعلى المقعد الخلفى لسيارته فقدت أثمن وأعز ما تملك فتاة.

صورت نفسها على أنها البرثية التى ضيعها فتاها وتسبب فى فشلها.. وتوهمت هذه الفكرة حتى استفحلت لديها وانقلب حبها «لموشيه» إلى كراهية شديدة أشعلها اللوم وأذكتها نار الحسرة.

عندئذ بدأت المواجهة بينهما.. اتهمته بأنه السبب فيما هى فيه من ضياع.. ذلك لأنها أحبته حباً مجنوناً رخصت فيه كل الأشياء الثمينة لديها.. وأمام ثورتها بدأ حنوناً عطوفاً.. معترفاً بحبه العارم لها.. مبدياً رغبته فى مساعدتها لتخطى هذه المحنة.

وبعد عدة أيام أخبرها بأن هناك شخصاً ما سيقوم بعمل شهادة دكتوراه مزورة والتصديق عليها من الجهات المعنية.. وأنه لدقتها سيصعب كشفها فى عمان، وكان هذا الحل هو آخر ما توقعته.. إذ كانت تفكر فى التقدم بطلب

لتمديد الدراسة لعام آخر.. إلا أن عرض موشيه بدأ يغزو فكرها ويلقى استحساناً منها.

وعندما تسلمت الشهادة المزورة انتابها الذهول لدقتها الفائقة.. فهدأ بالها واستراحت في أعماقها مما هيأها لأن تتودد لفتاها الذي أهانته وأرهقته.. لكنه كان يقدر موقفها لذلك عادت الأمور لطبيعتها.. وبدأت «أمينة» تعد نفسها للسفر إلى «عمان» وكأنما تعود إلى «سجن» طالما كرهته واحتقرته.

لكن ماذا سيحدث لها في «عمان»..؟

وكيف تصرف «الدكتورة أمينة»..؟

تقول أمينة في اختصار شديد.. أنها عادت إلى الأردن في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦.. فاستقبلها الأهل بحفاوة وفخر.. وطلب منها والدها أن تستعد للزفاف في أقرب وقت حيث أن خطيبها أعد لها بيت الزوجية ولم يعد أمامها إلا أن تزف في حفل كبير يناسب مركزها الجديد.. فلم تمانع لكن كل ما طلبته هو إمهالها عدة أسابيع حتى تحصل من وزارة الصحة على ترخيص بمزاولة المهنة والموافقة على المبنى الذي قامت باستئجاره لتحويله إلى مستشفى.

وبينما الإجراءات تسير بشكلها العادي.. وقع خلاف بينها وبين وكيل وزارة الصحة.. فتشكوه إلى الوزير بمعاونة من عمها المسئول في القصر الملكي.. وتحال الشكوى إلى الشؤون القانونية التي تشك في تصديقات شهادتها العلمية، فتطلب منها تصديقات جديدة من الجامعة ومن السفارة الأردنية بفيينا.

ونظراً للمفاجآت التي ظهرت فجأة.. تخوفت من انكشاف التزوير وما يصاحب ذلك من فضيحة لها ولأسرتها.. سافرت «أمينة» إلى النمسا بحجة إنجاز أوراقها في أسرع وقت.. حتى إنها رفضت مصاحبة والدها معها قائلة إن الأمر لن يستغرق أكثر من ثلاثة أيام.

هكذا طارت إلى «فيينا» متخمة بالخوف.. وبأعماقها غضب يفيض كراهية لبلدها.. وقررت ألا تعود إليه ثانية مهما كانت النتائج.

هناك.. أسرعت إلى «موشيه» يعاودها الحنين.. فقامت باستئجار مسكن آخر على القور.. واتصلت بشقيقتها في «روما» وقالت لها إنها لن تعود ثانية إلى الأردن وقد توفرت لها فرصة عمل جيدة في الولايات المتحدة حيث ستسافر خلال أيام. طلبت منها أيضاً إبلاغ والدها ألا يرهق نفسه بالبحث عنها لأنه لن يعثر عليها.

حاولت شقيقتها تهدئتها والتفاهم معها فلم تجد صدى لمحاولاتها.. إذ كانت «أمينة» ثائرة غضبي لا تطيق سماع حتى اسم بلدها.. وأغلقت الخط مع «رقية» بعد أن أوصلت إليها الرسالة المطلوب إيصالها.

ذابت «أمينة» في الزحام.. متجنبة شتى الأماكن التي يعرفها والدها إذا ما جاء للبحث عنها.. مبتعدة عن محيط منطقة الجامعة أو شارع شتراوس وكذلك مسكنها الأخير المطل على نهر الدانوب.

بواسطة خطاب من الجامعة يفيد بأنها تدرس لنيل درجة الدكتوراة.. تمكنت من تجديد إقامتها في النمسا.. في ذات الوقت الذي تم فيه نقل «موشيه» لقرب مدينة «سالزبورج» Salzburg... فانتقلت معه حيث استأجرا مسكناً بالمدينة الواقعة على الحدود الجنوبية الشرقية لألمانيا «الغربية».

لقد رتبت أمورها على أساس أن تظل في أوروبا مدى الحياة.. غير عابئة بانكسار وطنها العربي بنكسة ١٩٦٧.. بل وكانت تعلق شماتها في العرب بلا حرج أو خجل.. حيث زادت بها الحرية التي تعيشها كراهية لكل ما هو عربي وما يمت للعرب بصلة.

كانت برغم حياتها المحرمة مع فتاها لا تعباً سوى به.. ولا تفكر في دين أو عقيدة أو شرف.. فبدت ساقطة حتى في نظر نفسها.. وما كان هذا سيفير في الأمر شيئاً.. فكل ثمين وغال ضاع وانتهى.. ولم تعد تشعر بندم أو حسرة أو ضياع..!

ولما تملكها الضجر من الوحدة والعزلة.. عملت في مكتب للمحاماة كسكرتيرة وضاربة على الآلة الكاتبة لقاء راتب معقول.. وفكرت بمعاودة الدراسة

من جديد والتقدم لنيل الدكتوراه.. ثم سرعان ما تراجعت خوفاً من أسرتها التي ستبحث عنها لا محالة ويمكن التوصل إليها من خلال ترددها على الجامعة.

ويبدو أن «موشيه» أدرك ما تعانیه من ضجر وخوف في الوقت نفسه.. فسألها:

- هل تشعرين بالندم يا «آنى»؟..

قالت بدون تردد:

- كان من الممكن أن أشعر بالندم لو لم تكن تحبني.. فحبك هو الشيء الرائع الذي يملأ حياتي ويهز كياني.

وبين ندف الجليد المتساقطة في ديسمبر ١٩٦٨.. كانا معاً في نزهة بالمدينة.. وبينما يعبران جسراً خشبياً قديماً استوقفها فجأة وسألها:

- آنى.. أتتزوجيننى؟..

وكانما نطق بما كانت تتمنى.. ودون أن تفكر أجابت وهي تحتضنه في عنف:

- أوه «موشيه» الحبيب.. نحن زوجان بالفعل يا عزيزى.

وأردفت:

- فى أول لقاء لنا وهبتك قلبى وعقلي وجسدى ودينى.. والآن أضحي بوطنى وأهلى وكل شيء من أجلك.. وأبحث دائماً عن كل ثمين لأقدمه لك.. ولو خسرت عمري..

قال ملاطفاً:

- أريده زواجاً شرعياً يا «آنى».. فى المعبد..!!

أجابته بدهشة:

- معبد..؟ أنا لا أفهم يا «موشيه»..

رد قائلاً:

- إن إقامتك على وشك الانتهاء يا حبيبتي... وزواجنا سيحميك حيث ستحصلين على الجنسية النمساوية.. وبالتالي فلن يكون لأحد من أهلك سلطة عليك.. و..

قاطعته:

- «موشيه».. ما حكاية المعبد هذه.. أنت لم تجيبي بعد.. ١٩..

قال:

- لابد من توثيق الزواج في المعبد لإتمام إجراءات الإقامة.

سألته:

- وهل التوثيق في المعبد له صلة بكوني مسلمة.. ١٩..

أجاب:

- الزواج في المعبد يكون لليهود فقط.

ارتجفت «أمينة».. فالإجابة كانت تحمل كل تساؤلاتها.. إذ يجب عليها التخلي عن دينها رسمياً والتحول إلى اليهودية حتى يتوثق الزواج.

وحتى لا يظن شيئاً إذا تأخرت طويلاً في التفكير.. قالت:

- أنت تعرف يا «موشيه» أنني أحبك أكثر من نفسي.. وقبل أن أذهب معك إلى المعبد أريد أن أسمع منك تأكيداً بأنك لن تتخلي عني في يوم من الأيام.. فمعنى ذلك يا «موشيه» أنني أصبحت كشجرة تموت أوراقها وجذورها شيئاً فشيئاً في انتظار النهاية.. ونهايتي عندئذٍ ستكون الانتحار.. فلا معنى للحياة بدونك يا «موشيه».

ضمها في حب ووعداها بما أرادت.. فاطمأنت.. وما هي إلا أيام قلائل حتى اعتنقت اليهودية.. وتزوجت من فتاها اليهودي زواجاً رسمياً.. وغيّرت اسمها إلى «آنى موشيه بيراد»!!

وبعد هذا الزواج ازداد هلعها .. فقد أدركت مدى الجرم الذى ارتكبته فى حق دينها ووطنها .. لكنها لم تحاول إظهار هذا الهلع حتى لا يؤثر ذلك فى عمل زوجها واستقراره النفسى الذى يحتاجه كقائد لطائرة أسرع من الصوت.

ولما انتقل زوجها إلى قاعدة عسكرية قريبة من فيينا ... انتقلت هى الأخرى معه، وعلى أطراف المدينة أقاما بشقة جديدة رائعة .. تمتد من أمامها مساحات الزروع الخضراء الشاسعة .. وتبدو أشجار الغابات من بعيد كروؤوس أشباح تترصد .. وتطارد الخائنة العربية كلما خلت إلى نفسها .

اختارت تلك الشقة بالذات لتكون بعيدة عن أعين المخابرات العربية التى تصورت أنها تسعى إليها وتتقب عنها فى «فيينا».

وبسبب ذلك كرهت الخروج مشياً فى نزعات خلوية بمفردها أو برفقة زوجها .. وسيطرت عليها هواجس الخوف الشديد كلما التفت أحد المارة إلى نافذتها بشكل عفوى.

هكذا عاشت تجرع التوتر فى كل لحظة .. وينهشها الخوف بلا رحمة .. وتحولت أيامها إلى كابوس مرعب يخنق فيها البسمة .. ويفرز بأظافره الحادة المستطيلة فى عنقها .. حتى إنها كثيراً ما كانت تستيقظ فجأة صارخة فزعة مرتجفة .. تتحسس فى سرعة مسدسها المشحون وتصوبه هلوعة إلى كل أركان الغرفة.

ضاعت منها فرصة إكمال أطروحتها فى الجامعة .. وضاعت أيضاً وإلى الأبد رغبتها فى أن تصبح أُمّاً .. فقد أظهرت نتائج التحاليل المختلفة أن هناك عيباً خلقياً يمنعها من الإنجاب.

برغم ذلك لم يظهر «موشيه» تبرمه .. بقدر ما كان يعمل على إسعادها وإدخال الهناء إلى حياتها .. ولما عرض عليها أن يستقيل ويعمل طياراً مدنياً رفضت بشدة تلك الخطوة .. فغيابه عنها فى هذه الحالة سيطول وستبقى وحدها تقاتل الخوف والاضطراب .. فى حين أنه كان فى ذلك الوقت يقضى معها خمسة ليال من كل أسبوع.

و ذات يوم عرض عليها «موشيه» أن تقيم «سارة» معهما .. فعارضت ذلك بمنتهى العنف .. وأخذت تشرح له كيف أن والدها يعرف «سارة» .. ويمكن بذلك التوصل إلى الشقة بمراقبة شقيقته واقتفاء تحركاتها .. فهي إذن «الطعم» الذي يمكن اصطليادها بواسطته .

لم يكن زوجها يتخيل مدى يقظة عقلها وتحليلها للأشياء بمثل هذه البراعة .. وقال لها مازحاً :

- من المستحيل على جهاز الاستخبارات في الأردن التوصل إليك لأنك أذكى من رجاله .

ضحكت وقالت :

- إن عمى الآن جنرالاً في القصر الملكي .. وهو على صلة وثيقة بأجهزة الأمن هناك وأعتقد أنه لن يتركني أبداً حتى وإن عشت في كوخ بدائي على نهر الأمازون .
إنني شركسية يا عزيزي .. والشراكسة أقلية جداً في الأردن لكنهم يتبوأون مناصب هامة .. وهروبي في النمسا أمر يضر بمركزهم وبأمنهم .. لذلك فهم يسعون ورائي ولن يتركوا الأمر يمر بسلام .

وأضافت :

- ما يقلقني أيضاً ويتلف أعصابي أنهم قد يشركون السلطات النمساوية في عملية البحث عني .. وعما إذا كنت قد غادرت «فيينا» .. أم مازلت أقيم داخل البلاد .. إن وزارة الخارجية الأردنية لن تسكت على كل حال .. فالعملية ستأخذ الخطوات الدبلوماسية الرسمية ليتم تتبع خطواتي من خلال سجلات إدارة الهجرة والتجنس .

ثم تذكر يا عزيزي أن زوج شقيقتي يعمل دبلوماسياً في روما وله علاقات بالسفارة هنا بالطبع .

أجابها «موشيه» :

- يا عزيزتى هذه الأفكار ستقتلك.. أنت الآن تحملين اسم «أنى موشيه بيراد» فى السجلات الرسمية للدولة.. ومن الصعب أن يتوصل إليك أى مخلوق مهما كان.. فقد قمت بعمل «اللازم» بواسطة علاقاتى والنقود أيضاً.. لإخفاء اسمك الحقيقى.. فليطمئن قلبك إذن..!!

بشكل أو بآخر.. كان «موشيه» قد «تصرف» بما يضمن حصول «أنى» على الأمان الكافى.. وهذا ما كان يحاول إيصاله لها وإقناعها به.

لكنها كانت تعلم تمام العلم أن الخطأ الذى ارتكبته لا يفتفر.. وسيطولها الثأر أينما كانت وفى أى وقت.. ثأر عشيرتها وأهلها وأجهزة الاستخبارات العربية أيضاً.. قدمها قد أهدر على كل حال وأصبح أجلها مرهوناً بمن يتوصل إليها أولاً.

لكل ذلك كرهت الخروج من الشقة ليلاً أو نهاراً.. وتحولت إلى سجينة بإرادتها بين جدران باردة.. تنزف دموعها الملحية بلا انقطاع.. فضلاً عن سجنها الآخر.. المهلك المدمر.. سجن الخوف الذى أبى أن يغادرها حتى وهى فى ذروة لحظاتها الحميمية.. تاركاً بصماته فى كل ما يمس حياتها داخل مسكنها وخارجه.. وهى بمفردها أو فى وجود «موشيه».

وذات مساء شتوى قارس ارتدت البالطو الثقيل والكوفية والطاقيه الصوف فبدت بملامح أخرى جديدة.. وخرجت مع «موشيه» للتنزه بسيارته الصغيرة.. وخطر لها أن تتصل تليفونياً بشقيقتها فى «روما».

استغرق الحديث بينهما ثلاث دقائق تقريباً.. أخبرتها أمينة للتمويه أنها تعيش بإحدى دول أمريكا الجنوبية.. وحاولت أن تستشف أية أخبار من «رقية» التى لعنتها لأنها جلبت العار لأهلها.. ثم وضعت السماعة بدون أسف.

لم تحصد «أنى» من هذه المكالمات أية أخبار.. بل حصدت الاحتقار والأسف وباتت ليلتها فى كدر فشل «موشيه» فى إنقاذها وإخراجها منه.

غضباً عنها ثارت تحاول إسعاد زوجها بالقدر الذى اعتاده منها برغم

معاناتها القاسية.. فتنجح أحياناً وتفشل فى أحيان أخرى.. وحرار عقلها فى إيجاد أى منفذ لواد الخوف المتوحش المسيطر عليها.

وبعد مرور عدة سنوات تغيرت «آنى» كثيراً.. إذ نحل عودها وغارت وجنتها بعدما أنهكها الفكر وأخذ يفتك بها شيئاً فشيئاً.. وتذكرت تلك القصة التى تقول إن خطاباً فوجئ بحية بشعة المنظر قطعت عليه الطريق فى الصحراء.. فارتجف هلعاً وروعاً وعرف أنه هالك هالك.. وقال لها:

- اتقتلينى وأنا خطاب ضعيف؟ إن أخى «فكر» أقوى منى ويستطيع أن يصرك بضربة واحدة من يده.

فأطلقتته حتى يذهب فيأتى بأخيه بعد أسبوع.. وخلال تلك الأيام أخذت تفكر: ما طول هذا الرجل؟ وما شكله؟ ولونه؟ وهل سيقتلنى فعلاً بضربة يد واحدة؟ لابد إذن أنه عملاق مخيف مهيب.. و... إلخ.

كانت قد زهدت الطعام والشراب لكثرة التفكير فى ذلك الرجل المجهول الخارق القوة الذى سيجيئ ليقتلها بيده.. فبدأ الذبول يجتاح بدنهما حتى أنهكت قواها وحل بها الضعف الشديد.. وفى الموعد المحدد جاءها الصياد وحده فسألته:

- أين أخوك الذى قلت أنه سيجيئ ليقتلنى؟

قال لها:

- لقد أرسلته لك بالفعل.. إنه أخى «فكر» الذى أصابك بالضعف..

ثم ضربها فقتلها.

وارتعبت «أمينة/ آنى».. فهى هالكة هالكة لا محالة إذا ما استمرت على حالها هكذا.. ونشط عقلها يعمل ويحل ويفكر فى كيفية التعايش.. وجلب الأمن والأمان والاستقرار النفسى.

وفى صيف سنة ١٩٧٢ قرأت إعلاناً بإحدى الصحف.. تطلب فيه إسرائيل من يهود أوروبا الهجرة إلى «أرض الميعاد».. وكان الإعلان مغرياً جداً حيث

سيمنح أصحاب التخصصات والكفاءات الفنية الدقيقة مزايا عديدة من حيث الإقامة التي ستكون في فيلا مستقلة.. ومرتببات عالية و... إلخ..!

ابتهجت «أمينة/ آنى» واتصلت بالسفارة الإسرائيلية للاستفسار ومعرفة تفاصيل أكثر.. ولما أُجيب عن أسئلتها تملكها شعور بالاطمئنان وتصورت أنها عثرت على الحل المثالى للقضاء على معاناتها.. وأخذت تعد العدة لمفاتيح زوجها وإقناعه بفكرة الهجرة التي راقت لها.

ففى هذه الحالة لن تتمكن المخابرات العربية من التوصل إليها.. وستودع عند ذلك الخوف إلى الأبد.

هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى ستحصل و «موشيه» على جواز سفر إسرائيلى... وفيلا... ووظائف مرموقة.

بيد أن موشيه لم يقتنع بكلام زوجته ولهفتها على الهجرة.. وعارض الفكرة تماماً عندما قرأ الإعلان.. إذ كان يعرف أن إسرائيل والعرب فى حالة حرب مسلحة.. ما إن تهدأ حتى تشتعل طالما هناك أراض عربية مفتتصة ومحتلة.. وشعوباً عربية تكره إسرائيل وممارساتها.. ودول الجوار تعد جيوشها للانقضاض عليها.

وأمام رفضه لتحقيق أمنيتها فى العيش آمنة.. اشتد حزنها وذبولها.. وانزوت تجرع الخوف وتنزف الدموع.. إلى أن لان «موشيه» وأشفق عليها مشقة البكاء والألم.. فتقدم بأوراقه إلى سفارة إسرائيل فقبلتها على الفور ودون مناقشة.. وعند ذلك قدم استقالته.. وفى غضون عدة أشهر كانا يطيران إلى «تل أبيب» بطائرة «العال» الإسرائيلية.

كان ذلك فى آخر تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٧٢.. حيث تحير «موشيه» عندما استقبلت «آنى» استقبالاً رائعاً فى مطار اللد.. فقد ظن لأول وهلة أن زوجته إما أن تكون شخصية مرموقة ومعروفة فى «عمان».. أو أنها فنانة إسرائيلية مشهورة..!

القسم الخامس عشر في إسرائيل (١)

«ها أنا الآن أجمع الألم وألوك المعاناة.. مات
موشيه وتركنى وحدى فى بلاد غريبة..
غريبة.. فقد كان هو وطنى وملادى.. لكن
غبائى هو الذى قاده إلى مصيره المهلك
وعجل بنهايته فى إسرائيل..»

٢٧ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٧٢

كنت فى غاية اللهفة لمغادرة النمسا إلى إسرائيل.. فهناك الأمان الذى أنشده وأبحث عنه.. وكلما اقترب الموعد حسبما يقولون لنا فى السفارة ازداد حبوراً وإقبالاً على الحياة.. فبدأت أتناول طعامى بشهية وأنا مملء جفونى.. كما عادت إلى وجهى نضارته التى افتقدتها طوال سنوات رعب وهلع.

أما «موشيه» الذى كان قد استقال وتأهب للهجرة إرضاء لى برغم معارضة والديه وإلحاحهما فى ألا يترك النمسا.. فقد رأى تبدل حالى وسره كثيراً أن يدخل السرور إلى قلبى بهذه الخطوة الجريئة التى طالما عارضها وأبدى امتعاضه منها.

وفى ١٩ تشرين الثانى طرت و «موشيه» إلى «تل أبيب» بعدما أغلقنا شقتنا فى «فيينا».. وفى المطار عندما وصلنا استقبلنى بحفاوة رجال لا أعرفهم.. فدهش زوجى وسألنى بلبقائية عما إذا كانت قد زرت إسرائيل من قبل.. وبدأ متشككاً بل وتصور أننى شخصية مشهورة جداً دون أن يعرف.

أخذتنا السيارة إلى مدينة «ريشون لتسيون» Rishon Le Ziyon الواقعة على مسافة خمسة عشر كيلو متراً تقريباً جنوبى العاصمة.. وحسبما قال أحد مرافقينا إن هذه المدينة الجميلة كانت أول مستوطنة يهودية أنشئت فى فلسطين سنة ١٨٨٢ بواسطة المهاجرين الأولين الذين جاءوا إلى هذه الأرض.

نزلنا بشقة صغيرة لكنها كانت رائعة وأثاثها جديد وحديث.. والمثير أننى وجدت بالشلاجة أنواعاً عديدة من الجبن والمياه الغازية والمأكولات الأخرى.. وعرفت أنهم وضعوا لنا هذه الأشياء ليربحونا من عملية البحث والاختيار ومشاكل اللغة والنقود.. بل إنهم تركوا لنا ألف شيكل لتصريف أمورنا السريعة فى المدينة.

وبعد ثلاثة أيام جاءنا أحد هؤلاء الذين كانوا بانتظارنا فى المطار.. وأخذنا بسيارته إلى بناية فى «تل أبيب» تتكون من ستة طوابق وتحيطها حديقة ضيقة..

استقبلنا شخص آخر أخذ «موشيه» إلى أحد المكاتب.. بينما أدخلوني إلى مكتب في نهاية الممر.

كان المكتب الأنيق خالياً من أى شخص.. وجلست أنتظر من سيجىء ليتحدث معى.

جاء عامل البوفيه وفي أثره دخل أحد الأشخاص ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة فطلب لى عصيراً.. وصافحنى بحرارة بينما كان العامل ينصرف.. وقال فى ود:

- مرحباً بك فى وطنك سيدة «أمينة».

ثم ضحك برقة وهو يضيف:

- أم تحبين أن أناديك بالسيدة «أنى».

لم أدر بماذا أجيبه.. وتملكنى الحرج فقلت له:

- نادنى بأى منهما يا سيد.

- يعقوب.. يعقوب سنوفسكى.

حملق فى وجهى بتركيز شديد ثم سألنى:

- أعرف أنك تجيدين الألمانية.. فسنوات إقامتك فى النمسا كفيلة بأن

تجعلك تكتبين شعراً بها.. لكننى أفضل أن نتكلم معاً بالعربية.. فهل لديك مانع سيدتى؟

قلت:

- أبدأ.. كما تحب.

- أنت كما خيل لى مهذبة جداً وشديدة الذكاء.. ووجودك هنا الآن ليس بنية

التحدث معك عن أى شىء يتصل بحياتك من قبل... إنما أن مكلف يا سيدتى

بالترحيب بك نيابة عن رؤسائى وتلبية طلباتك.. كل طلباتك.. لتأكيد مدى

حرص إسرائيل على راحة أبنائها الجدد الذين ضحوا بالكثير لأجل ارتقاء هذه الدولة وحفاظها على قوتها بين جيران يتربصون بها.

إن حكومة إسرائيل تتوجه إليك سيدة «آنى» بكل الشكر والثناء والعرفان لمدى اهتمامكم.. وبلغ حبكم ورغبتكم فى العيش هنا على هذه الأرض المقدسة.. وحسبما أكد لكم المسئولون فى سفارتنا فى «فيينا».. فستعمل على إسعادكم وتوفير حياة هائلة مطمئنة لكم.

بعد ذلك سلمنى مظروفاً به اثنتا عشرة ورقة مطلوب منى الإجابة تفصيلاً عمها بها من أسئلة واستفسارات تتصل بحياتى فى «عمان» من حيث الأهل والأقارب ووظائف كل منهم ومدخولاتهم التقريبية.

وفى صفحات تالية كانت الأسئلة تتصل بى شخصياً وعن آرائى فى الأمور السياسية التى تعيشها المنطقة... والمشكلة الفلسطينية والصراع العربى الإسرائيلى.. وكان هناك اهتمام خاص باعتقاداتى ونظرتى لإسرائيل والصورة التى كان لدى عنها.. ومما تكونت هذه الصورة وكيف انطبعت بفكرى وثقافتى.

أستطيع أن أقول إن تلك الأوراق حوت عشرات الأسئلة بما فيها كيفية التعارف بينى وبين زوجى.. وكيف كانت الخطوات نحو الزواج.. ومن الذى اقترح ذلك.. ومدى تقبلى للأمر.

كانت هناك أسئلة تحتاج إجابة محددة أكثر عمقاً ووضوحاً.. كذلك الأسئلة التى تستفسر عما تمثله إسرائيل بوجدانى كفتاة عربية.. وعن مشاعرى تجاه الأردن.. ورأى الشارع الأردنى فى الفلسطينيين الذين يمثلون نسبة كبيرة من الشعب هناك.

لقد أجبته بكل صراحة ووضوح عما جاء بالأسئلة.. واعترفت بأننى أكره الفلسطينيين ومنظمة التحرير وكل المنظمات الفلسطينية الأخرى.. وكان على الملك حسين أن يبذل كل هؤلاء بلا شفقة.. فهم يكرهون الأقلية الشركسية فى الأردن.. لذلك قصفور دورهم.. وأتلفوا ممتلكاتهم فى عمان ظناً منهم أن عمها -

اللواء بالبلاط الملكي.. كان أحد المحرضين لاشتعال أحداث/ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١^(١).. بل واتهموه في الصحف العربية واللبنانية خاصة، بأنه أحد مرتكبيها..

(١) اشتهرت هذه الأحداث باسم (أيلول الأسود)، يقول صلاح خلف (أبو إياد) في مذكراته (فلسطيني بلا هوية) عن دار الجبل - الأردن ١٩٩٦: دقت معركة جرش وعجلون ناقوس نهاية المقاومة الفلسطينية في الأردن، فعلى مدى الأيام الخمسة الممتدة بين ١٢ إلى ١٧ تموز/ يوليو ١٩٧١ راح نحو ثلاثة آلاف فدائي متحصنين في الغابات والهضاب المكسوة بالأشجار في هاتين الناحيتين الواقعتين في شمال المملكة يقاتلون حتى الطلقة الأخيرة ضد الجيش الأردني، ومن الصحيح أن سلوكنا لم يكن في غاية الانضباط، فبرغم أننا كنا نسعى وراء الحصول على دعم كافة السكان إلا أننا كنا ننحو منحى إهمال الأردن الأصلي لصالح الفلسطينيين، ثم إن الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم كثيراً، ما أظهروا شعوراً بالتفوق، وأحياناً بالفطرسية والأخطار، هو موقفهم من الجيش الأردني، وأسممني رئيس الوزراء الأردني تسجيلاً لخطاب ألقاه مسئول فلسطيني كان لا يهاجم الملك فحسب، وإنما أفراد أسرته أيضاً، وكان الخطاب من البذاءة بحيث إنني لم أطلق الإصغاء للتسجيل حتى نهايته، وكان ممثلو بعض المنظمات الفدائية لا يترددون في بعض اجتماعاتهم مع الملك، في أن يستشيظوا غضباً ويضربوا الطاولة بقبضتهم، وازدهرت الشعارات اليسارية ووزعت صور لينين في شوارع عمان وحتى داخل المساجد، والدعوة إلى الثورة وإقامة نظام اشتراكي.

وفي آب/ أغسطس وبينما كان الجيش الأردني يدك مراكز المقاومة ذهبنا لمقابلة عبد الناصر، ياسر عرفات وقدمي وأنا وآخرون. وفي ٦ أيلول/ سبتمبر اختلطت الجبهة الشعبية أربع طائرات وقادتها إلى مدرج هبوط في الأردن بعد أن أسمته «مطار الثورة» معلنة بذلك تحدياً جديداً للملك، وعمت المراكز شمال الأردن حيث راحت المدفعية الأردنية تقصف مكاتبنا قصفاً منظماً.. وكان علينا أن نرد وان نسرع في الرد.. والغريب أن العراق كان يحرضنا على الاستيلاء على السلطة «نظموا محاولة انقلاب وستدعمكم القوات العراقية المراقبة في الأردن لقلب النظام وإقامة سلطة شعبية».. وكان في مشروعاتهم أن تحتل هذه الوحدات إربد والزرقاء في الشمال.. بينما يستولي الفدائيون على عمان.

وفي ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١ تشكلت حكومة حرب كل أعضائها من العسكريين.. وشنت قوات الجيش الأردني هجوماً عاماً ضد الفدائيين واحتلت مقر قيادة «فتح» العسكرية العامة في جبل الحسين.. وتحصن عرفات بجبل اللويبة بينما تم اعتقالنا أنا وقدمي وإبراهيم بكر وأبو غربية ثم أخذنا إلى القصر الملكي وجاء الملك حسين ليرحب بنا.. وعانقني الملك بحرارة وقال لي بلهجة اللائم: «أنت راضٍ عن المأساة التي نعيشها»..

في ذلك الوقت كان هناك مؤتمر للجامعة العربية في القاهرة.. ووافق الملك حسين على أن يطلق سراح أصحابي الثلاثة.. وفي ٢٨ سبتمبر/ أيلول ١٩٧١ غداة توقيع اتفاق وقف إطلاق النار بين الملك حسين وياسر عرفات.. مات جمال عبد الناصر.. الرجل الذي أنقذنا.

أما عن الأسئلة التي كانت تتعلق بإسرائيل وعما تمثله بالنسبة إلى، فقلت بلا مواربة أنتى كنت أكره إسرائيل كسائر العرب.. وطوال مرحلة الدراسة بالأردن كان لدى شعور بعمق هذه الكراهية.. هكذا تربينا وتعلمنا وكبرنا وتثقفنا على ذلك وكان صعباً تغيير الأمر.

أما عندما عشت فى النمسا واختلطت باليهود.. فقد زایلنى أى شعور

« عند ذلك قررنا تعزيز قواعدها فى لبنان كما وكيفاً للعودة إلى شن الهجمات الضدائى ضد إسرائيل انطلاقاً من الجنوب.

وعن وصف مذابح أيلول الأسود يقول ياسر عرفات: «وثائق حرب أكتوبر لموسى صبرى - المكتب المصرى الحديث - الطبعة الثالثة أكتوبر ١٩٧٥». فى اجتماع الرؤساء والملوك العرب بالقاهرة مساء ٢٥ سبتمبر ١٩٧١: «خلينا نقول هؤلاء الفدائيين خونة مجرمين.. لكن ما ذنب مخيم الوحدات» فى عمان؟ لم أستطع أن أمشى أكثر من مائة متر فى المخيم.. لأن روائح الجثث فى الشوارع وتحت الأنقاض ما فيش حد يدفنها.. حيث ندفنها قالوا لى حرام.. ما فيش ماء فى الأحياء الشعبية إطلاقاً.. حتى سمعت أن السفارات ما فيهاش ماء أيضاً، أكل ما فيش.. حتى الأدوية لم تصل إلى مستشفياتنا إطلاقاً.. اليوم دكوا مستشفى الأشرفية.. واستطاع شبابنا أن يعطلوا الدبابات.. ثم لجأ الأردنيون إلى حيلة: وضعوا أطفالاً فوق الدبابات واقتحموا المستشفى وأخذوا الممرضات والأطباء.. وأنا اعرف أين سببت الممرضات الليلة.. لأن «عمان» استبيحت كما تستباح المدن فى القرون الوسطى. ماذا فعلنا لهذا الشعب منذ عام ١٩٤٨؟ وما ذنبه فيما يجرى له..؟ هل نخون..؟ نروح نتفق مع أمريكا ونأخذ حماية منها..؟ نروح نتفق مع إسرائيل «وهنا بكى عرفات»... وأردف: أناشدكم أنتم مسئولون عن الأمة.. هذا الرجل غرق فى الدم.. وإذا تراجع فهو قد آدين.. إنه لا يستطيع أن يتراجع.. سوف يكمل المذبحة. هذا الرجل الدموى لا يوقفه بيان.. إسرائيل فتحت جسورها لاستقبال جرحانا.

فيقول عرفات: هذا الملك حاربنا بالدبابات، قال إننا مجرمون خونة مرتبطون بإسرائيل.. لدى المقاومة إثباتات أنه يجتمع مع الإسرائيليين، لقد طلب منا الملك بإنذار تسليم سلاحنا.. ثم حدثت المذبحة، لقد استباحوا دمنا ولا يزالون وحتى أمس (٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٧١) باعترافهم ١٤ ألف قتيل فلسطينى، و٢٥ ألف جريح والله أعلم، البعض لا يزال تحت الأنقاض، أخو الملك قال والوفد العبرى سمع ذلك، أن أسرته جاءت إلى هذه الأرض وهى خلاء وستتركها كذلك، ولسنوات طويلة حفرت ذكرى مذبحة «أيلول الأسود» فى أذهان الفلسطينيين.. حتى أنهم أسسوا منظمة تحمل هذا الاسم تتبع حركة فتح.. كان قائدها العسكري الفدائى «على حسن سلامة» الذى قام بعمليات خارقة بموافقة عرفات سراً واستكراه العلنى فى وسائل الإعلام.. وهو الفدائى الذى طاردته إسرائيل فى طول الأرض وعرضها للانتقام منه وتصفيته!!

بالكراهية.. بل بالعكس كنت على وئام معهم وحب.. بدليل أنني أحببت «موشيه» وشجعته على الهجرة لإسرائيل.. فإسرائيل تشكل لدى الآن الوطن الأول الذى لا وطن بعده..!!

أخضع «موشيه» لاستجوابات مطولة.. بعضها خاص بعلاقتنا كزوجين وكيفية التعارف والالتقاء العاطفى.. وبعضها الآخر كان يتعلق بعمله كطيار لاستبيان مدى كفاءته من خلال الدورات الفنية التى حصل عليها.. ولأنهم فى إسرائيل كانوا بحاجة إلى أمثاله.. فقد تعددت اللقاءات به.. ثم أخذوه إلى أحد المعامل المتخصصة لمناظرة خبراته.. وإعداده كطيار سيتم إلحاقه بسلاح الجو.. وكان أهم ما يميز «موشيه» أنه طيار أعد فى بلاده وأنفق عليه الكثير والكثير.. وها هو الآن ينخرط فى سلاح الجو دون أن يكلف إسرائيل شيئاً يذكر.

١٥ كانون الثانى / يناير ١٩٧٣

نقلنا منذ نحو ثلاثة أسابيع إلى فيلا رائعة فى «ريشون لتسيون» بنيت من الخشب على طراز بيوت الريف الإنجليزى.. كان الطابق الأول يتألف من ريسبشن مؤثث ومطبخ فسح.. وفى الدور العلوى حجرتان للنوم، منها واحدة للأولاد، وشرفة زينت بأصص من الفخار للزهور، وكانت الطاقة الشمسية المركبة ألواح خلاياها فوق السطح تقوم بعملية تسخين المياه فى الحمامين العلوى والسفلى إلى جانب المطبخ.

وفى الوقت الذى كنا نتعلم فيه اللغة العبرية من خلال معلمة جىء بها إلينا، كان «موشيه» يذهب للتدريب بقاعدة «عكير» الجوية القريبة.. وكان يذهب أحياناً إلى مطار «حاتسور» العسكرى الواقع إلى الجنوب من المدينة قرب الشاطئ..!

ومنذ ستة أيام احتفلنا بامتلاك سيارة مرسيدس هدية من الحكومة الإسرائيلية.. وتسلمنا كذلك جوازى سفر إسرائيليين وسحبت منا جوازات

هذه السن.. فهذا هو الشيء الممل الذي كان يكرهه ولا يستسيغه أبداً.

عندئذ ظهر دورى كزوجة وحبيبة.. وبكل ما لدى من ملكة الإقناع والحب والدلال شجعته لأن يحب العبرية ويسعى بإخلاص لتعلمها.. فهي اللغة الأساسية للوطن الجديد الذى صرنا جزءاً من نسيجه.. حتى يمكننا التكيف مع الجيران والزملاء والأصدقاء فى محيط العمل والبيت.

فوعدنى.. وكان لا يخلف لى وعداً أبداً..!!

٢٢ كانون الثانى / يناير ١٩٧٣:

فى الصباح الباكر جاءت سيارة فخمة يقودها جندى من سلاح الجو.. وبعد عناق طويل وصامت ودعنى «موشيه» ومضى.. ومن النافذة رأيت الجندى يؤدى له التحية العسكرية فيدلف «موشيه» ببزته الرسمية إلى المقعد الخلفى.. ثم يرفع رأسه ليلمحنى.. فيبتسم ويمد يده من النافذة مودعاً.. وأبقى مكانى أتبع السيارة حتى تذوب بعيداً كالشبح.

هذه المرة كان «موشيه» مختلفاً تمام الاختلاف.. فقد تبلورت ثقافته وأدرك طبيعة الجيش الإسرائيلى.. وقال لى إنه منذ انتصار عام ١٩٦٧ أصبح الجنرالات هم أبطال إسرائيل الجدد.. وصاروا شيئاً فشيئاً محط عبادة الشخصية البارزة.

قال لى أيضاً:

- إن التصلب الأخلاقى الذى ابتلى الحياة الإسرائيلية بعد ١٩٦٧ لم يستثن الجيش.. فبالإطراء.. وشرب النبيذ.. والموائد.. بدأ الجنرالات يستغلون رتبهم.. فيأكلون فى أفضل المطاعم على حساب وزارة الدفاع.. ويبرزون ذوقاً جديداً باهظ التكاليف فى الملابس والسيارات.. ويسمحون لسائقهم بخدمة عائلاتهم^(١).

(١) ناتالى راين: المرأة اليهودية، ترجمة د. سهام منصور، مكتبة مدبولى ١٩٨٧.

٢٩ كانون الثاني / يناير ١٩٧٢:

استيقظت فى السادسة صباحاً على جرس التليفون الذى كان إلى جوار فراشى.. كنت أعرف أنه زوجى الحبيب الذى طالما طلبنى فى مثل هذا الوقت المبكر. رفعت سماعة الهاتف فسمعت طرقعة قبلة حنونة وجاءنى صوته المنغم:

- صباح الخير يا أرق امرأة.. وأحن زوجة.

قَبَّلته أولاً وأنا أتنهد وقلت:

- أحبك يا «موشيه».

أجابنى:

- ليس أكثر من حبى لك.

وسمعت جلبة إلى جانبه وأصوات غير واضحة فقلت:

- هل ستطير الآن يا حبيبى..؟

قال فى لهجة استعجال وأسف:

- نعم يا حبيبتى.. نعم.. ستكونين برفقتى دائماً فى كل مكان.. سأعاود

الاتصال بك لاحقاً.

ثم سكت هنيهة وجاءنى صوته:

- أحبك يا «آنى»..

ويبدو أن هناك من كان يستعجله.. لأنه أغلق الخط قبلما أرد عليه مودعة!

ظل عقلى فى حالة استيقاظ لبعض الوقت.. ثم أرغمنى البرد الشديد على

الزحف تحت الغطاء ألتمس الدفء.. ونمت.

وعند العاشرة إلا رباعاً كنت قد تناولت فطورى وأعددت الشاى وجلست

أنتظر معلمة اللغة العبرية التى كانت تجيئنى فى العاشرة وخمس دقائق.. هكذا

كانت دقيقة فى موعدها إلى حد مذهل.

لكن هذه المرة قبل موعدها بعشر دقائق سمعت وقع أقدامها على سلم الفيلا الخشبي ثم صوت الجرس.. فتعجبت لأمرها.. ولما فتحت الباب رأيت رجلاً عرفته في الحال.. إنه يعقوب سنوفسكى الرجل الذى استقبلنى بمكتبه وسلمنى مطروفاً به عدة ورقات لأجيب على الأسئلة التى بها.

اضطريت برغم ابتسامة الرجل الباهتة الغامضة.. إنه أحد رجال الأمن والاستخبارات.. فلماذا جاءنى هذه الساعة المبكرة..؟

وأى أمر خطير دعاه للمجىء..؟

أفسحت له الطريق وأنا أمد يداً مرتجفة وأحملق فى عينيه علنى أقف على مكنون سره.. وقبلما أغلق الباب لمحت فتاة تسرع الخطى باتجاهى.. ثم ألفت بالتحية فى هدوء ودخلت أيضاً.

جلست قبالتهم كالمنومة تلاحق نظراتى عيونهما.. وأخيراً نطق يعقوب بصعوبة:

- سيدة «أنى».. أعرف أنك تريدين أن نطلعك فوراً على ما جئنا إليك بشأنه فى مثل هذا الوقت.. لكن..

لكن قبلما نطلعك على هذا الأمر.. لابد أن نذكرك بأن دولتنا محاطة بالأعداء الذين يتربصون بنا منذ هزيمتهم فى عام ١٩٦٧.. وعليك أن تعرفى أيضاً أن إسرائيل منذ استقلت فى ١٩٤٨.. وضعت بالآلاف من شبابها.. ومازالت تضحى حتى اليوم وستضحى لسنوات طويلة قادمة بخيرة شبابها فى سبيل نهضتها والزود عنها ممن يحاولون ويسعون لتدميرها.

سيدتى المبجلة.. لن تتخلى عنك إسرائيل يوماً ولن تخذلك مهما كانت النتائج.. فأنت ما جئت إلينا إلا لثقتك فى قدرتنا على توفير الأمن والأمان لك.. وهذا ما سيكون وما ستأكدين منه.

تصورت فى البداية أنه جاء للترحيب بى.. ولأننى امرأة وحيدة بالمنزل فقد اصطحب معك تلك الفتاة أو السيدة التى لم يعرفنى بها.

لكن الحقيقة كانت أقسى وأمر مما كنت أتخيل.. إنها كارثة بحق قضت على أحلامي وأمنياتي.. ودمرتني.

لم تصدق أمينة الخبر.. ففى ٢٩ كانون الثانى/ يناير بعدما حادثها تليفونياً وأرسل لها قبلة عبر الأثير.. طار فى أول طلعة استطلاع له يرافقه طيار بطائرة أخرى.. وبالقرب من الحدود السورية انحرف زميله بطائرته.. فيما انطلق «موشيه» وهو لا يفهم نداءات وصيحات زميله عبر اللاسلكى.. ولما اجتاز الأجواء السورية أسقطه السوريون بصواريخ أرض/ جو.. واعتبر مفقوداً منذ تلك اللحظة لأن دمشق لم تعلن رسمياً عن أسر الطيار الإسرائيلى كما يحدث فى العادة.. لكنها أعلنت عن قصفها لطائرة سكاي هوك اخترقت مجالها الجوى فانفجرت فى الجو وقائدها بداخلها.

ولأيام طويلة خلت.. ظلت أمينة تصرخ صرخات هستيرية لا تتوقف إلا لمعاودة الصراخ والتشنج من جديد.. وفى مستشفى «كوبات حوليم هستدروت» للأعصاب فى «ريشون لتسيون» احتبس صوتها.. أو لنقل أن صدمة الفاجعة ألجمت لسانها فصمتت، وهى حالة تم تشخيصها على أنها «هوس الاكتئاب» Manic- depressive الناتج عن موقف شدة الحزن Saddening stress مثل فقد عزيز أو صدمة أو نحوها مما يكون الغم المؤلم استجابته الطبيعية المتعمقة بمرور الوقت.

وهذا النوع من الاستجابة العصابية.. تعجل به الهموم ولا يظهر إلا فى ذوات الاستعدادات العصابية من الشخصيات التى تتميز بمشاعر الدونية In-feriority وشدة الحساسية.. والخوف من قسوة الحياة أو ظلم العالم^(١).

والهوس الاكتئابى لا يؤدى بأى حال إلى الجنل Dementia فالمصابون به أكثرهم أشداء وناجحون.. وبعضهم تقدم ذبذبات حالتهم المزاجية على الصراعات الداخلية التى تتفاعل وتثور داخلهم.. وتكون الهلوسات Hallucinations أحد أعراض هذه الحالة.

(١) د. كمال دسوقي (مصدر سبق ذكره).

خصوصاً النوع المسمى منها Auditory .. فالمرضى يسمع الشخص الذى يحبه وكأنه يهمس فى أذنه بحنان، وهناك أيضاً «التوهمات» Delusions حيث تصل مبالغة المريض فى تقديره لنفسه لدرجة توهمات العظمة.. فقد يعتبر نفسه عبقرىا يحارب الفساد وينتصر على الأعداء الذين يكرههم.. وفى أحيان أخرى يميل إلى اعتبار نفسه عبثاً على المجتمع.. وبالتالي فقد يفكر فى الانتحار.. أو الإنتقام ممن ظلموه.. ويكون ذلك مدعاة لتنامى استجابات «سوداء اليأس».. وشدة الكراهية للمجتمع والناس عامة.

بعد شهر ونصف الشهر من الصمت والذهول.. أفاقت «أنى داوود» وتكلمت.. كانت تنادى على «موشيه» فى خفوت وكأنها لم تستوعب ما جرى له.. ثم نطقت أخيراً عندما زارها نفر من رجال «الموساد» للاطمئنان عليها.. وقالت بأنها تتشكك فى البيان السورى الذى أذيع بعد إسقاط الطائرة.. ثم أخذت تفند الوقائع وتحلل رؤيتها للحادث... مؤكدة أن «موشيه» ما يزال حياً ومتخفياً بين الحشائش والمفارات فى منطقة الجولان الجبلية.. فهو طيار ماهر وقدراته الفنية عالية جداً.. حتى إنه لم يرتكب أى خطأ طوال عمله فى النمسا.

وفى منزلها - وكانت برفقتها إحدى الإخصائيات النفسيات - كانت «أنى» تحدث نفسها نهراً بصوت مسموع أحياناً.. وفى الليل يصدر عنها أنين خافت ملء بالوجع.. هو مزيج متهالك من مشاعر الحسرة والندم والوحدة والضياع.

وقالت ذات مرة لمرافقتها الإسرائيلية المغربية المولد.. إنها لا تفكر فى الانتحار ولن تفكر فيه أبداً.. فأمامها رسالة هامة عليها أن تؤديها مهما كانت النتائج.. رسالة البحث عن زوجها الذى يزورها فى المنام يستغيث بها أن تنقذه.

لقد صبت جام غضبها على العرب الذين أرهقوا أعصابها فى الأردن.. وطاردوها فى النمسا.. وضيعوا حلمها فى الاستقرار بإسرائيل.. إنهم كما أوهمت نفسها.. آفة مستقبلها المظلم.. وسبب نكبتها وفجيعتها فى زوجها الشاعرى

الحنون.. لذلك تضاعفت كراهيتها للعرب.. وتمنت لو أنها تستطيع الانتقام.

فهاهى وحيدة بائسة بين أناس لا تعرفهم.. وبل وتجهل لفتهم وطقوسهم ونظم حياتهم.. وعمداً تناسلت أنها هى التى دفعت بحياتها فى مقامرة خاسرة إلى مستنقع الهاوية.. فأحبت ذلك الشاب اليهودى وتزوجت منه.. ثم دفعته للهجرة إلى إسرائيل خوفاً من انتقام المخابرات العربية.. وسعت قدر جهدها إلى الدفع به إلى مصير مجهول.. مماثل لمصيرها.

* * *

٢٢ آذار/ مارس ١٩٧٣:

ها أنا الآن أجرع الألم وألوك المعاناة..

مات «موشيه» وتركنى وحدى فى بلاد غريبة.. غريبة.. فقد كان هو وطنى وملاذى وحائط الأمان الذى يحمينى حتى من نفسى! لكن غبائى هو الذى قاده إلى مصيره المهلك.. وعجل بنهايته.

فلو لم أَلح عليه لنهاجر إلى إسرائيل.

ولو لم يكن يحببنى لما وافقنى على ذلك.. فقد ترك أسرته ووطنه ومراتع ذكرياته.. واختارنى أنا.. اختار أن يكون إلى جوارى فى أى مكان من العالم.

لقد كنت السبب فى مجيئه إلى إسرائيل.. ومقتله.. وإن كنت أشك فى ذلك لأن لا رفات له ولا خبر.. وكزوجة مخلصه على أن أتحرك للبحث عنه.. وتلقط الأخبار التى ترشدنى إليه.

رجال الأمن فى إسرائيل.. أو رجال الموساد.. وافقوا أخيراً على الطلب الذى قدمته للسلطات.. للسماح لى بالسفر إلى دمشق وبيروت لتقصى أخبار «موشيه».

ولماذا لا يوافقوا؟

إن مهمتى انتهت بمقتل موشيه ولم تعد لى «قيمة» تذكر فى إسرائيل.. أصبحت «كارتاً محروقاً» لا فائدة من ورائه.. لذلك وافقوا على سفرى بدون

اعتراض.. أو حتى توصيات بما يجب أن أفعله هناك لتقصي أخبار «موشيه».

كانت «سارة» ووالدها قد جاءوا من «فيينا» بعد الحادث بأيام وقد أصابهم جميعاً الذهول وخيمت عليهم الصدمة.. وعندما جاءوا لزيارتي بالمستشفى لمحت فى عيونهم نظرات العتاب واللوم.. فجميعهم كانوا لا يوافقوننا على الهجرة لإسرائيل نظراً للظروف التى تمر بها المنطقة بعد ١٩٦٧.. إلا أنه كان قد رتب أموره وتجهز للهجرة لكى يحمينى من شياطين خوفى.

ولا أنكر أن والده كان قد اقترح علينا الهجرة إلى إحدى دول أمريكا الجنوبية بعد التنقل من عدة مطارات للتمويه.. إلا أننى عارضت ذلك بقوة.. فالمخابرات العربية تتواجد فى كل مكان على سطح الأرض وسيتم التوصل إلينا فى أى وقت.

هكذا قدت «موشيه» إلى نهايته.. غصباً عنى.. فلو أننى كنت قد وافقت على الهجرة لمكان آخر.. أو لم أتزوج منه أصلاً.. لما تطورت الأمور إلى هذا الحد.

وخطر ببالى فجأة أن أتصل بشقيقتى «رقية» فى روما.. ربما أعرف منها أخباراً تفيدنى فى خطواتى القادمة.. وعندما سمعت صوتى أغلقت الهاتف فى وجهى كالعادة.. ولما عاودت الاتصال وقد علا صوت نشيجى رفعت السماعة لكنها ظلت صامتة.. وكنت أسمع صوت أنفاسها.. ثم قالت:

- أرجوك.. دعينى أعيش مستقرة مع زوجى.. إنه يعيرنى بك.. وقد تفسد حياتى الزوجية بسببك.

قلت لها فى رجاء:

- أريد نصيحتك يا أختاه.. ماذا أتصرف.. وهل من الممكن أن أعود إلى «عمان» مرة ثانية..؟

لم أكن بالطبع أريد العودة إلى «عمان».. إنما كان سؤالى لها لكى أستشف من الرد ما أبغى الوصول إليه.

قالت «رقية» محذرة:

- مستحيل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها.. فأنت وضعت رؤوسنا في الوحل.. مستحيل يا «أمينة» أن يغفر لك أحد فعلتك وهربك في أوروبا.. إن تصرف كهذا لدليل على اعوجاجك وسوء تربيتك.. وكان أبسط شيء هو أن يتبرأ منك والدي إلى الأبد.

قلت لها بنية معرفة المزيد:

- حاولي يا «رقية».. حاولي أن تكوني همزة وصل بيني وبين الأسرة.. هل أعطيك رقم تليفوني لتحادثيني عندما تكونين بمفردك..؟
وجاءني ردها حاسماً:

- لقد أقسمت ألا أتصل بك مطلقاً.. بناء على رغبة زوجي.. وأنصحك بالآلا تتصلي بوالدك لأنه مريض بسببك.. فقد تنتج عن اتصالك به عواقب وخيمة هو في غنى عنها.

ألححت عليها أن تفعل أي شيء لأجلي.. وسأعاود الاتصال بها في وقت لاحق.. لكنها قالت بإصرار أنها لن تفعل شيئاً.. ونصحتني بالاتصال بابن عمها «خطيبي» أو بعمي «اللواء» إذا كنت جادة ولدي رغبة في إصلاح ما تم كسره.

ثم عادت بعد لحظات صمت لتقول لي:

- وأنصحك ألا تتصلي بعمك أو بخطيبك.. هذا لمصلحتك يا «أمينة» ولا تسأليني عن السبب.

وأضافت:

- هذا آخر ما عندي لك.. لعلك تعودين إلى رشدك ذات يوم.. لكن برجاء ألا تطلبني هذا الرقم ثانية حفاظاً على بيتي..!!

٢٥ آذار/ مارس ١٩٧٣:

كنت قد سجلت المكالمات الهاتفية مع «رقية».. وأدرت الشريط عشرات المرات لأحلل ما جاء به.. ولو أن شقيقتي كانت صريحة معي كل الصراحة لاتضحت أمور هامة.. ومذهلة:

- لا أحد يعرف مكاني بالضبط أو زواجي من يهودي وهجرتي لإسرائيل.
- إنهم يعتقدون أنني مازلت في «النمسا» أو ذهبت لأعيش بإحدى دول أوروبا رافضة العودة إلى «الأردن».

- نصيحتها لي بالاتصال بعمرى أو بخطيبى تدل على أن لا أحد في عمان يعرف قصة زواجي من يهودي وارتدادى عن الإسلام.

- لكن لماذا طلبت منى بإخلاص عدم الاتصال بهما «حفاظاً على مصلحتي».
ترى ماذا كانت تقصد بهذا الطلب بالذات؟..

لقد كانت نبرات صوتها مختلفة وهي تقول ذلك.. نبرات «رقية» الأخت الوحيدة التي تحذر أختها بلهجة خوف.

فممَّ كانت تخاف يا ترى؟..

عموماً كان ذلك يحيرنى إلى حد ما.. لكن الاستنتاجات الأخرى التى توصلت إليها كانت مدهشة ومريضة.. ولما صارحت رجال الأمن الذين كانوا يزوروننى بشكل دائم وأسماهم الشريط.. وافقونى على ما توصلت إليه..!

القسم السادس عشر في النمسا (٧)

دلا أريدك أن تكذبي لأجلي.. فولى لهم
الحقيقة التي حدثت بها.. وسبب هروبي
من عائلتي ومن أوروبا كلها.. ومدى حبي
وشوقي لعائلتي إلا أنتى لن أجروا على
التحدث إليهم هاتفياً..!!»

٧ نيسان / أبريل ١٩٧٣:

منذ أسبوع وصلت إلى «فيينا» بجواز سفرى الإسرائيلى.. وعندما دخلت شقتى هاجمتنى الذكريات وحاصرتنى.. ووقفت باكية إنظر إلى صورة «موشيه» الكبيرة المعلقة إلى الحائط.. ولم أتحمل المكوث بالشقة لعدة ساعات.. حيث تركت أغراضى وركبت أول حافلة أقلتنى إلى «إنسبروك».

هناك وجدت «سارة» بالصدفة.. واستقبلتنى أسرة «موشيه» بفتور.. لكن بعد عدة أيام معهم ذاب الجليد وتعاملوا معى بترحاب يغلغه الحب.. وكانت «سارة» أحد أسباب هذا التقارب الذى حدث بيننا.. خاصة عندما علموا بأننى سأسافر إلى دمشق وبيروت للبحث عن «موشيه» وتقصى أية أخبار عنه.

عدت إلى الشقة من جديد وطوال الليل كنت أبكى بحرقة ولوعة.. ففى كل ركن بها هناك ذكريات رائعة.. وأخذت ألثم المقاعد والستائر والوسائد.. وأدفن وجهى فى ملابس «موشيه» المعلقة بالخزانة.. حتى أننى كنت أطوف بين الحجرتين أناديه هامسة كما كنت أفعل.. وأتحسس كتبه وأسطواناته وأحذيته.. وجواربه.

قد يقال إننى امرأة ملتاعة جُنّت.. امرأة لفظتها أرجوحة الثمالة إلى جب الهاوية.. فدوت صرخاتها تتردد فى الأعماق لهفى إلى الضياء والأمان.. ويبث الصدى فى شقوقه ألم الإنسان وظلمه لنفسه.

وفى الصباح جاءتنى «سارة» لتجدنى فى أسوأ حال.. شبح امرأة أنهكها الأسى ودهمها الألم.. فعانقتنى وهى تغالب بكاءً مرأً على وشك أن يجتاحها.. وقالت:

- كنت على ثقة بما ستفعلينه بنفسك.. لذلك غادرت «إيسنبروك» فى وقت متأخر من الليل لألحق بك فى الصباح.

هدأت جوانحى وحجزت تذكرة طائرة إلى دمشق وأنا أمنى نفسى بنجاح رحلتى.. وقبلما أغادر «فيينا» عرضتُ على «سارة» فكرة كانت قد راودتنى..

وهي معاودة دراستي العليا لنيل درجة الدكتوراه.. لكنها لم توافقني على خطوتي هذه لأنه من السهل حينئذٍ معرفة خطواتي.. وقد يحاول أحد من عائلتي التعرض لى.

وعندما فكرت بما قالت ووجدته معقولاً.. فطردت الفكرة من رأسي وسكتُ لأن لا حل آخر لدى غير ذلك.

وحدث أن اتصلت بصاحبة البيت الذي كنت أقيم بإحدى شققه فى شارع «شترأوس».. وما إن عرّفتها بنفسى إلا وصاحت فى دهشة غير مصدقة:

- أمينة..؟ من أين تتحدثين..؟

- من هنا.. من «فيينا».. إنتى على وشك السفر بالبير إلى «ميونيخ» بعد بضع ساعات.

- هل تعيشين فى ميونيخ الآن..؟

- لا.. إنتى أعيش فى «ريو دى جانيرو».. وسأذهب إلى «ميونيخ» لزيارة صديقة لى مريضة.. وبعدها سأطير إلى «البرازيل».. لكن هل لديك أية أخبار لى..؟

- أخبار..؟ إنها أخبار قديمة ربما لا تهيك الآن..!

- أرجو أن تطلعينى على أى شىء يخصنى.. إنتى بحاجة ماسة إلى معرفة ما حدث.. أرجوك.

- هل تصالحت مع أسرتك يا ابنتى..؟ لقد جاء والدك أربع مرات للسؤال عنك وكان معه أحد الموظفين بالسفارة.. وفى كل مرة كان يلح فى معرفة أية أخبار عنك.. لكننى أقسمت لهما أننى لا أعرف شيئاً عنك منذ أن تركت المسكن إلى مكان آخر لا أعرفه.. وفى إحدى المرات جاء والدك ومعه والدتك وخطيبك.. وفشلوا فى الوقوف على أية معلومات تتعلق بمكانك.. فماذا جرى يا ابنتى..؟

- أبداً.. الأمر يتعلق بخطبتى لرجل كبير السن من أقربائى لا أحبه.. وأظنك

قد لاحظت ورأيت بنفسك أنه يقارب أبى سنّاً.. لكنها عادات الشرق التى تفرض على الزواج منه برغم عدم حصوله إلا على الشهادة الابتدائية.

بإيجاز شديد لقد تمردت على عادات بالية تظلم المرأة ونبزها أقل حقوقها فى اختيار الزوج المناسب لها.. فهل أخطأت؟..

- كان عليك أن تتفاهمى مع والدك.. فمن الواضح أنه رجل متفتح ومتمدين.. وأن تشركى والدتك فيما تفكرين فيه وترينه صحيحاً.. كذلك كان عليك أن تجلسى مع خطيبك هذا وتفصحى له عن آرائك فينسحب من طريقك بهدوء..

- صدقيني لقد فعلت كل ذلك حتى أننى هددت بالانتحار.. بلا فائدة.. لذلك فكرت بالهرب من الأردن ومن النمسا أيضاً.. بل ومن قارة أوروبا إلى أقصى جنوب شرق البرازيل.. فهل تتصورين أننى سعيدة لهذا التصرف؟.. بالطبع لا.. لقد كان بودى أن يعاملنى والدى كإنسانة ذات كيان وشخصية مثقفة.. لا أن يعتبرنى طفلة لا رأى لها.. إن أختى الصغرى تزوجت من دبلوماسى وهى أقل منى فى التعليم.. أما أنا.. ربما لأننى كنت دائماً مطيعة لا أخالف له أمراً.. أراد أن يزوجنى لقريبى لارتباطهما معاً بأعمال تجارية.

لكن لا.. إن الفتاة المطيعة كبرت وتعلمت فى جامعة «فييا» وكانت على وشك أن تتقدم بأطروحتها فى الدكتوراه.. وكان من الصعب عند ذلك التعامل معها بذات الأسلوب القديم.

فهل أخطأت عندما طالبت باحترام رأى فى اختيار شريك حياتى؟..

- وهل تزوجت الآن يا ابنتى؟..

- أبداً.. إننى أعيش بمفردى هادئة البال.. ربما يغفر لى والدى «جريمة» هروبى هذه ويغض الطرف عما حدث.. وأعتقد أن ذلك لن يحدث إلا إذا عرف عن قناعة أنه كان على خطأ..!

- اتصلي به يا ابنتى.. ذكرىه بالأشياء التى غرسها فىك منذ صغرك..
وكونى هادئة مقنعة بلا انفعال.. وساعتئذٍ سيفير رأيه وربما يسافر إليك فى
البرازيل لمصالحتك.

وقبل أن أنسى أحب أن أقول لك أن موظفاً بالسفارة دائم التردد للسؤال
عك.. فهل تريدان أن أخبره بأمر مكالمتك هذه وأنتك تعيشين فى «ريو دى
جانيرو» Rio de Janeiro؟ أم ماذا أفعل..؟

- لا أريدك أن تكذبى بسببى.. فأنت سيدة مهذبة لا ذنب لك فيما يحدث..
فإن جاءك أحدكم لتقصى أخبارى.. فقولى له كل ما لديك من أخبار عنى..
قولى الحقيقة التى حدثت بها وسبب هروبى من هنا إلى البرازيل.. ومدى حبى
وشوقى لعائلتى إلا أننى لن أجرؤ على التحدث إليهم هاتفياً لأن الهاتف سيحمل
إلى لعناتهم التى لا أريد سماعها.. فأعصابى باتت هشة سيئة ولم تعد تتحمل
إهانات أو غيره.

قولى لمن يجيئك منهم يا سيدتى إننى أعيش بمفردى.. عذراء.. ولدى فيلا
جميلة.. وعمل محترم.. وعندى ثلاثة خدم يقومون على راحتى مع زوجاتهم.
قولى لهم أيضاً أننى لن أعود إلى الأردن حتى وإن مت.. فقد اخترت
طريقى ولم يعد من السهل تغيير المسار.

- أتمنى لك يا ابنتى حياة موفقة.. فقد كنت دائماً مثال البنت المجتهدة التى
لا يشغلها شئ سوى العلم..!

القسم السابع عشر في سوريا ولبنان (١)

«وعندما عدت إلى بيروت.. كنت قد اتخذت
قراراً بالآأ أعود إلى «دمشق» مرة ثانية..
فالمخابرات السورية كانت ترصد كل شيء
وتراقب الوافدين إلى البلاد، ولم أكن
مستعدة لتحمل نتائج مغامرة قد تقودني إلى
الهلاك في دولة المخابرات..»

١٣ نيسان / أبريل ١٩٧٣^(١)

منذ أن وطأت قدمي أرض مطار «دمشق» الاثنين ٩ نيسان.. وقد خالجنى شعور بالخوف.. فبالى جانب التدقيق معي في الجوازات بالمطار.. كانت هناك نظرات فاحصة تكاد تخترق أعماقي..

لازمني هذا الشعور حتى وأنا أخطو أولى خطواتي في فندق «الشرق» أسأل عن حجرة.. ولم أستطع التغلب على هذا الخوف في أي مكان كنت أذهب إليه.. في الأسواق الشعبية والمتاجر.. وفي الشوارع والمقاهي..

كانت «دمشق» تموج بعشرات المرشدين ورجال الأمن والمخابرات.. في ذلك الوقت لم أكن غبية حتى أتصور أن ما أراه شيئاً طبيعياً لا غبار عليه.. بيد أن الحس الأمني لدى كان قوياً.. لدرجة أنني كنت أقرأ نظرات المارة وأتأمل وجوههم.. وأكاد أشم رائحة الشك التي تحيط بكل غريب يزور سوريا لأول مرة.

دولة المخابرات هذه أزعجتني.. لذلك قمت بعدة زيارات سياحية للغوطة وللمسجد الأموي في دمشق.. وحرصت على زيارة ساحة «المرجة».. والتمعن في كل شبر منها.. ففي هذه الساحة بالذات يتم إعدام الخونة والجواسيس شنقاً على مرأى من الجماهير.. وأشهر من أعدموا بها كان جاسوس الموساد «إيلياهو كوهين»^(٢) المشهور باسم «إيلي»..

(١) لم يكن لأمينية المفتي أي دور في عملية فردان التي نفذت مساء العاشر من أبريل ١٩٧٣ وأسفرت عن مقتل ثلاثة من كبار الزعماء الفلسطينيين: كمال عدوان، وكمال ناصر، ويوسف النجار (انظر الجزء الثاني من كتابنا: حراس الهيكل - الاغتيالات، عن أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي بالقاهرة).

(٢) ولد بالإسكندرية لأب يهودي جاء من حلب.. وفي عام ١٩٥٦ هاجر إلى إسرائيل بعدما انخرط في عدة عمليات ضد مصر واعتقل في «فضيحة لافون» لكن تم تبرئته.

وفي إسرائيل انضم إلى المخابرات العسكرية «أمان».. ثم عمل في «الموساد» حيث تم تدريبه وإرساله إلى الأرجنتين في مارس ١٩٦١ بعد عمل التغطية اللازمة لشخصيته الجديدة «كامل أمين ثابت». وفي يناير ١٩٦٢ وصل إلى سوريا يحمل العديد من الرسائل والتوصيات لبعض الأشخاص السوريين.

ومن خلال هؤلاء الأشخاص تعرف ببعض رجالات المجتمع.. منهم أحد العاملين بإذاعة دمشق.. وملازم أول بالقوات المسلحة يمت بصلة قرابة لرئيس الأركان.. كذلك تعرف إيلي كوهين على =

وعندما غادرت عاصمة الأمويين إلى «بيروت» غمرتني راحة ما بعدها راحة.. وقلت في نفسي إن «لبنان» دولة متحررة منفتحة تعيش أزهى عصورها.. ولأنها تعتمد على السياحة كدخل قومي.. فالمعاملة هناك تختلف ويشهد بذلك كل من يزورونها.

فعندما وصلت إلى مطار بيروت الدولي لمست بنفسى حفاوة الاستقبال بداية من الحمال والسائق وموظف الجوازات.. وأخذت أتأمل المطار من الداخل حيث اصطفت الطائرات.. وقلت في نفسي: هنا قصفت إسرائيل المطار ودمرت جميع الطائرات المدنية العربية الرابضة على أرض المطار^(١).. وكان عددها ثلاث عشرة طائرة.

١٥ نيسان / أبريل ١٩٧٣،

وصلت الأربعاء ١١ نيسان إلى بيروت.. طلبت من السائق أن يأخذني لأحد الفنادق العادية.. فذهب بي إلى شارع «الحمراء» أشهر الشوارع العربية.. ومساءً = العديد من الفتيات والسيدات.. كان يصطحب بعضهن إلى شقته ويتركها لأصحابه أحياناً لقضاء وقت ممتع مع صديقاتهم.. وفي تلك الفترة أمد إسرائيل بمعلومات عسكرية استمدها من الملازم أول.. وفي يناير ١٩٦٥ اعتقل في دمشق لأسباب عديدة أثرت من حوله.. واستغلت إسرائيل ذلك وقامت بدعاية إعلامية بقصد الإفراج عنه أو تخفيف الحكم.. وتوسطت حكومات وشخصيات عالمية لأجل هذا الغرض.. لكن لا فائدة.. وفي مايو ١٩٦٥ أعدم شنقاً بساحة «المرجة» وأبقيت جثته مدلاة لأربعة أيام كما تقول بعض المصادر.. وحتى صدور هذا الكتاب لا تزال جثته في سوريا رغم مطالبة إسرائيل بها وصرخات زوجته «ناديا» العراقية الأصل عبر وسائل الإعلام العالمية.. ١١

(١) في ٢٦ ديسمبر عام ١٩٦٨ هاجمت عناصر فدائية فلسطينية مكتب شركة «العال» في مطار أثينا بالقنابل وأطلقت النار على طائرة إسرائيلية.. وعند القبض على المتهمين تبين أنهما طارا من بيروت إلى اليونان بعد تدريبهما في أحد المعسكرات بلبنان.. وفي التاسعة وربع مساء ٢٨ ديسمبر - أي بعد يومين فقط - هاجمت طائرات هليكوبتر إسرائيلية مطار بيروت الدولي واحتلته قوات الكوماندوز.. وجرى نسف ١٣ طائرة لبنانية وعربية بناء على أوامر من «موشى ديان».. وقيل أن «رافى إيتان» الذي قاد العملية دخل إلى استراحة المطار مع حراسه ليشرّب القهوة.. إلى أن انتهى رجاله من تلقيم الطائرات التي كانت جاثمة على أرض المطار.. وزيادة في السخرية دفع «إيتان» ثمن فنجان القهوة للعامل اللبناني الذي عاش لدقائق وصفها كأنها قرون.

(تفاصيل العملية جاءت بالجزء الثالث من كتابنا الموسوعي: «حراس الهيكل».. عمليات الموساد الخارجية في نصف قرن».. عن أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي. القاهرة ٢٠٠٤).

عندما تجولت بالشارع دخلت أحد الشوارع الفرعية لأشتري بعض الجوارب.. فتعرفت على صاحبة المحل وكانت سيدة أردنية الأصل اسمها «خديجة زهران».

امتد الحوار بيننا لوقت طويل فى ذلك اليوم.. واشترت منها ملابس عديدة بمبلغ كبير بقصد التعرف والتقرب إليها.. وعندما طلبت منها مساعدتى فى العثور على شقة معتدلة وعدتتى بذلك.. وكانت رغبتى فى الإقامة ببيروت رغبة ملحة للبحث عن زوجى من خلال الفلسطينيين الذين ربما كانت لديهم معلومات عنه.

عام ١٨٨٨ كانت «بيروت» جزءاً من ولاية «سوريا» وتحولت لتكون ولاية مستقلة مرتبطة بالدولة العثمانية.. وكان يتبعها سنجق «بيروت».. و«سنجق عكا».. و«سنجق نابلس».. و«سنجق اللاذقية».. و«سنجق طرابلس».. وقبل ذلك بخمسة عشر عاماً كانت «بيروت» مرفأ «دمشق» بل كل سوريا الداخلية.. وزاد من أهمية المدينة الطريق البرى بينها وبين «دمشق» الذين أقيم فى ذلك الوقت (١٨٦٢).. ثم خط السكة الحديد الذى ربط بين المدينتين.. لتتحول «بيروت» بذلك إلى بوابة «دمشق» التى تقع على أطراف الصحراء.

فى ذلك الوقت أيضاً كانت «بيروت» كما وصفها قنصل فرنسا «هنرى جيز» لا يتجاوز عدد سكانها خمسة عشر ألفاً وخمسمائة نسمة.. منهم سبعة آلاف مسلم.. وأربعة آلاف من الروم الأرثوذكس.. وألف وخمسمائة مارونى.. وألف ومائتان من الروم الكاثوليك.. وثمانمائة درزى.. وأربعمائة أرمنى وسريانى وكاثوليكى.

نشطت «بيروت» كمدينة تجارية وميناء هام.. وأخذ الاقتصاد اللبناني فى النمو بشكل مطرد.. وبعد قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨ ازدادت أهمية العاصمة اللبنانية بعدما ورثت موانئ فلسطين جميعاً.. وتدفقت إليها أموال الأثرياء العرب التى وجدت فى «بيروت» ملجأً آمناً وجهازاً مالياً ومصارف وشبكة اتصالات على صلة بمراكز العالم.

وفى إحدى النشرات السياحية قرأت أيضاً اسم «بيروت» جاء من «بيروتوس»

Beroutos .. وأطلق عليها الرومان اسم «فيلكس جوليا» Felix Julia .. كما أطلق عليها اسم «بيروت» .. المشتق من اللفظ السامى الفينيقي «البئر» وذلك لكثرة وجود الآبار والينابيع فيها .

تجولت فى المدينة العريقة وزرت بواباتها المشهورة .. ووقفت كثيراً أتأمل باب «الدركة» الذى يعد من أجمل بوابات «بيروت» العثمانية .. كما زرت باب «إدريس» الذى يطل على مرفأ المدينة وعلى الجهة الغربية الشمالية لسور بيروت .

وعندما عدت مساء أول أمس إلى الفندق .. أخبرنى موظف الاستقبال أن اتصالاً تليفونياً جاءنى من السيدة «خديجة زهران» ولما اتصلت بها للاستفسار أعلمتنى أنها عثرت لى على شقة صغيرة بمنطقة «الشيخ» .. وصباح أمس أخذتنى إلى الشقة التى راقت لى فاستأجرتها فى الحال .

١٩ نيسان / أبريل ١٩٧٣ ،

انطلقت من شقتى للبحث عن «موشيه» عن طريق زياراتى لمراكز تجمع الفلسطينيين ومحاولة إنشاء علاقات معهم .. لكن كان التحدث بشأن الطائرة التى أسقطها السوريون مسألة خطيرة يصعب الخوض فيها مع أناس لا أعرفهم وقابلتهم لقاء عابراً .. وتخوفت أن يكون بينهم أحد المنضمين لأجهزة الأمن الفلسطينية فيشتبه بى ويرتاب فى تحركاتى .. ومن ثم تتم مراقبتى .

ذهبت إلى «الهورش شو» المقهى القديم الذى كان ملتقى كبار رجال السياسة والإعلام وصانعى القرار اللبنانيين والعرب والأجانب .. صحيح أن عبارة مشهورة قالت عنه: «إذا أردت أن تعرف ماذا يحدث فى العالم فيمكنك أن تعرف ذلك فى الهورش شو» .. لكن ذلك كان حلماً بالنسبة لى .. فقد عرفت أمر هذا المقهى مؤخراً .. لذلك ذهبت إليه على أمل أن أصل إلى أية أخبار عن «موشيه» .

لكنى أعترف بأننى فشلت فى مهمتى .. فشلت لدرجة اليأس .. فغادرت بيروت إلى دمشق بطريق البر .. وما أن تركنا الحدود اللبنانية حتى رأيت

الشلالات بالقرب من منطقة «بقين».. وعرفت أن هذه المنطقة مليئة بعيون المياه المعدنية.. ومن حوالينا انتشرت الأشجار الكثيفة الظليلة.

ولأول مرة أعرف أن هذه المنطقة هي التي تسمى بالزهداني والمشهورة برحابتها وخيراتها ومصايفها.. ففيها يقع مصيف «بلودان» الذي يرتفع ألفاً وخمسمائة متر عن مستوى سطح البحر.. وهو المصيف الذي كان يرتاده الشعراء والكتاب والفنانون.

كنت قد غادرت «دمشق» في الزيارة الأولى بعدما أبلغت الأمن كذباً بأنني فقدت حقيبة يدي بإحدى سيارات الأجرة وبداخلها أسورة ذهبية وستمائة دولار أمريكي فضلاً عن خمسمائة شلن نمساوي.. وكان هذا مبرراً كافياً لأعود ثانية إلى دمشق للسؤال عن حقيبتى المفقودة.

وفي المخفر أخبرني الضابط المسئول بأسف أنه لم يتم العثور على الحقيبة أو تقدم السائق للإبلاغ عنها.. وانتهزت الفرصة المتاحة وأخذت أذكر نبالة الشعب السوري وأخلاقه الدمثة.. وتطرقت شيئاً فشيئاً إلى الحديث عن الجاسوس الإسرائيلي «إيلي كوهين» وشجاعة السوريين في عدم الاستجابة للضغوط الدولية لتخفيف الحكم وإنقاذه من الموت.. وكيف ذهبت لأرى ساحة المرجة التي جرى إعدامه في وسطها.

ولأول مرة أتطرق مع الضابط الشاب إلى حديث يمس «موشيه» بشكل غير مباشر.. حيث أثبتت على القوات المسلحة السورية التي أسقطت الطائرة الإسرائيلية وأسرت قائدها.

فدهش الضابط وقال:

- إنها المرة الأولى التي أسمع فيها قصة الطيار الأسير.. فدمشق لم تعلن أى شيء عن الطيار سوى أنه قتل داخل الطائرة التي انفجرت في الجو.

- إن الحكومة السورية ليست من الغباء لتعلن ذلك في حينه.. فهي بلا شك تحتفظ بالطيار في مكان أمين حتى يجيء الوقت المناسب لمبادلته.. إنها لعبة

الذكاء التى اشتهر بها السوريون.

- ربما ما تقولينه صحيحاً.

- لقد قرأت عن هذا كثيراً فى «الحروب النفسية».. وهو أسلوب اتبعه الحلفاء مع هتلر.. وقد أجاد «جوبلز» أيضاً استخدامهم ضدهم.. وأعتقد أن دمشق تجيد استخدام هذه الحروب واللعب بأعصاب العدو الصهيونى.

وخرجت من مخفر الشرطة دون أن أحصل على أية معلومة تدلنى على الحقيقية التى أبحث عنها.

فهل «موشيه» كان سجين الأسر فى دمشق؟..

أم ترى ذاب جسده فى طائرته المحترقة قبلما تتفجر؟..

ولما كان من المستحيل الحصول على إجابة شافية.. قررت أن أرجع ثانية إلى بيروت قبلما أرهق رجال الأمن فى ملازمتى.. فقد كانت عودتى إلى «دمشق» للمرة الثانية.. وبرغم أن السبب كان معروفاً لديهم.. إلا أنهم لم يكونوا ليتركونى أبداً أجول فى أحياء المدينة وشوارعها بمفردى.

وبينما كنت أستوقف تاكسياً لتقلنى إلى محطة الحافلات لأسافر إلى «بيروت».. اقترب منى رجلان وقالوا فى جدية وتجهم:

- من فضلك.. نحن نريد دعوتك لتناول كوب من العصير فى مكتب الأمن العام.

أسقط فى يدى واضطرب خاطرى.. وسألتهما:

- وما أدرانى أنكما من رجال الأمن؟

فأبرزتا هويتهما.. وحمل أحدهم حقيبتي إلى السيارة التى انطلقت إلى ناحية لا أعرفها.. وهناك قابلنى رجل جهم الملامح ينبئ مظهره ووجهه عن قسوة وفضاظة.. وسألنى:

- لماذا كذبت وادعيت ضياع حقيبة يدك؟..

- هذه هي الحقيقة وأنا لم أكذب.

- إن السائق الذي أقلك يومها كان رجل أمن..!!

فازددت ارتباكاً وقلت:

- لازلت مصرة على ما قلته.. فأنا بالفعل فقدت حقيبتى وما بها من أموال

فى «دمشق».. وإلا لماذا عدت ثانية إلى هنا للسؤال عنها فى مخفر الشرطة..؟

وتصور الضابط أننى ربما أضعت حقيبتى فى سيارة تاكسى أخرى لا صلة

لها بالأمن.. وما كان ذلك يتم لولا إصرارى على حدوث الواقعة.. ومع الرعب

الذى تملكنى إلا أننى تماسكت ومثلت دورى بمهارة.. وفى النهاية أطلقونى.

ومنذ تلك اللحظات اتخذت قراراً بعدم زيارة «دمشق» ثانية.. فأجهزة

المخابرات كانت ترصد كل شىء.. وترقب أى وافد عربى أو أجنبى.. ولم أكن

مستعدة لتحمل نتائج مغامرة قد تقودنى إلى الهلاك.

لكن المشكلة الحقيقية التى واجهتنى هى كيفية التوصل إلى معلومات عن

«موشيه».. وعما إذا كان أسيراً فى المعتقلات السورية أو أنه قتل بالفعل فى طائرته..؟

وراودنى شعور خفى حاولت تكذيبه مرات كثيرة.. بأن «موشيه» قفز من

الطائرة بواسطة الكرسي القاذف طراز دوجلاس أسكاياك C3 - A الذى يمكن

إطلاقه من ارتفاع الصفر.. وأنه يعيش فى الجحور ومفارات وأحراش هضبة

الجولان السورية معتمداً على ما يعثر عليه من النباتات البرية فى إطعام نفسه.

لكن أمر مقتله كان هو المنطقى والمؤكد.. وهو ما حاولت نفيه من فكرى

واستكار حدوثه.. وبقيت هكذا أسيرة أحلام اليقظة التى كنت أوجهها كيفما

شئت تبعاً لميولى الخاصة وأمنيائى أيضاً.

وعندما عدت إلى بيروت كنت أكثر ميلاً إلى تصديق مقولة وفاة زوجى..

لكننى كنت أقاوم وأرفض.. تماماً كما يفعل المحكوم عليه بالإعدام فالبرغم من

أنهم أخذوه إلى غرفة الموت وإدراكه بأن هذه هى نهايته.. إلا أنه كان يقاوم

ويصرخ قائلاً: «إنه بريء»..!!

كنت أنا على شاكلة هذا المحكوم عليه بالإعدام.. فموشيه كان قد مات وتناثرت أشلائه.. وكنت على ثقة من هذه الحقيقة.. لكن رفضي لتصديقها كان يترسخ بداخلي.. وأظل أصرخ وأصرخ لأقنع نفسي بأن «موشيه» لم يمت.

فإلى متى أظل هكذا أسيرة الوهم والهواجس..؟

والى أين يأخذنى الفكر ويتلاعب بأعصابى..؟

ولكى أستريح من ظنوني وعذاباتي كان علىّ أن أسافر إلى «فيينا» لبعض الوقت.. فاستجمع أفكاري وشتات نفسي استعداداً للعودة إلى بيروت مرة ثانية!

القسم الثامن عشر في النمسا (٨)

«خلال ثلاثة أيام شرحت لي «شولاميت»
الكثير من أسرار الإغواء.. ثم استدعت
زميلها الذي «تعامل» معها بحرية أمامي
بقصد تعليمي.. ولما جاء دوري تخرجت..
فخرجت «شولاميت» من الغرفة وتركتنا
معاً..»

٢٢ نيسان / أبريل ١٩٧٣

غادرت «بيروت» بالأمس إلى «فيينا» متخمة بالأسى واليأس.. فهاهى محاولاتى قد باءت بالفشل وأصبحت وحدى فى هذه الحياة.. تركنى «موشيه» لمصير لا أعرفه لأعيش حياة الشتات بلا وطن أو شعور بالأمان.. فمئذ اختطفه الموت وأنا أترنح بلا وعى وقد توقفت أحلامى عند تلك اللحظة.. وضاعت ابتساماتى التى حطمها الحزن وأدماها الدهول.

وفى شقتى بفيينا لفنى الصمت المغلف بالألم.. ووضعت باقة من اللىلاك حول إطار صورة «موشيه» ببذته العسكرية.. تلك الزهور التى كان يعشقها ويحملها إلى دائماً عندما يجرىء من العمل.. لكن الذى حيرنى بحق ذلك الرفض الذى كنت أستشفه من نظرات عينيه.. وكأنه كان يستقرا ما أفكر فيه..

كنت أخاله يرجونى ألا أعود ثانية إلى «بيروت».. مستكراً هذا التصرف وكأنه يقول لى: إن القلب الذى أحب بصدق لا يعرف سوى التسامح.. ولا يجب أن تكون بقلبه ذرة حقد أو كراهية ورغبة فى العنف والانتقام.

بيد أن مخزون الكراهية للعرب حشر حشراً بأوردتى وأعماقى.. ولم يعد لدى ما أفكر فيه إلا الانتقام ممن اغتالوا سعادتى وأمنى عندما قتلوا زوجى.

هكذا سيطر الثأر على فكرى وكان لا بد من المضى فى طريقى مهما كانت النتائج.

وبينما كنت أسبح مع أفكارى دق جرس الهاتف فجأة فجفلت.. حدقت طويلاً فى الهاتف ولم أرد.. فانقطع الجرس ثم عاد يدق من جديد.. وأخيراً استجمعت ما بقى لدى من جرأة ورفعت السماعة فى هدوء..

وجاءنى صوت رجالى:

- آلو.. السيدة «آنى»..؟

- من أنت..؟

- أنا من طرف يعقوب سنوفسكى،

صمت للحظات قبل أن أجيب:

- أهلاً..!

- هناك بعض المسائل لابد من مناقشتها معك.. هل تسمحي لى بزيارتك غداً؟..

- أية مسائل تقصد..؟

- كل ما يتصل بالمكافأة ومعاش زوجك وأمور الوراثة عامة.

- أهلاً وسهلاً.. هل تأخذ عنوان المسكن..؟

- لا أنا أعرف العنوان.. سأكون عندك فى تمام العاشرة صباحاً.

على الفور اتصلت برقم يعقوب سنوفسكى الخاص.. ولما أخبرته بأمر المكالمة التى تلقيتها.. أفادنى بأنه أرسل ثلاثة رجال من طرفه لمقابلتى.. فاطمأن بالى ونمت مبكراً على غير العادة لأستعد للقاء المرتقب.

وصباح اليوم جاءنى الزوار الثلاثة.. كنت أعرف أنهم ضباط مخابرات لأن سنوفسكى هو الذى أرسلهم.. فهو ضابط فى أحد أجهزة الأمن.. ربما يكون «الموساد»..!

بعد التعارف اعتذر لى الضابط الذى هاتفى لأنه لم يخبرنى أنهم ثلاثة أفراد.

فقلت له: لقد عرفت العدد من سنوفسكى.. لكنه لم يوضح لى بالضبط أية مسائل ستناقشونها.. وإن كنت أستشف أن موضوع الإرث ليس هو السبب الحقيقى للزيارة.

ضحك الرجل وقال لى:

- أعرف أنك ذكية جداً يا سيدة «آنى».. ولذلك سأتخير كلماتى بعناية شديدة بحيث تؤدي الفرض المنشود.

قلت:

- هات ما عندك يا سيد «ناحوم»..

- إن مهمتنا هى مناقشتك فى موضوع الإرث والإجراءات الخاصة التى تضمن لك حقوقك دون إثارة أية مشاكل مع أسرة زوجك الراحل.. أو الجهات الرسمية سواء فى النمسا أو فى إسرائيل.

إن ميراثك وحدك في إسرائيل يربو على نصف المليون دولار.. منه التعويض والقبلا في ريشون لتسيون.. إلى جانب أن هناك ضمانات حماية وأمن فوق العادة. قلت:

- هذا جميل.. لكن ما هو الشيء الآخر المطلوب مني..؟

وبعد مجادلات ومناقشات وشروح قال لي: «ناحوم»:

- المطلوب مني هو التعاون مع الأجهزة الأمنية الإسرائيلية.. وتنفيذ ما يطلب مني في بيروت لجلب أخبار عن «موشيه» من خلال اختراق جدران الأمن الفلسطيني.

قال لي أيضاً: يجب أن أحاول إقامة علاقة مع أحد أعضاء جبهة «الكفاح الشعبي الفلسطيني» وهي جبهة تتخذ دمشق مقراً لها وتعتمد في تمويلها على ليبيا والعراق.. وإذا تحقق لي ذلك فيمكنني الحصول على معلومات هامة تتصل بزوجي.. حيث أن قائد الجبهة «سمير غوشة».. ورجاله يتنقلون بشكل مستمر ما بين بيروت ودمشق عقب هزيمة ١٩٦٧.

أما «القيادة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» التي يقودها أحمد جبريل.. فهي موالية لسوريا منذ أنشئت عام ١٩٦٨ وتتخذ من دمشق مقراً لها.. وأنه يسهل اختراق هذه الجبهة في بيروت من خلال أحد الأعضاء النافذين.. الذين يتواجدون في لبنان بشكل منتظم للكوادر الجديدة والتنسيق بشأن العمليات الفدائية المخطط لها.

لقد كنت بقياسات المخابرات الإسرائيلية ثروة لا تقدر.. فأنا امرأة عربية فقدت الأهل والوطن والدين.. وأعيش في وضع نفسي سيء، مليء بالخوف.. ولا مأوى لي سوى إسرائيل التي ستضمن لي الاستقرار والأمن.

لكل ذلك كان لابد من استقطابي بقليل من بث الكراهية في نفسي لهؤلاء العرب الذين قتلوا زوجي الذي كان يمثل لدى الأمن والأمان.. وكنت بالضرورة - في ذلك الوقت بالذات - بحاجة ماسة إلى هذين العاملين.

والذين لم يكن يعرفه رجال الموساد.. أنني لم أكن بحاجة إلى كل هذه المناورات والخطط لإدخالي عش الجاسوسية والعمل لصالح إسرائيل.

لقد ضغطوا بكل قواهم على مأساتي.. منتهزين فرصة غرقى فى بحور اليأس والضياع والضعف.. وكانوا يعرفون جيداً أننى لم أعر للشرف والعفة انتباهاً.. إذ أنى قد خلعت ثوب الشرق المحتشم واستبدلته بغلالة الغرب طواعية.. نازفة تقاليدنا العربية.. وديانتي.. ومبادئ تربيت عليها.. لذلك فقد كنت صيداً سهلاً لرجال الاستخبارات الإسرائيلية يحاصرونه ويضيقون عليه الخناق إلى أن يسقط فى شباكهم.

* * *

استغل ضباط الموساد الثلاثة الضعف الإنسانى عند «أمنية المفتى».. عازفين على أوتار كراهيتها للعرب وهم على ثقة تامة بأنها وحيدة.. هاربة.. خائفة.. وتحتاج إلى نقود للإنفاق على نفسها والعيش فى أمان.. وهى نقاط ضعف محسوبة لهم للسيطرة على فريستهم وتجنيدها بكامل رغبتها.

إن الجاسوسية فى قوانين أجهزة الاستخبارات لا تعترف بمبدأ الرحمة.. ولا تستجيب بأي حال لنداءات الضمير.. ذلك إنه عالم عجيب مثير يفتقد العواطف ولا تصنف المشاعر تحت سمائه.

ففى دهاليزه المظلمة الغامضة.. توجد هناك دائماً مساحة ضيقة من الطموح والجنون.. وبقدر ما لدى الإنسان من رغبة محمومة فى تحقيق أحلامه.. وتوهماته.. تعميه الحقيقة المرة أحياناً عن معالم الطريق.. ويتحول لمخلوق مبصر يتحسس الخطى دونما توقع لنواميس الطبيعة.

فالنفس البشرية ماتزال تمثل لغزاً محيراً عجزت العقول عن تفسير بعض جوانبه.. ولذلك.. لا يجب أن نندهش أمام تقلبات البشر.. وجنوح العقل.. وانحرافات الأفرجه والسلوك.

تلك هى النفس البشرية.. لغز الألفاظ.. سرها لا يعلمه إلا خالقها سبحانه جل شأنه..))

هكذا كانت «أمنية داوود المفتى».. فريسة سهلة سقطت بلا أدنى مقاومة فى شرك الجاسوسية.. وأسلمت قيادها للضباط الثلاثة.. الذين تناوبوا وأنكبوا على

تعليمها وتدريبها أصول «المهنة» التي ستمتھنها في لبنان.. وبعد دورة مكثفة استفرقت شهوراً تقريباً.. تعلمت أثناءها أساليب التجسس المختلفة من تصوير.. وتشفير.. وتلقط الأخبار.. وكيفية الالتزام بالحس الأمنى.. وكذا التمييز بين الأسلحة.

لكن المثير والعجيب.. أنهم استقدموا فتاة حسناء عراقية الأصل.. مكثت أياماً في دورة خاصة مغلقة بشقة «أمنية».. قامت خلالها بتدريبها على فنون الإغواء والإغراء والإمتاع بقصد جلب الأسرار لا بقصد المتعة.. وبعد الدورة النظرية هذه جىء بشاب إسرائيلى مفتول العضلات لتلقينها عملياً كيفية «التعامل» مع العرب.

وفى ذلك كتبت «أمنية» عدة صفحات سجلت بها مشاعرھا الحقيقية إزاء هذا الأمر.. ولأن وصفھا كان صريحاً لا يمكن كتابته.. نورد بعضاً منه بأسلوب مهذب.

تقول «أمنية»:

- خلال ثلاثة أيام شرحت لى «شولاميت» الكثير من أسرار الإغواء التى لم أكن أعلم عنها شيئاً.. وعندما أقنعتنى بأن تستدعى أحد أعضاء الفريق، وافقت وجاء «أفرايم» الذى «تعامل» مع زميلته أمامى بحرية تامة بقصد تعليمى.. ولما جاء دورى تخرجت من «شولاميت» التى خرجت من الغرفة وتركتنا معاً.

فى البداية شرح لى «أفرايم» وهو مصرى الأصل.. أن ما سيتم بيننا لمجرد التدريب ليس إلا.. ثم شرعنا فى «العمل» ولاحظت أن جسدى كان يرفض ذلك بشدة. لكننى سيطرت على مشاعرى وأنا أهتف لنفسى بأن ذلك الأمر لأجل الوصول إلى «موشيه» واسترداده بشكل أو بآخر.

ومع تنبيهات «أفرايم» كنت أزداد توهجاً.. وأكاد أضبط جسدى وهو يتلذذ غصباً عنى.. فكنت أعنف نفسى وألعن الشيطان الذى يفرقنى فى متعة لست أبغها ۱۹۹۱

وتكمل: وبعد التجديف فى بحور «أفرايم» تم تدريبى على كيفية تحميض الأفلام.. والهرب من المراقبة.. واستخدام المسدس.. ثم استقدموا خبيراً فى تقوية الذاكرة، وتخزين المعلومات والأرقام والتدريب على عدم نسيانها.. فكان

يعرض على مشهداً من فيلم سينمائي ويطلب منى الإجابة:

- كم طبقاً كان على المائدة؟..

- ما لون ستائر الشباك؟..

- كم لمبة بالنجفة؟..

- كم عدد درجات السلم؟..

- كم سيارة ظهرت فى الكادر؟..

* * *

ببراعة فائقة أجادت «أنى موشيه بيراد» دورتها الأولى فى التجسس.. وأصبحت أكثر إصراراً على الانتقام والتحدى.. بل وعمل المستحيل للتأر لزوجها من العرب.. إذ كانت تريد تأكيد حبها له من خلال تجسسها لصالح إسرائيل.. حيث لم تعد تزعجها الهواجس أو هلاوس الليل عندما تحلم به وتتخيله يسعى فى الجبال ممزق الثياب.. كث اللحية.. غائر العينين والوجنتين.. يناديها فى رجاء طالباً منها أن تنقذه.. وكثيراً ما كانت تراه فى أحلامها ممزق الجسد.. تلتهم أطرافه فئران الخلاء..

وعندما غادرت «أمينة» فيينا إلى بيروت هذه المرة.. لم تكن رحلة للبحث عن زوجها المفقود.. وإنما للانتقام له.. حيث حددت مهمتها فى تقصى أخبار المنظمات الفلسطينية.. ورجال المقاومة المسلحة الذين يتم استقدامهم من مخيمات اللاجئين فيئورقون أمن إسرائيل.. ويحيلون ليها إلى نهار لشدة القصف والعمليات الفدائية الجريئة التى تمثل نقلة نوعية فى أساليب القتال الفلسطينية.. إضافة إلى عمليات اختراق الحدود المذهلة التى برع فيها شباب الفدائيين..!

كلفنا أيضاً بمهمة التحرى عن مراكز إقامة قادة المقاومة.. وأرقام تليفونات رؤساء المنظمات والجبهات.. ومعرفة الطرق التى يسلكها الفدائيون للتسلل إلى الأراضى المحتلة.. وأيضاً.. التغفل داخلهم لمعرفة أعداد الفدائيين.. وأساليب تدريبهم.. وأسلحتهم.. ومدى مهارتهم فى التخفى والمتاورة.. وكذا تكشف مخازن الأسلحة والذخيرة والإعاشة.

القسم التاسع عشر في لبنان (٢)

«تبولت على نفسي رعباً.. وانحصر تفكيري
في البحث عن كبسولة سم «السيانيد» التي
خبأتها بين خصلات شعري بواسطة مادة
لاصقة.. فالانتحار أفضل كثيراً من الإعدام
لأنه موت اختياري خالص..!!»

٩ حزيران / يونيو ١٩٧٣،

ودعت «موشيه» وأنا أقبل إطار صورته الباسمة.. وقلت له فى تصميم:

- سأعود إلى «بيروت» يا حبيبى هذه المرة للتأثر لك لا للبحث عنك.. وثق بأننى

لن أهنأ حتى أنتقم من هؤلاء الأوغاد الذين نالوا منك فحرمونى طعم الحياة.

وفى يوم السبت ٢٦ أيار وصلت إلى بيروت فى الصباح الباكر.. وبعد قسط

معقول من النوم خرجت أبحث عن شقة أجمل تصلح للمهمة الجديدة التى جئت

لأجلها.. وعن طريق مكتب للعقارات استأجرت شقة بإحدى بنايات الروشة..

أروع مناطق بيروت.

وعبر شرفة الشقة كنت أرى الشاطئ المتعرج برماله البيضاء التى يتقاذفها

البحر على رماله اليايسة.. وهو المشهد الذى وصفه الشاعر الفرنسى «لامرتين»

بقوله:

- إن الطبيعة هنا.. بل كل شىء حولى أسمى من الخيال.. لقد حلمت بجنة

عدن.. لا.. بل لقد رأيته.

كنت أرى أيضاً من خلال الشرفة صخور الروشة الشهيرة.. وعلى بعد

خطوات كان يقع مقهى «الدولشى فيتا» أشهر مقاهى بيروت.. حيث المكان

المفضل للمثقفين والفنانين والجواسيس أيضاً.

ولما كان الشىء الوحيد الذى يضايقنى هو انقطاع حرارة التليفون بالشقة..

فقد زرت صديقتى الجديدة «خديجة زهران» لأطلب منها المساعدة.. وفى الحال

اتصلت بموظف تعرفه بشركة الهاتف.. اسمه «مانويل عساف» الذى وعدها

بعمل اللازم.

وفى اليوم التالى.. طرق «عساف» بابى فأدخلته فأخذ يؤكد لى بأن المنطقة

تعانى من بعض الأعطال بسبب تجديدات بالشبكة.. على وعد بالتوصل فى

القريب العاجل إلى حل.

لكن الحل لا يأتى.. وموظف التليفونات دائم التردد على بحجة الكشف على الكابلات.. وعندما يكون معى بالشقة كنت كائنثى أقرأ أفكاره ونظراته.. ولاحظت جيداً أنه لا يريد الخمسين ليرة التى منحتها له.. بل يريد شيئاً آخر.. فمنحته جسدى أيضاً إذ وجدت فيه صيداً سهلاً أستطيع من خلاله التوصل لأرقام الهواتف الخاصة وعناوين القادة الفلسطينيين..

أجدت استخدام جسدى المدرب على كيفية التعامل مع الرجال المراد استقطابهم.. ولم أشعر بأية رغبة مع أول رجل أقوم بمنحه جسدى خلال مهمتى.. ولأننى بعث الوطن والأهل عندما تزوجت من يهودى.. لم أجد غضاضة وأنا أبيع نفسى لمانويل عساف المسيحى.. ذلك الرجل المتزوج البالغ من العمر نحو اثنين وثلاثين عاماً.. الذى خر مستسلماً أمامى وأنا أمثل دور المرأة التى بعينها نداءات جوع.. وأذهبت بعقله فحوصر ولم يعد لديه أى منفذ للفرار.

هكذا أقبل «مانويل» فى شراهة ونهم.. باعتقاده أنه أوقع بامرأة ظمأى.. بينما تصرفت معه كما تدربت فبدوت فى أقصى حالات الضعف.. والمتعة..! هكذا تفعل النساء فى عالم المخابرات والجاسوسية.. فالجنس عندهن وسيلة.. لا هدف..!

بيد أننى صدمت بشدة عندما اكتشفت أن «مانويل» لا يمتلك كل ما أريده.. فهو مجرد موظف صغير.. ورغبة منه فى توطيد علاقته بى عرض على اصطحاب رئيسه فى العمل «مارون الحايك» حيث أن بيده كل الصلاحيات.. وأفهمنى أن رئيسه هذا مرحح الطباع.. منشغل بالتجسس على المحادثات الهاتفية بين نساء بيروت وعشاقهن... وتستهويه لعبة المطاردة والبحث عن صيد جديد.

وبغريزة الأنثى الجاسوسة.. أيقنت أن «مارون» كنز معلومات ويستطيع أن يدلنى - إن أسقطته فى حباللى - على ما أريد من معلومات عن الزعماء الفلسطينيين فى بيروت.

وعندما جاءنى هذا الباحث عن صيد جديد.. كانت نظراته الجريئة تكاد

تخترقنى وتعزىنى أمامه.. ولما وعدنى بإصلاح خط الهاتف وعدته أنا أيضاً بهدية ثمينة.. وكانت هديتى إليه «وليمة فسق» اتخمته وأطاحت عقله بسياج من غباء..

وبينما الجسد المنهد ساكناً بدأ يتكلم محاولاً إظهار أهميته وسعة علاقاته.. وبعد عدة ولائم.. أطلعنى على الهواتف السرية لبعض المنظمات الفلسطينية.. ولزعماء الجبهات وعناوين إقامتهم بحى «الريحانة» الشهير.. وكان ذلك بعدما أفهمته أننى جئت للعمل كمتطوعة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين.. واختصاراً للوقت كان لابد من الاتصال مباشرة بالقادة لأتسلم العمل بعيداً عن الروتين والتسويق والمماطلة والتحريرات الطويلة التى يقومون بها أحياناً.

بهذا أقنعت «مارون» الذى لم يكن بحاجة إلى أدلة لإقناعه.. إنما كان يجرى خائر المقاومة لا هدف له سوى نيل ما يبغيه.. فكنت أعطيه لأخذ.. وأمنحه لأضمن ولاءاً وإخلاصاً فى العمل والمعلومات.

وبواسطة صندوق بريد ميت.. كنت أصب كل ما تفوه به «مارون» فى خطاب من عدة صفحات.. وتجيئنى الأوامر بعد ذلك بالسعى للحصول على القوائم السرية لرجال المخابرات الفلسطينية فى أوروبا.. والتفتت على تليفونات «ياسر عرفات» ورئيس الجناح العسكرى فى جهاز مخابرات «على حسن سلامة»^(١)

(١) على حسن سلامة: ابن المناضل انفسلعينى «حسن سلامة» الذى دوخ الإسرائيلىين وقتل العشرات منهم قبلما يتمكنوا من قتله.. واختار عرفات «على حسن سلامة» ليكون قائداً لحرسه الشخصى الذى عرف باسم «القوة ١٧».. ثم شغل إلى جانب ذلك منصب قائد الجناح العسكرى للمخابرات الفلسطينية وقاد أشرس المعارك ضد إسرائيل وقتل بيده العديد من الجواسيس.. ومن أشهر العمليات التى قادها «مذبحة ميونيخ» أثناء انعقاد الدورة الأوليمبية.. برغم زواجه من إحدى قريبات مفتى القدس «أمين الحسينى» إلا أنه تزوج من اللبنانية الماروتية «جورجينا رزق» التى انتخبت ملكة لجمال الكون.

رصدت الموساد تحركاته وتوصلت لحل إقامته الجديد فى بيروت.. وأرسلت خلفه العميلة «ماريا إيريك» تشامبرز» لاغتياله.. وعن ذلك تقول إيريك: «تحولت الرغبة عندي وغريزة اصطلياد سلامة إلى حالة هوس.. لقد درست كافة الملفات الخاصة به.. ورأيت فى تفاصيل وجهه المرح».

وبواسطة سيارة مفخخة.. تمكنت «إيريك» من اغتيال «الأمير الأحمر» عام ١٩٧٩ فى بيروت.. وكان ذلك بمساعدة شريكين آخرين لها..!!

الذى أطلقت عليه «جولدا مائير»^(١) لقب «الأمير الأحمر» لأنه المخطط لعملية «ميونيخ» ١٩٧٢ التى قتل فيها أحد عشر إسرائيلياً أثناء انعقاد الدورة الأولمبية هناك.

بدأت المهمة صعبة جداً بل شبه مستحيلة.. فأنا مجرد جاسوسة جديدة أحاول استجماع جرأتى.. ولا خبرة لى كافية لأستطيع القيام بمهمة خطيرة كهذه لا يقدر عليها سوى عميل مدرب لسنوات.. خبير بكل فنون العمل ولديه أعصاب من فولاذ.

وبعد تفكير عميق ازددت اقتناعاً بأن الموساد اختارتنى لهذه العملية لكونى عربية من الأردن.. وطبيبة متخصصة فى علم الأمراض النفسية.. وهتان ميزتان مهمتان أستطيع بواسطتهما الدخول إلى الحصن الفلسطينى المنيع.

١٧ حزيران/ يونيو ١٩٧٣،

فى ذلك الوقت من يونيو ١٩٧٣ كانت الحياة فى بيروت لها مذاق رائع.. تماماً كالأطعمة المتنوعة فى كل أنحاء الدنيا.. إذ كانت تزدهو أجمل فتيات لبنان فى الأندية والفنادق والبلاجات.. يرتدين البكىنى اللاصق المثير.. ويتلوين تحت أشعة الشمس حول حمامات السباحة.. أو يلعبن الجولف والتنس.. ويرقصن الديسكو ويشتركن فى مسابقات الجمال.

وسط جو كهذا يموج بالمرح والسن والشباب.. اعتاد الفدائى «على حسن سلامة» أن يعيش بعض أوقاته.. يرافقه أحياناً «فتحى عرفات»^(٢) شقيق «ياسر

(١) جولدا مائير: أول امرأة تتولى رئاسة الحكومة الإسرائيلية.. ولدت فى «كييف» بأوكرانيا سنة ١٨٨٩ وهاجرت مع أسرتها إلى فلسطين عام ١٩٢١ وعاشت فى القدس وتعاونت مع المصائب الصهيونية فى ذبح الفلسطينيين وطردتهم من قراهم بالقوة.. دخلت الكنيسيت عام ١٩٤٩ ثم تولت منصب وزير الخارجية فرئيس الوزراء وشهدت هزيمة جيوشها فى أكتوبر ١٩٧٣ وماتت فى ديسمبر ١٩٧٨.

(٢) الدكتور فتحي عرفات: الشقيق الأصغر لياسر عرفات.. تخرج من طب القصر العيني وشارك عرفات فى مسيرة نضاله حيث أسس عام ١٩٦٨ جمعية الهلال الأحمر الفلسطينى وأصبح رئيساً =

عرفات».. ولما اختيرت «جورجينا رزق» ملكة لجمال الكون عام ١٩٧١، اختطفها «سلامة» وتزوجها في حدث أكثر من رائع.. مما جعله مطارداً دائماً من فتيات لبنان.. لكنه كان مشبعاً بكل جمال الدنيا بين يديه.

ولأن الموساد كانت تجهل صورة «سلامة» أو ملامحه الجديدة.. وفشلت كثيراً في اقتفاء أثره.. خاصة بعد عملية «ميونيخ» عام ١٩٧٢ بالذات.. فقد كان المطلوب من التسلل إلى عرين هذا الأسد والحصول على قوائم بأسماء قيادات وعملاء المخابرات الفلسطينية في أوروبا.. فقد كان «سلامة» رجل مخابرات من الطراز الأول.. استطاع أن يخطط وينفذ عمليات جريئة ضد إسرائيل.. ونظراً لتمتعه بحس أمنى متميز.. فشلت الموساد في اقتفاء أثره.

قيل لى أن هذا الفشل سببه عدم وجود صورة فوتوغرافية حديثة لسلامة.. وأن الصورة الوحيدة المتواجدة في ملفه التقطت له أثناء دراسته بالجامعة الأمريكية ببيروت.. وهى على كل حال لا تفى بالفرض نظراً لتغيرات الملامح التى استجذت.

وكانت التكاليفات التى جاءتت بضرورة الوصول إلى «سلامة» والحصول على القوائم السرية لرجاله في أوروبا أمر هام جداً وضرورى لتفكيك أوصال القيادة فى «بيروت».. وعزلها عن رجالها فى كل قارات العالم.. وفى هذا إجابة عن سؤال ملح: لماذا السطو على أوراقه وملفاته بدلاً من اغتياله؟

= لها.. وتمكن من إقامة العديد من المستشفيات وعمل على تخرج أطباء مهرة وممرضين وفنيين.. وكان عماد وزارة الصحة الفلسطينية بعد قيام السلطة وانتقالها إلى الأرض المحتلة.. وكان فى الوقت نفسه يشغل منصب المستشار الصحى لياسر عرفات.. وعضو مجلس وزراء الصحة العرب.. ورئيس أكاديمية فلسطين للعلوم والتكنولوجيا.. ورئيس المجلس الصحى الأعلى الفلسطينى.. ورئيس اتحاد الأطباء والصيدالة العرب، ونائب رئيس مجلس وزراء صحة دول عدم الانحياز.. وعضو المجلس الثورى والمجلس الوطنى والمجلس المركزى بمنظمة التحرير الفلسطينية.. تزوج من الطبيبة المصرية «نادى الحطيم» وأنجب منها الدكتورة أماني والمهندس طارق.. وتوفى ودفن بالقاهرة فى ١ ديسمبر ٢٠٠٤ عن ٧١ عاماً بعد غيبوبة طويلة بمعهد ناصر.. دون أن يدرك بوفاة شقيقه ياسر عرفات قبل أيام..»

هكذا كانت مهمتى فى «بيروت» مهمة خطيرة إلى أقصى حد.. ولو أننى استطعت القيام بها على أكمل وجه.. فكل ميادين إسرائيل لن تكفى لنصب تماثيلى.. وفوجئت بوصول «أفرائم» إلى «بيروت» يحمل جواز سفر ألمانى.. وفى شقتى دربنى ليومين على إغواء «سلامة» الذى كان بحاجة إلى مؤثر قوى ليخطفه لبضع ساعات من بين أحضان ملكة جمال العالم.

٢٤ حزيران / يونيو ١٩٧٣،

فى لقاء حميم مع «مارون الحايك» سألته عن صلاح خلف «أبو إياد» والفمرى وغيرهما.. فأجاب بأنه يعرفهم جميعاً فهو المختص بإصلاح تليفوناتهم الخاصة.. وعندما ذكرت له اسم «على حسن سلامة» قال ضاحكاً:

- زوج «جورجينا»..؟ يبدو أنه ذاق جمالها حتى شبع.. لذلك فهو دائم التردد على فندق «كورال بيتش» للاستحمام ومتابعة خطوات الفتيات الحسنات بنظرات ملتهبة.

أسعدتنى المعلومات التى أدلى بها «مارون» فمعنى ذلك أن الرجل الذى تطارده «الموساد» يمكن اصطياده بسهولة نظراً لحبه وميله الشديد للنساء.. وكانت نقطة الضعف هذه هى المدخل المنطقى لاقتحامه.. بيد أننى لم أكن لأصدق أن مثل هذا الرجل قد يقيم علاقة بامرأة أخرى.. ولديه زوجتان واحدة منهما أجمل امرأة على سطح الأرض.

أخذت «مارون» معى إلى الكورال بيتش ليدلنى على «سلامة».. لكن الأيام تمر و«الحايك» يستمتع بجسدى وبالإنفاق عليه دون أن يظهر لسلامة أثر.

تملكنى اليأس لفشلى فى المهمة التى كلفت بها.. وفكرت كثيراً فى مفادرة بيروت.. لكن طرأت بخيالى فكرة جديدة عملت على تنفيذها بأسرع وقت.. إذ انتقلت إلى شقة أخرى بكورنيش المزرعة.. وهى منطقة شعبية يرتادها التجار من قاطنى المخيمات الفلسطينية فى بيروت.

وللوهلة الأولى أحسست بتفاؤل كبير.. خاصة بعدما تعرفت على ممرضة فلسطينية تدعى «شميسة» تعمل بإحدى عيادات مؤسسة «صامد»^(١) بمخيم «صبرا»^(٢) للاجئين الفلسطينيين في بيروت.

قدمتني «شميسة» إلى مدير العيادة الذي اطلع على أوراقى العلمية وهو يتسم فى سعادة.. وقال:

- أهلاً بك يا دكتورة أمينة.. ستجدين هنا العديد من الأطباء من كل مكان.. جاءوا كمتطوعين للمشاركة فى علاج إخوانهم الفلسطينيين.

وضع أوراقى وشهادة الدكتوراه المزورة فى المظروف ثانية.. وطلب منى الانتظار لعدة أيام ريثما يخبر رؤساء.. فتملكنى الخوف لحظتى.. إذ ربما تطلع المخابرات الفلسطينية على أوراقى وترسل إلى «فينا» للتثبت منها فتكشف الحقيقة.. وربما أيضاً تكون هناك معلومات متبادلة مع المخابرات الأردنية فيتم احتجازى وترحيلى إلى «عمان» نظراً لمكانة عمى ومركزه المرموق فى البلاط الملكى.

ندمت ندماً شديداً وحبست نفسى بشقتى الجديدة التى استأجرتها بكورنيش المزرعة.. حتى أننى تعمدت ألا أرد على الهاتف أو أستقبل «مارون الحايك».

وبعد ثلاثة أيام اتصلت بمدير العيادة فأبلغنى أن طلبى قد قبل.. وعندما ذهبت لتسلم عملى قيل لى: إن «ياسر عرفات» يقابل هؤلاء المتطوعين فى شتى المؤسسات الفلسطينية.. ويستعرض فى خطاب طويل تاريخ الجهاد الفلسطينى وقيام منظمة التحرير.. ويأخذهم فى جولات لبعض المخيمات وملاجئ الأيتام (١) أنشئت مؤسسة «صامد» عام ١٩٦٩.. وهى تقدم الخدمات المتنوعة لمستلزمات المعيشة وما يتصل بالصحة والعلاج.. وتنتج المؤسسة الفلسطينية المنسوجات والسلع الاستهلاكية والمصنوعات الجلدية والخشبية والنسيج والزجاج والسيراميك.

(٢) بعد خروج القوات الفلسطينية من بيروت.. ارتكب الكتائبون بمساعدة إسرائيل مذبة «صبرا» وشاتيلا» التى راح ضحيتها ٢٢٩٧ قتيلاً فلسطينياً من جميع الأعمار.. وذبح فى المجزرة أيضاً ١١٩ لبنانياً و١١ سورياً.. و٢٢ باكستانياً وإيرانياً وجزائريان.. و٢٥ قتيلاً لم تعرف هوياتهم أو جنسياتهم ليصبح عدد الذين ذبحوا ٢٤٨٤ فى مجزرة بشعة نفذت أيام ١٦، ١٧، ١٨ سبتمبر ١٩٨٢ فى بيروت.

والمؤسسات الصحية والهلال الأحمر.. كذلك يزور المستشفيات ويستعرض معهم أقسام الأجهزة التعويضية وبنك الدم والمعامل وخلافه.

وما إن تسلمت عملى حتى بدا الطريق سهلاً أمامى للامتزاج بالفلسطينيين والإنخراط فى صفوفهم.. وبدأ عملى التجسسى الأوسع..!

٢٥ تموز/ يوليو ١٩٧٢،

مساء الأحد الماضى.. ٢٢ تموز.. دق جرس الهاتف بشقتى كان على الطرف الآخر «مارون الحايك» الذى أسر إلى بيضع كلمات أجمتتى.. فوضعت السماعة فى الحال وأسهرت إلى التلفزيون.. وصدمنى المذيع وهو يعلن نبأ اعتقال ستة من رجال الموساد فى أوصلو.. بينهم فتاتان.. بتهمة قتل الجرسون المفري «أحمد بوشيقى» بالرصاص فى منتجع «ليليهامر».

وأضاف المذيع: أن القتلة ظنوا أن «بوشيقى» هو الفدائى الفلسطينى «على حسن سلامة».. وأمام جهات التحقيق اعترفوا بأنهم ينتمون إلى «الموساد الإسرائيلى».. وجاءوا من عدة دول ومطارات مختلفة خصيصاً لتعقب «سلامة» واغتياله فى أى مكان يتواجد به^(١).

ارتجت أوصالى واحتوانى الهلع على مصيرى أنا أيضاً.. وفشلت فى الإجابة عن سؤال:

- لماذا كانوا يتعقبون «سلامة» لاغتياله.. بينما طلبوا منى خلاف ذلك..!

يبدو أن اللعبة كانت أكبر بكثير من تفكيرى وحدود معلوماتى.. فأمرور السياسة والمخابرات تتشكل وفقاً لمعايير أخرى.. وحسابات معقدة..!

(١) اغتيال أحمد بوشيقى، مساء السبت ٢١ يوليو ١٩٧٢ فى ليليهامر Lillehammer وهى جزيرة سياحية صغيرة تقع بإحدى البحيرات النرويجية.. وهو مفربى الأصل نرويجى الجنسية لزواجه من الممرضة «توريل» ويقيم فى ليليهامر منذ أربع سنوات وعمره ٢٨ عاماً «ولد عام ١٩٤٥ بالدار البيضاء».. والقتلة المقتلون هم: دانييل آربيل.. وماريانا جلادينكوف.. وإبراهيم جيهمر.. وسيلفيا رافائيل.. وميشيل دوف.. وزيفى شتاينبرج.

ولأول مرة منذ فقدت «موشيه» أشعر برغبة جامحة فى الاستمتاع بالحياة.. ومدى الحاجة إلى مذاقات النشوى الحقيقية التى افتقدتها.. فاستدعيت «مارون الحايك» الذى جاءنى بأسرع مما كنت أتصور.. وبعد دقائق جاء أيضاً «مانويل عساف» فنظرنا لبعضهما البعض فى ذهول.. ثم حملنا فى المرأة المهووسة التى استدعتهما للشرب والسهر.. والمتعة.. ويبدو أنهما لم يفهما شيئاً بالمرة إلا عندما تحررت حتى من أى غلالة.. ورفضت فى نشوة مسكرة.. فقاما ورقصا معى.. ثم انتقلنا ثلاثتنا إلى الداخل حيث تحولت إلى إنسانة أخرى مغايرة..!!

وفى اليوم التالى أيقظنى التليفون.. وعندما جاءنى صوت «مانويل» أفقت وأسهرت إلى الحمام فاغتسلت.. ثم تزينت وارتديت أجمل ملابسى النهارية وقلت لسائق التاكسى:

- الكورال بيتش من فضلك.

كان «مارون» بانتظارى أمام الفندق.. ودون أن نتكلم كلمة واحدة اتجهنا إلى حوض السباحة.. وعند ذلك أشار بعينه إلى أحد الأركان قائلاً:

- هذا هو ما تريدوين رؤيته.. على حسن سلامة..!!

كان حوض السباحة كبيراً على شكل حدوة الحصان.. يحيط به مبنى أبيض اللون مكون من ثلاثة طوابق تطل كل غرفة الخمس والتسعين على الحوض.

لقد اختار «سلامة» هذا الفندق بالذات لأنه مؤمن جيداً.. ومن الأمور العادية أن توجد ثلاث سيارات عسكرية حول الفندق لحماية «الأمير الأحمر».. حيث يقوم حراسه بتأمين موقف السيارات ومداخل الفندق ومخارجه وحدائقه الداخلية.. أما فى الحجرة المطلّة على الحوض وهى بالدور الأرضى.. فيكون «سلامة» دائماً بمفرده.. يحمل مسدسه الأتوماتيكى ولا يفضل عنه أبداً.. وفى زاوية بعيدة كان هناك ثلاثة من رجال الحرس على أهبة الاستعداد لمجابهة أى طارئ.

فى ذلك الوقت كان «سلامة» فى الثالثة والثلاثين من عمره.. رياضى.. وسيم.. أنيق.. تزوج من «جورجينا رزق» عندما كان عمرها واحد وعشرون عاماً.. وهى فتاة جميلة تنحدر من أسرة مسيحية فى بيروت لأب لبنانى وأم مجرية.. انتخبت فى السادسة عشرة ملكة جمال لبنان.. وبعدها بعامين اختيرت ملكة جمال العالم.. وكانت الوحيدة من بلاد العرب التى دخلت مسابقة «ميامى بيتش»..

هكذا أصبحت «جورجينا رزق» أشهر امرأة فى العالم.. يحلم بها كل الرجال.. وكان الجميع يريد التعرف على الفتاة ذات الشعر الأسود الطويل.. والعيون الخضراء.. والفم الكبير.. والجسد الأسطورى.. حتى «جيمى كارتر» حاكم ولاية جورجيا وقبل أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة.. تحققت أمنيته وظهرت صورة له مع ملكة جمال الكون وهى ترتدى فستان السهرة الأسود العارى الأكتاف والصدر..

كانت «جورجينا رزق» قد انشغلت بالفتى الوسيم مفتول العضلات ذى الجسد الرياضى المشوق.. وانشغل بها هو أيضاً.. وبرغم زواجهما إلا أنه كما تردد.. لم يمانع فى اختبار رجولته التى لا تقاوم مع نساء أخريات.

وها هى «أمينة المفتى» عميلة الموساد تقف أمامه وجهاً لوجه بشكل لم يكن متوقعاً.. وحيث رتبت الموائد حول الحوض وعلى مقربة منه اقترب رجلان من حراسه تتفخ أجنابهما بالسلاح..!

رسمت «أمينة» صورته فى خيالها وحفظتها جيداً.. وكانت كثيراً ما تلتقى بسلامة الذى اعتاد رؤيتها.. وابتسامتها.. وجمالها الهادئ البسيط..

وذات مرة وصل «سلامة» إلى الفندق واتجه إلى حجرته.. لكنه عرج فجأة إلى مائدة «أمينة» وانحنى على ظهر المقعد المواجه لها وسألها فى أدب عدة أسئلة.. ثم سحب المقعد وجلس قبالتها لأكثر من نصف الساعة.

وعن ذلك اللقاء المثير تقول «أمينة» فى مذكراتها:

.. فى ذلك اليوم الحار من أواخر تموز.. تشوقت لترطيب جسدى فى حوض السباحة بالكورال بيتش.. حجزت إحدى الغرف بالفندق وارتديت البكيني البرتقالى.. وبعد حمام لمدة ساعة واحدة تقريباً أحسست برغبة فى الخروج من المياه.. وبينما كنت أرفع كأس العصير البارد إلى فمى.. رأيته أمامى.. إنه «سلامة»..!

سرت رعشة فجائية بأوصالى عندما جاء إلى مائدتى محيياً.. وبدأ بأن عرفنى بنفسه على أنه رجل أعمال فلسطينى.. ولمحت من بعيد ثلاثة حراس وقفوا متباعدين فى حالة انتباه وعيونهم تتجه ناحيتنا.. ولما سألتنى عن نفسى أجبتته بجرأة مصطنعة.. فجلس إلى مائدتى بعدما عرف بأننى طبيبة أردنية متطوعة لخدمة الفلسطينيين.. فأتى على شاكرأ اهتمامى بقضية بلاده وشعبه.

ومنذ ذلك اليوم لازلت أذكر رعشة اللقاء مع الفتى الوسيم الذى كان «عرفات» يعده ليتولى قيادة منظمة التحرير من بعده.. وحديثه الرائع الذى جذبنى إليه بكل كيانه ومشاعرى.. وقلت فى نفسى: هنيئاً لك يا ملكة جمال الكون ذلك الشاب الرائع الذى تطفح منه الرجولة والوسامة معاً..!

١٩ آب/ أغسطس ١٩٧٣،

تعددت لقاءاتى بسلامة فى الكورال بيتش.. كنت أناديه باسمه الذى عرفتنى به «كمال ياسين» متحاشية فتح أى حوار معه يتصل بالسياسة.. وحريصة أقصى درجات الحرص إذا سألتنى عن رأى فى أية قرارات فلسطينية.. لكننى كنت أظهر سعادتى عند الإعلان عن أية عملية فدائية ضد الإسرائيليين.

لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله عن هؤلاء الحرس الذين يرافقونه حتى فى مثل هذه الأماكن العامة برغم أنه مجرد رجل أعمال فلسطينى.. فأجابنى بأنه رجل ثرى يتبنى العديد من المشروعات الحيوية الفلسطينية.. وبالتالي هناك أعداء له حيث تجيئه رسائل تهديد من أشخاص كثر.. لذلك كان عليه أن يحتاط لمثل هذه الأمور.

لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من سؤاله عن هؤلاء الحرس الذين يرافقونه حتى فى مثل هذه الأماكن العامة برغم أنه مجرد رجل أعمال فلسطينى.. فأجابنى بأنه رجل ثرى يتبنى العديد من المشروعات الحيوية الفلسطينية.. وبالتالي هناك أعداء له حيث تجيئه رسائل تهديد من أشخاص كثر.. لذلك كان عليه أن يحتاط لمثل هذه الأمور.

تغابيت وأنا أعلن اتفاقى معه فى رأى.. ونظراً لعلاقاته الوثيقة بالقيادات الفلسطينية طلبت منه مساعدتى فى منحى التصاريح اللازمة لزيارة مخيمات اللاجئين فى مدينة «صور» للاطلاع على أحوال المستشفيات هناك فى «البرج الشمالية» و«الرشيدية» و«البص» أشهر مخيمات الجنوب اللبنانى.

وبواسطة «سلامة/ كمال ياسين» انفتحت أمامى كل الأبواب المغلقة.. إذ أصبحت محل ثقة الفلسطينيين... وتطورت علاقاتى بالقادة الكبار حتى وصلت إلى الزعيم «ياسر عرفات» شخصياً.. ولما دخلت مكتبه لأول مرة ارتجف بدنى.. وصافحته بكف مرتعشة باردة ذلك لأن الدم هرب من أوردتى وشرابىنى... وقال لى يومها:

- إننا نفخر بالمتطوعات العربيات من أمثالك.. فأنتن سيدات فضليات نبذن مباهج الحياة من أجل الشعب الفلسطينى ولاجئيه.. هؤلاء الذين يعانون الأمرين فى مخيمات ضيقة وبيوت كالأكواخ تفتقد أبسط مظاهر الحياة.. ومستشفيات بحاجة إلى عونكن..!

وبالتصريح الذى يضمن لى التحرك فى أى مكان.. انخرطت فى صفوف المقاومة أضمد الجروح للمصابين.. وأبث فيهم الإرادة والحماس لإرهاق العدو الفاصب.. وقمت بعدة زيارات إلى الجنوب للإطلاع على أوضاع اللاجئين فى المخيمات.. فكنت عيناى تعمالن بدقة فى التقاط الصور وتخزينها.. وتحولت أذنأى إلى أجهزة تسجيل متطورة.. وباتت ذاكرتى من القوة بحيث تحولت إلى آلة جبارة لا يرهقها تراحم المعلومات وتنوعها.. وكذا رسم الخرائط لشتى المواقع التى

زرتها بدقة كبيرة.. وحفظ أسماء وأنواع الأسلحة وأساليب التدريب.. وأسماء القادة الذين يتولون التدريب البدني والعسكري لشباب المخيمات والمتطوعون.

١٥ أيلول / سبتمبر ١٩٧٣:

أدمنت استجلاء أوضاع الفلسطينيين مستغلة ثقتهم بي.. وكنت أسجل يوماً بيوم ما كنت أتحصل عليه من معلومات.. حيث أضعها في صندوق البريد الميت^(١).. أو أرسلها إلى مكتب «الموساد» في «ستوكهولم».

وأذكر أنني في إحدى المرات كنت أحمل وثائق سرية وتقارير خطيرة.. وذهبت لمقابلة «سلامة/ كمال ياسين» بالفندق بعد أن تأخرت فتاة قبرصية عميلة للموساد كانت ستأخذ الأوراق مني.. لقد كانت حقيبتى مكتنزة بأربعة وعشرون ورقة من أوراق البلوك نوت الكبيرة.. وبينما يأكلنى التوتر لتأخر زميلتى.. فاجأنى الشاب الفلسطينى الوسيم بمجيئه مبكراً قبلما أتمكن من الدخول بالأوراق إلى الحمام لتسليمها لزميلتى التى وصلت حال وصوله.. وكانت ورقة واحدة منها فقط.. كفيلة بأن يفرغ «سلامة/ كمال ياسين» رصاصات مسدسه فى صدرى.. وهو الذى قتل بنفسه عشرات الجواسيس من الفلسطينيين الذين أغوتهم الموساد من قبل.

لقد كنت أجلس إليه بأعصاب من فولاذ.. وعلى مقربة منى كانت زميلتى القبرصية تكاد تموت هلعاً.

ولما انصرف «سلامة» دخلت الحمام وأغلقت الباب ولم أستطع منع نفسى من البكاء بشدة.. وأفقت على نقرات خفيفة لأصابع زميلتى التى كانت ترتجف هى الأخرى وقد امتقع لونها.. فسلمتها المظروف بشكل سريع وخرجت لا أدري

(١) صندوق البريد الميت ليس صندوق بريد بالمعنى المعروف.. لكنه مخبراتياً عبارة عن مكان محدد سلفاً توضع به الرسائل الوثائق.. فقد يكون شق فى شجرة.. أو سيفون حمام بمطعم أو بفندق.. أو حفرة فى حائط قديم يمكن سدها بطوبة.. وربما يكون صندوق البريد الميت هذا فتحة غير ملحوظة فى مقبرة..!!

كيف مشيت حتى خارج الفندق.. فساقاي كانتا لا تقويان على المشي.. وبدأ ميزان اتزانى مختلاً.

وفى اليوم التالى زرت مكتب «ياسر عرفات» لكى أخفف من وقع الصدمة التى حدثت فى الكورال بيتش.. وقدمت إليه تقريراً يضم العديد من السلبات فى الجنوب.. فاهتم بمقترحاتى وأفرد لى مساحة عريضة من الوقت للاستماع إلى.. ثم أوصى مدير مكتبه فى الحال بالتحقيق فيما جاء بالتقرير.. وتلافى أية أخطاء قد تعوق العملية العلاجية فى مستشفيات الجنوب اللبنانى.. وبذلك تقربت أكثر وأكثر من الزعيم الفلسطينى الأول.. وأصبح مكتبه مفتوحاً أمامى دائماً..

وفى اليوم نفسه ذهبت إلى مقهى «الدولشى فيتا» حيث شاطىء الروشة المتعرج الخيالى السحر.. وكان المقهى مزدحماً بالرواد وعثرت على مائدة صغيرة بصعوبة فجلست أرتشف الشاي الأخضر عندما وقفت فجأة سيارة جيب عسكرية أمام المقهى ونزل منها ثلاثة رجال فلسطينيون بدأ أنهم يبحثون عن شخص بذاته.. ولما لمحونى اتجهوا إلى وقال أحدهم بحسم:

- نعرف أنك هنا.. وعليك مرافقتنا الآن..!!

كاد فنجان الشاي أن يسقط من يدي.. ولم أقدر على الوقوف أو الكلام.. بينما الرجال الثلاثة ترسل عيونهم سهاماً من توتر تخترق عظامى وتفتت أوصالى.. وبين ذهول رواد المقهى مشيت معهم وأنا اصطدم بالمقاعد والموائد.

كانت السيارة العسكرية تخترق شوارع بيروت بسرعة مذهلة.. فى حين كنت متكورة إلى يمين السائق تنتفض عروقى رعباً.. ويرتعد بدنى كله لهول النهاية التى يسوقونها إليها.

منذ ساعتين فقط كانت قد التقت بالأمير الأحمر «سلامة/ كمال ياسين» عندما كانت تزور «عرفات».. حاول أن يغير جلده ويبدو كزائر مثلها.. لكن نظرات الاحترام والانحناءات الخفيفة كانت تدل على مكانته.. لذلك لم يقف

معى سوى دقائق معدودة أخبرته خلالها أننى سأذهب لشرب الشاي فى الدوش فيتا .

ترى.. هل اكتشف هذا الفدائي الذكى سرى..؟

نعم.. انفضح الأمر.. وها أنا الآن فى طريقى إلى ساحة الإعدام.

لكن كيف عرفوا الحقيقة..؟

لم أسأل عن سبب اعتقالى.. أو إلى أين سيأخذوننى.. ولم أجرؤ على التفوه بكلمة واحدة.. لكنك أعلم أن الجالس ورائى يوجه مسدسه نحو قلبى إذا بدرت منى أية بادرة.. أو حركة عضوية قد يفهم منها أننى أنوى القفز من السيارة.

فقط.. انحصر تفكيرى فى شىء واحد.. ألا وهو تحين الفرصة المناسبة للبحث عن كبسولة سم «السيانيد» التى خبأتها بين خصلات شعرى بواسطة دهان لاصق.. فالانتحار أفضل كثيراً من الإعدام لأنه موت اختياري خالص.

كان الأمر شاقاً للغاية.. فحتماً سيكتشف الجنود المدججون بالسلاح أمر كبسولة الموت.. وعندها سيضطرون إلى تكبيل يدي إلى الخلف وتضييع بذلك فرصة الانتحار الوحيدة.

وفى غمرة أفكاري وأحزاني.. اكتشفت أننى تبولت على نفسى دون إدراك منى.. فأحسست بالمهانة والمذلة.. وإذا بالسيارة تخرج بى فجأة إلى الطريق المؤدى إلى شاتيلا.. وعند ذلك سألت نفسى:

- هل أقام الفلسطينيون معتقلات للخونة بداخل المخيمات..؟

وكيف سأنزل من السيارة وملابسى مبللة بهذا الشكل المخزى..؟

وهل سيضحكون من ذلك أم سيتجاهلون لحظة الضعف هذه التى تصيب الخونة قبيل إعدامهم..؟

وعندما كانت غارقة فى بولها واضطرابها.. انطلق صوت أحد الجنود من خلفها يحث السائق على أن يزيد من سرعته لأن الجرحى الذين جىء بهم من

الجنوب كثيرون وحالتهم تحتاج إلى إسعافهم بسرعة.
أفقت مما أنا فيه من هلع وسألت الجندي عن الأمر..
فقال لي:

- هناك مصابين حالتهم حرجة.. من جراء القصف الإسرائيلي على معسكر
فلسطيني بالقرب من مخيم «عين الحلوة» في صيدا.. ونظراً للعجز الكبير في
الأطباء المتطوعين.. دلهم على مكانها مكتب الأمن الفلسطيني^(١).
عند ذلك استجمعت شتات عقلي وصرخت:

- غبي.. غبي.. كلكم أغبياء وتيوس.. أهكذا تستدعون ضيوفكم؟..
أقسم لكم أنني سأشكو إلى الزعيم «عرفات» شخصياً.. هذا التصرف
الهمجي الذي قمتم به حتى أنني أصبت بالهلع و... ولم أستطع إكمال العبارة..
فقد كانوا سيعرفون ما كنت أقصده عندما أغادر السيارة.. ولم أسمع تقريباً
كلمات الاعتذار التي نطقوا بها لأنني شغلت بالبحث عن حل لمشكلتي.. وما إن
توقفت السيارة أمام عيادة مخيم «شاتيلا».. حتى طلبت منهم النزول من السيارة
وإحضار أية ممرضة بالعيادة.. ولما جاءت الممرضة قلت لها:
- أريد ملابس نسائية نظيفة.. وبطانية.

وبوساطة البطانية قامت الممرضة بتغطية زجاج السيارة حيث قمت
باستبدال ملابسي.. ثم فتحت الباب ونزلت وكانت نظرات الجنود الثلاثة تتم
عن إدراكهم التام لما حدث لي.. فقد أحنوا رؤوسهم حتى لا أرى وجوههم
احتراماً لي.. بيد أنني كنت ألتحف بالخجل لأنهم كانوا يقفون بالقرب من
طريقي عندما كنت أصعد درجات سلم العيادة.. وتخيلت ضحكات السخرية
التي سيشيخونني بها وهم يتابعون خطواتي من الخلف.

هذه الواقعة.. لم تسقط أبداً من ذاكرتي.. إذ زرعت لدى شعوراً قاتماً
(١) كان «سلامة» هو الوحيد الذي يعرف مكانها في ذلك الوقت في مقهى الدولشي فيتا.. وهو الذي
دلهم عليها عندما علم بوجود عجز في الأطباء مع كثرة عدد المصابين!!

بالخوف يذكرني بالنهاية المرتقبة في بيروت إذا ما ازدادت ثقة بنفسى وتعاضمت هذه الثقة فاتخيل نفسى جاسوسة عبقرية ذات ذكاء حاد.. تمارس نشاطها بين أناس لهم طبيعة خاصة.. وظروف خاصة أيضاً.. حتى أنهم يشكّون في كل غريب وافد.

لذلك كان علىّ أن أغسل هذا الخوف الملتصق ببدنى والذي تغلّل أعماقى وأنسجتى.. وكانت لدى رغبة كبيرة فى الحصول على جرعات عالية من الهدوء.. والأمان.. والحنكة.. والتعلم.. وما كان ذلك ليتأتى فى إسرائيل.

وقبلما أغادر بيروت التقيت برجل الأعمال «كمال الياسين».. فأخبرته وأنا أبكى.. ما جرى لى مع القوات الفلسطينية التى أشعرتنى بأننى أقاد إلى الإعدام لسبب لا أعرفه.. حتى إننى فقدت السيطرة «بيولوجيا» على نفسى..

كنت أعرف أنه ما حدث لى تفصيلاً سيعرض عليه.. لذلك فضلت أن أقول له بنفسى - كصديق مقرب - ما حدث.. وأصف له معاناتى النفسية لأسلوب اقتيادى اللاإنسانى.. حتى أننى لم أعد بقادرة على البقاء للعمل فى بيروت.. لذلك سأغيب بعض الوقت فى الأردن والنمسا لإنجاز بعض المتعلقات قبلما أعود إلى هنا.

هكذا أنهيت عملى فى لبنان لفترة مؤقتة... واستأذنت فى السفر إلى فيينا لتسجيل اسمى لدى منظمة الطفولة الدولية.. وكنت فى غاية الشوق لشقتى هناك حيث الذكريات الرائعة التى لا تنسى وبمرور الوقت تتأجج وتزداد اشتعالاً وعنفاً...!!

* * *

القسم العشرون في النمسا (٩)

«وعندما وجدته ممدداً إلى جوارى.. تذكرت
تفاصيل سهرة الأمس.. وهذه المرة انتابني
الخجل الشديد.. فعلاقتي العابرة هذه كانت
بعيدة عن مهمتي الأصلية في بيروت.. إنما
كانت نزوة حقيقية..»

٢٠ أيلول / سبتمبر ١٩٧٢

غادرت بيروت إلى فيينا.. وفي شقتي الخاوية عشتش الصمت على كل الأشياء.. وعلى الفراش البارد أهاجتنى الذكريات وضربت عمق وعيى.. فأخذت أطوف بالفرف والأركان أتحنس الأرائك والأدراج وأحذية «موشيه» القديمة.. وقلبت صفحات ألبوماتى وأنفاسى المتلاحقة تبعث الاضطراب والشجن.

جاءتنى «سارة» بعد ساعة من اتصالى بها.. كانت تعمل بأحد معاهد تعليم اللغة الألمانية للأجانب.. وبكيت بلوعة بين أحضانها حتى ظنت أننى سأموت لا محالة.. وعرضت على أن أسافر معها إلى «إنسبروك» لزيارة الأسرة هناك.. حيث يجرع والداها الأسى ويعتصرهما المرار لفقد «موشيه».. فوافقت.

هناك.. رأيتهما فى حالة نفسية سيئة.. ويبدو أننى أردت طمأنتهما عندما تخليت عن أهم قواعد الجاسوسية.. ومعنى السرية المطلقة.. إذ تفاخرت أمامهما بأننى فى بيروت خصيصاً للثأر لموشيه.. وفى كل يوم يسقط عشرات القتلى من الفلسطينيين والعرب بسبب انتقامى دون رحمة بهم أو شفقة.. كما قصصت عليهما الكثير من أسرار عملى فى بيروت.. وما كنت أعلم وقتها أن «سارة» المنخرطة فى حياة المجون وجماعات الهيبيز.. تصادق شاباً فلسطينياً قتل اليهود والده فهام فى بلاد الله الواسعة يتيماً.. بائساً.. متسكعاً.. لا هدف له أو وطن.

بقيت ثلاثة أيام فى «إنسبروك» قبل أن أعود إلى شقتى حيث كنت قد رتبت نفسى للسفر إلى إسرائيل.. ولا أعلم بالضبط ما سبب هذا الشعور المؤلم بالكآبة الذى تمكن منى.. حيث أننى فشلت مرات فى معالجة الباب لارتعاش بدنى منذ أن بدأت أصعد الدرج.

وعندما أضأت الأنوار واجهتنى صورة «موشيه» الكبيرة باللباس العسكرى.. فمسحت زجاج الإطار وقبلته.. وعلقت باقة من زهور الليلاك والبانسيه التى كان يحبها إلى جواره.. لحظتئذ خيل إلى أن ابتسامته الرائعة تفيض بالعتاب.. بل

هى كانت كذلك.. فتذكرت.. يا لغبائى.. كيف دفعته بنفسى إلى نهايته.. عندما ألححت عليه للهجرة إلى إسرائيل.

حاولت أن أستعيد ابتسامته فلم أنجح.. ولحظتها.. ركعت أمامه على ركبتى وأجهشت بالبكاء.. راجية إياه ألا يلومنى أو يغضب منى.. فأنا أنتقم له.. وأخذ بثأره.. ولن أهدأ حتى أشهد بنفسى بحور الدم المراق تعلوها الأشلاء الممزقة.. وأشهد بنفسى ألف امرأة عربية تبكى زوجها.. وألف أم فقدت ابنها.. وألف شاب بلا أطراف.

وعندئذٍ فقط لمحت ابتسامته وقد ارتسمت على وجهه من جديد.. وأحسست كما لو أن يديه كانتا تحيطان بى.

فى هذا اليوم أيضاً انتابنى شعور بالخجل لأننى خنت «موشيه» مع «مارون» و«مانويل».. وتركت نفسى لأفرايم يعبث بى كما يشاء.. ومهما كانت الظروف كان من المحتم ألا أخون.. إلا أننى اضطررت لذلك تحت ضغط ظروف العمل الانتقامى الذى أقوم به.

وفى أحيان كثيرة كنت أتساءل:

- ما خير هذه العلاقات الجنسية طالما سيقربنى ذلك من تكشف أسرار الفلسطينيين الذين يعرفون بلا شك قصة الطائرة الإسرائيلية التى أسقطها السوريون ولم يعلنوا شيئاً عن قائدتها.

كان على أن أنتقم وأنتقم وأنتقم.

انتقم لزوجى الذى اختطفوه منى..

انتقم لعمرى الذى غرق فى أعماق الألم..

انتقم لشبابى الذى يذبل حزناً ويأساً..

ولحياتى التى أفتقدت الأمن والأهل والوطن.

أعيش الآن بلا هدف.. امرأة وحيدة خائفة يتربص بها الموت.. وتقودها

شياطين الفكر السوداوى إلى حيث لا تدرى.

وفجأة خطر لى خاطر.. وقمت فى الحال إلى الهاتف فطلبت شقيقتى «رقية» فى «روما».. ولما جاءنى صوت ابنتها عجزت عن النطق.. وظلت السماعه على أذنى وهى تردد:

- من على الهاتف..؟

فما رددت.. وتكرر الأمر عدة مرات على فترات متباعدة حتى سمعت صوت «رقية».. وبمجرد أن قلت لها: «آلو.. أنا».. حتى انفجرت بى صارخة:

- هذا ليس الرقم الذى تريدين.. من فضلك لا تعاودى الاتصال بنا لاحقاً.

وصدمتتى صفعه وضع السماعه فى وجهى.. فتتابعت أنفاسى واضطرم قلبى.. وقبلما أتهاوى على أقرب مقعد أصبت بما يشبه الطشاش مع دوار عنيف عات فشلت فى التغلب عليه أو إزاحته.

بعد هذه المعاناة النفسية المهلكة لم يكن من السهل البقاء فى الشقة بمفردى لوقت آخر فى تلك الليلة.. لذلك خرجت على عجل إلى شوارع «فيينا» العريضة لا أخشى اصطدامى بأردنى يبحث عنى.. واتجهت إلى أحد الكباريهات حيث سمعت موسيق رقصه «الفالس» التى أحيها «شتراوس».. وهى من أشهر الرقصات الجماعية القديمة فى «النمسا» أيام كانت امبراطورية تضم إليها هنجاريا «المجر».

سهرت فى الكباريه الذى لا أذكر اسمه لوقت طويل.. فشربت ورقصت مع شاب سويسرى يدرس الرسم.. عدت به آخر الليل إلى شقتى متعاشية النظر إلى عيني «موشيه».. أما صديقى فقد علق قائلاً عندما رأى الشريط الأسود على زاوية الإطار:

- خسارة.

فلم أرد.. أو أفتح معه حواراً يتصل بظروف حياتى أو دراستى أو حتى جنسيتى السابقة.. وتركته يخمن بأننى ربما أكون فتاة هندية أو مغربية.

وفى الصباح عندما وجدته ممدداً إلى جوارى فى استغراق تام.. تذكرت تفاصيل سهرة الكباريه وما جرى بيننا فى شقتى.. وهذه المرة انتابنى الخجل الشديد.. فعلاقتى العابرة هذه كانت بعيدة عن مهمتى الأصلية التى أرسلت لأجلها إلى لبنان.. إنما كانت نزوة حقيقية استعدها رغبات جسد يتضور شوقاً للعناق والإرتواء.

فاتجهت إلى صورة «موشيه» وكانت الزهور المعلقة قد بدأت تذبل.. لكننى لم أستطع النظر إلى عينيه.. فوقفت أسفل الإطار أبكى خفيضة الصوت والرأس.. وهمست إليه:

- لا أظن أنك تنكر على لحظات سعادة قليلة يا حبيبى.. فأنا بشر ولست ملاكاً.. ومشاعرى التى أكنها لك أعظم من أن توصف.. ورغبتى الجسدية مجرد نزوة لا صلة لها بالمشاعر الفياضة التى أكنها لك..!

كنت أعرف أنه لن يصدقنى.. فالحب هو الحب.. والخيانة هى الخيانة.. وشتان بينهما.

وجفلت عندما وضع صديقى العابر كفه على كتفى.. ويبدو أنه قرأ وعرف قصتى بمجرد أن لمح دموعى.. وندمى.. وقبلما يفادر الشقة احتضننى من الخلف برقة وقال:

- آسف...!!

هكذا تحاشى النظر إلى وجهى.. وصفق الباب خلفه فى هدوء.. وخرج.. وعندما كنت أرتب الفراش لمحت أسفل الوسادة مبلغاً من المال.. فتناولته باندھاش وكان مائتى شلن نمساوى.

وتذكرت.. واستوعبت.. فصرخت فى جنون:

- سافل.. قدر.. أيعسبنى مومساً أبيع جسدى لأعيش بعدما مات زوجى..!؟

القسم الحادي والعشرون في إسرائيل (٢)

«وصلت إلى بيروت وبين أمتعتي جهاز راديو
لماركة عالية.. هو بالأصل جهاز لاسلكي
يصعب اكتشافه.. إضافة إلى المصحف
الشريف المذهب وقد نزعمت عدة صفحات
منه واستبدلت بصفحات أخرى تحمل
الشفيرة السرية..»

٢١ أيلول / سبتمبر ١٩٧٣:

غادرت «فيينا» صباح أمس إلى «تل أبيب».. حيث ملاذى الأمن الذى أشعر فيه بالأمان بعيداً عن «فيينا» وما قد ألاقه فيها من مفاجآت غير سارة.

حقيقة لم يكن لى فى إسرائيل أى أصدقاء أستطيع التحدث والالتقاء بهم سوى رجال «الموساد».. لكن لا يهم طالما كنت أجد من يسأل عنى ويهتم بى.. فلما فوجئوا بى وقد علتنى مسحة قاتمة من الهم والأرق والإرهاق.. طلبوا منى أن أستريح بفيلتى بعض الوقت.. وحتى لا تنهشنى الوحدة وتزيدنى ضعفاً.. استأذنوا فى أن تقيم معى فتاة يهودية عراقية تدعى «زهيرة».. فوافقت على اقتراحهم.

ولما جاءت رفيقتى التى كانت إحدى العاملات فى الموساد اتضح لى أنها طبيبة نفسية حصلت على شهادتها من إحدى الجامعات الأمريكية.. فسكت على مضض وحاولت الاندماج مع «زهيرة» التى عملت الكثير والكثير لإقناعى بأن ما حدث مجرد حادث عارض ومن الطبيعى أن يحدث.. فإسرائيل محاطة بالأعداء من كل ناحية ولا بد من ضحايا.

وفى فيلتها بمدينة «ريشون لتسيون».. عملت «زهيرة» على تهيئتها للإندماج فى المجتمع الإسرائيلى تمهيداً لاستقرارها النهائى.. بما يعنى الاكتفاء بخدماتها السابقة كعميلة للموساد فى بيروت نظراً لظروفها النفسية التى قد تعرضها للسقوط.. فتخضع إسرائيل لضغوط عديدة وتكون هناك فضيحة دولية.

كانت مهمة زهيرة ألا تفتحها فى قرار إنهاء خدمتها.. فهى ليست منوطة بذلك.. ولكن تنحصر مهمتها فى إذابة جدران العزلة النفسية التى تحيط بآنى موشيه بيراد.. وذلك بدمجها شيئاً فشيئاً باليهود ذوى الجذور العربية.. وخلق محيط اجتماعى موسع حولها يضم نخبة مختارة بعناية من هؤلاء.

هكذا حدثتها رفيقتها عن اليهود العرب الذين هاجروا إلى إسرائيل قادمين

من شتى الأقطار: مصر وسوريا والأردن والمغرب وليبيا والعراق وغيرها.. وكيف استطاع هؤلاء الاندماج مع الجنسيات الأجنبية الأخرى حتى استساغوا العيش في المجتمع الجديد المتحرر الذي لا يعرف الكبت أو القيود مثلما في البلاد العربية التي تعيش حياة البداوة والتخلف.. بدوى المحافظة على التقاليد والموروثات والأعراف.. وهى كلها مسميات لا صلة لها بالحقيقة.. لكنها تؤدي إلى التؤخر والجهل.

حدثتها «زهيرة» كذلك عن المسيحيين العرب الذين فروا إلى إسرائيل طلباً للحرية والأمن.. ومن بين الذين ذكرتهم النقيب طيار «منير روفه» الكاثوليكي العراقي.. الذي فر بطائرته الحربية ميج ٢١ إلى إسرائيل نظراً للاضطهاد الذي طاله في بلاده^(١).. وكذلك جاءت أسرته للعيش معه..

وعندما أبدت «آنى» رغبتها في لقائه.. عرضت «زهيرة» الأمر على رؤسائها فجاءتها الموافقة.. وتم ترتيب اللقاء في منزل «روفه» بين زوجته وأولاده..

كانت «آنى» فى شوق بالغ للقاء الطيار العراقي الهارب.. ليس لأنه عربى مثلها ولكن لتسأله عما يجول بخاطرهما من تساؤلات قد تفيدها معرفة إجاباتها..

وبابتسامة عريضة بباب منزلهما رحب «منير» وزوجته بضيافتهما وقاداها إلى الداخل..

فى ذلك الوقت كان «روفه» فى الثلاثينيات من عمره.. أسمر.. واسع العينين والجبهة غزته مقدمات الصلع، أما زوجته «مريم» فكانت تصفره بنحو خمس سنوات.. طويلة.. خمرية.. ذات شعر انسيابى ناعم طويل.. وقم واسع.. فلجاء.. لها صوت خشن كأغلب العراقيات..

كانت مظاهر الثراء بادية جداً على فيلتهم.. ورغم ذلك جاءت مريم بالشاي والبسكويت بنفسها.. ولما سألتها «أمينة» فى شىء من الحرج عن خادماتها.. أجابتها

(١) فى ١٦ أغسطس ١٩٦٦ هرب «منير روفه» بطائرته الحربية إلى إسرائيل مقابل مليون دولار.. فى عملية مخبرانية تعاونت فيها الاستخبارات المركزية مع الموساد.. وتفاصيل عملية الهروب جاءت بكتابنا: (العملية ٠٠٧ وهروب أول طائفة حربية عربية لإسرائيل، عن مكتبة مدبولي - القاهرة ٢٠٠٢).

«مريم» بأن المجتمع الإسرائيلي مازال بحاجة إلى تطور.. فهو ينظر إلى المرأة التي تجلب خادمة نظرة اتهام بالبرجوازية.. لذلك فهي تقوم بمهام المنزل بنفسها.

أما «منير» فقال رداً على سؤالها عن حياته في إسرائيل.. أنه مر بحياة عصبية في البداية.. حيث كان يجهل اللغة العبرية ولم يكن له عمل أو أصدقاء.. ويتابعه كظله رجلاً أمن في الشارع والبيت.. ثم عمل لبعض الوقت في جيش الدفاع.. لكنه اتجه بعد ذلك إلى العمل الحر حيث أسس وكالة إعلانية كبيرة خاصة بعد اسمها: «الأضواء» بالعربية و«حانوكا» بالعبرية.. وحتى لا تصاب زوجته بالملل فقد أشركها معه في العمل وهي الآن مديرة للعلاقات العامة بالشركة.

بعد ذلك تحدثا في عدة نواح حياتية تتصل بشكل الحياة في إسرائيل.. ثم سأله فجأة:

- وأنت كطيار سابق محترف لم تنس بلاشك معلوماتك عن الطائرات والحوادث التي قد يتعرض لها الطيارون.. فهل لك أن تشرح لي بأمانة وبشكل علمي وتقني: كيف يفشل طيار محترف في القفز إذا أصيبت طائرته في الجو؟ وهل تتحول الطائرة «سكاى هوك» الأمريكية إلى مقبرة لقائدها قبلما تنهاوى..؟

كانت تريد الحصول على إجابات محددة ومنطقية يستفيد منها العقل.. فربما استمرت في التعلق بأمل عودة زوجها ثانية.. أو نسيان الأمر نهائياً بما يعنى عدم التفكير في إمكانية وجوده حياً في بقعة ما.. وربما في السجون السورية.

إن الإجابات التي حصلت عليها من ضباط «الموساد» مبهمة ولا تحمل نفيّاً تاماً أو تأكيداً يرسخ الأمل.. وكان هذا ما يحيرها ويهرق عقلها.

ولما شرع «روفه» في الإجابة انتبهت كل حواسها لشروحه المستفيضة.. وأوضح لها أن الطائرة التي كان يقودها زوجها - وهي "Sky Hawk- 4H" اعتمد تصميمها على حماية الطيار.. فكرس القائد وهو من طراز «أسكاباك A- C3» الذي يمكن إطلاقه عند الضرورة القصوى من ارتفاع الصفر وبسرعة

الصفير أيضاً.

أما كابينة القيادة فهي مدرعة تدريباً جيداً في المقدمة والمؤخرة والجانب الأيسر.. وسمك التدريع حوالى ١٨مم بما يوفر الحماية اللازمة للطيار.

وبعد شروح طويلة قال إن زوجها إما أصيبت طائرته بصاروخ «سام ٦».. وفى هذه الحالة إما أن يكون أسيراً لدى السوريين.. أو أن صاروخاً من طراز Atoll - جور جو أصاب كابينة قيادته الفقاعية فانفجرت به الطائرة فى الجو لأن الصاروخ أسرع بالطبع من اندفاع الكرسى القاذف.

هذه الإجابات الأكثر وضوحاً وشروحاً.. تعطى ذات الإجابات التى سمعتها من قبل.. فلا هو أوضح نافياً أو مؤكداً.. وبقي السؤال كما هو:

- هل «موشيه بيراد» ما يزال حياً فى قبضة السوريين؟

- هل انفجرت به الطائرة فى الجو.

لكن فى الحالة الثانية كان لابد أن يعثر السوريون على بعض أشلائه.. ومن ثم يعلنوا الخبر وهم يذيعون نبأ إسقاط الطائرة.

وهذا ما لم يحدث حتى بعد عثورهم على أجزاء الطائرة التى تناثرت على مساحة ٥٠ كيلو متراً مربعاً!

وبعد هذا اللقاء المثير.. عادت أمينة إلى فيلتها أكثر قلقاً.. وغضباً.. يحفها الإصرار على الذهاب إلى بيروت بدافع الانتقام والتأر لزوجها.

لكن صدمتها كانت أشد مرارة وقسوة.. عندما زارها مسؤول بالموساد.. قال لها بعد حديث طويل عن فدائيتها وإخلاصها للعمل فى لبنان:

- سيدتى.. بعد هذا العناء الكبير الذى قمت به فى لبنان وسوريا.. يرى

رؤسائى فى الجهاز أنه من الواجب العمل على إراحتك.. وحمايتك.. لذلك جئت

إليك لأعرض رغبتهم فى الوقوف على ما تريدينه.. ولأطلعك أيضاً على عرض

العمل الجديد الذى اخترناه لك.. وهو بلا شك عمل رائع ومثير ويناسب مع...

قاطعته «أنى» لاهثة:

- أكاد لا أفهم شيئاً.. أتقصدون إنهاء عملى فى بيروت؟

وجاء رده أكثر حسماً:

- وفى الموساد سيدتى...!!

وتقديراً لجهودك سوف تحصلين على..

لم تتركه «أنى» يكمل جملته.. إذ انطلقت بكل الغضب الكامن بأعماقها تقول:

- لن أقبل أبداً.. لن أقبل ذلك يا سيدى مهما كان الثمن الذى تعرضونه..

فأنا ما جئت لإسرائيل هذه المرة إلا لأنتى اهتززت قليلاً أمام موقف استدعائى الفجائى فى بيروت.

إن الأسلوب المرعب الذى تعاملوا به معى أشعرنى بأن أمرى قد كشف.. نعم.. ولا أنكر أننى بحثت عن كبسولة الموت لابتلعها.. لكننى كنت قد خبأتها جيداً فى شعرى ولو كنت عثرت عليها لتناولتها فى الحال.

فلماذا لا تقدرون هذا التصرف من امرأة غير مدربة على مثل هذه الأمور.. لقد علمتمونى فى «فيينا» أشياء كثيرة عن الحس الأمنى والتمويه والتشفير وتدريبات الذاكرة وخلافه.. لكنكم لم تعدوننى لمواجهة مثل هذه المواقف الصعبة.. تاركين لى حرية التصرف حسبما يتراءى لى وقتها.

وأضافت أمينة وقد تبلل وجهها توتراً:

- إننى لم أدرب جيداً يا سيدى حتى فى مواجهة المحققين إذا ما تم سقوطى وكأن احتمال سقوطى شبه مستحيل..! فلماذا تستفنون عن خدماتى لكم بمثل هذه السهولة؟ ألا تعرفون أننى فرصة ذهبية لكم.. لقد دخلت مكتب «عرفات» وجلس على مائدتى «على حسن سلامة».. الذى تطاردونه فى كل الدنيا.. وتجولت فى مخيمات اللاجئين وجئتمكم بالكثير من أخبار المقاومة التى تهدد مستعمراتكم فى الشمال.. كذلك أطلعتمكم على أشياء كثيرة كانت خافية عليكم..

كل ذلك دون أن أقبض منكم سوى ألفى دولار.. فهل نسيتم ذلك؟..
وهل نسيتم أنني خلعت ملابسي ووهبت جسدي للوصول إلى ما أريده لأجل
إسرائيل؟..

هتف الرجل:

- أرجو أن...

صرخت أمينة وهي تكاد تبكي تأثراً وأشارت إليه ليستكت فيما أكملت هي:

- هل تستطيع أن تؤكد لي أن أحد عملائكم جلس وتحدث إلى «سلامة»؟

وهل وصف لك أحدهم مبنى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من الداخل؟
أما أنا فقد التقيت بعرفات ومنحني تصريحاً بالتحرك ودخول شتى
مخيمات اللاجئين والمؤسسات الفلسطينية.. كذلك التقيت والتقى بسلامة
مرتين أسبوعياً.

وبواسطة جسدي هذا - «رفعت عباؤها فكشفت عن عورتها حتى لقرب
صدرها» - جئتم بالتليفونات السرية للقيادة الفلسطينية ليتنصت جواسيسكم
هناك عليها.

وقالت وهي تنتحب وينتفض بدنها في انفعال:

- لقد خلعت ثيابي لكل كلب نتن الرائحة وجعلته ينتهك جسدي لأجلب لكم
الأسرار.. والوثائق.. والمعلومات.. وفي النهاية تقولون لي ببساطة: شكراً!!؟..
أجهشت بالبكاء فيما قال الرجل وهو يفرك يديه خجلاً:

- سيدة «آنى».. نحن ما فكرنا إلا بحمايتك.. فسقوطك في لبنان فضيحة
كبيرة وصفعة شرسة لنا ستضر كثيراً بسمعتنا.. وفي الوقت نفسه ستربك باقى
رجالنا المنتشرون في كل مكان.. لذلك كان الرأي الذي استقر عليه خبراؤنا هو
ضرورة إنهاء مهمتك في لبنان - على الأقل في الوقت الحاضر - ثم يعاد بحث

الأمر فى أقرب وقت.

قالت «آنى» التى كان ترتجف حنفا وقد امتقع لونها واكفهر الوجه الجميل المستدير وقد غشاه اصفرار واضح:

- هل تستطيع أن تجيبنى يا سيدى وتقول لى: لماذا أنا فى إسرائيل الآن؟.. لأننى كنت لا أجد مأوى عند أهلى فى عمان ١٩٠٠ أم لأننى أحببت يهودياً وتزوجته ١٩٠٠

إن فيلتنا فى الأردن أجمل بكثير من هذه الفيلا.. وكان لى قريب مليونير يطاردنى ليتزوجنى.. ولا أقول ذلك لإحساس بالندم.. لا.. فأنا بعث كل شىء من أجل «زوجى» بعث وطنى وأهلى ودينى لأكون معه.

ولأنه مات على أيدى العرب.. فلن أكف عن الثأر لزوجى.. فلماذا تحرموننى من تحقيق رغبتى بالعمل لصالحكم؟..

أجاب:

- الأمر ليس كما تعتقدين سيدة «آنى».

ردت أمينة بصوت كفحيح الأفعى ينفث الغضب والكراهية كالسم:

- أبلغ رؤسائك أننى قررت ألا أتوقف أبداً.. حتى ولو أدى الأمر لأن أغادر إسرائيل إلى الأبد.. وعندها قد أفكر بعملية انتحارية داخل مكتب عرفات شخصياً.

انزعج الرجل وأسرع فى إنهاء زيارته.. وبلهجة الصدق والإصرار والغضب فى صوته.. كان لابد من إيجاد حل.. وإلا فهناك كارثة قد تقع.. وفى الحال صدرت الأوامر للمطار بمنع «آنى موشيه بيراد» من مغادرة البلاد.

بشارع كيريا فى تل أبيب حيث يقع مقر الموساد.. اجتمع عدد من الخبراء للوصول إلى قرار حاسم بشأن العملية المتمردة.. فإما عودتها إلى بيروت بعد خضوعها لعدة تدريبات أمنية.. أو التكتفاء بخدماتها وإبقائها فى إسرائيل.

كانوا جميعاً قد قرأوا تقريراً وافياً عن «آنى موشيه».. والتى تم تصنيفها ضمن الفئة "A".. وهذه الفئة من العملاء يندرج تحتها كل من يعملون فى

البلاد العربية بدون أى غطاء دبلوماسى يحميهم.. وكان ضمن هذه الفئة «إبلى كوهين» الذى أعدم فى دمشق فى ١٨ مايو ١٩٦٥.. وكذلك «فولفجانج لوتز» فى مصر الذى تم اعتقاله فى نفس الفترة تقريباً ونال حكماً بالحبس بعدما أكد للمحكمة أنه غير يهودى وكشف عورته للقضاة ليؤكد أنه لم يختن كاليهود.

وصف التقرير «أنى موشيه» بأنها تعاني من اضطرابات شخصية.. وتمتلك القدرة التى تمكنها من الانتقال من أحد جوانب الموقف إلى جانب آخر.. وهو ما يعرف فى علم النفس بـ «الاتجاه المجرد» Astract Attitude.. وتتنامى لديها أعراض الكآبة نتيجة لومها الدائم لنفسها.. باعتبار أن ما حدث لزوجها كانت هى السبب فيه.. وعندما تزداد الأعراض حدة تصبح أكثر اكتئاباً وتخوماً.. مما ينمى لديها مشاعر «اتهام الذات» Self - Condemnation.. والمريض فى هذه الحالة فى يأس خطير لأنه مهموم بالماضى.. ويحس أن لا أمل البتة فى المستقبل بسبب الفعل التى ارتكبها.

هذه المشاعر القلقة المحملة باليأس والألم والمعاناة.. عادة ما تعتصر المريض.. وقد تقوى عنده الرغبة فى الانتحار.

وأشار التقرير إلى أن حالة «أنى» هذه لا ينصح فيها بعلاج عقاقيرى.. حيث لن تنتظر التحسن طوال مدة العلاج بقدر ما تشعر بالتحسن والهدوء فى عملها بالموساد.. ففى ذلك إقناع لها على أن ما تؤديه من عمل.. يمثل قمة الثأر انتقاماً لموت «موشيه» الذى ترسخ لديها أنها كانت السبب فيه.

وبناءً على هذا التحليل رأى فريق من خبراء «الموساد» أن «أنى» ربما تشعر بالزهو Elation فى عملها.. فتتخلى عن حسها الأمنى وتتكشف.. فى حين رأت الغالبية منهم أنها جديرة بالعمل فى بيروت على أن تنال دورات تدريبية مكثفة.. فعند ذلك ستكون أكثر حذراً.. وإقبالاً.. ومهارة..!

وانتهى الاجتماع بالموافقة على عودتها إلى لبنان.

كانوا قبل ذلك قد جاءوا إلى المبنى المركزى.. حيث جلس إليها أحد كبار

الرسامين في «الموساد».. ومن خلال وصفها للأمير الأحمر «على حسن سلامة» رسم صوراً تقريبية له.. ثم تعهد بها اثنان من الخبراء فقاموا باستجوابها وسؤالها عن كل ما يتصل بسلامة: حرسه.. ملابسه.. مشيته.. لفتاته.. لون شعره.. طريقته في الكلام... و... إلخ.

وبعد اختيارها للعودة مجدداً إلى بيروت.. أخضعت لدورة تدريبية تعلمت أثناءها استعمال أحدث ما ابتكره العلم في مجال أجهزة اللاسلكي.. وبعد نجاحها الباهر تقرر أن تبث رسائلها في أوقات معينة كل أسبوع. وفي الثالث من أكتوبر غادرت «تل أبيب» إلى «فيينا» وفي اليوم نفسه حجزت تذكرة على الطائرة المتجهة إلى «بيروت» بعد عدة ساعات.

تقول «أمينة داود المفتي»:

- هذه المرة عندما دخلت شقتي في «فيينا» لأمكث بها عدة ساعات.. لاحظت أن ابتسامه «موشيه» أكثر إشراقاً وبهجة واطمئناناً مما كانت عليه من قبل.. كأنما كان يبارك خطواتي المستقبلية في بيروت.

وقبيل مغادرة الشقة بيضع ثوان.. انتفضت فجأة عندما رن جرس الهاتف.. وتسمرت مكاني للحظة.. ثم اتجهت صوب الكابل فنزعته.. وانطلقت أغادر الشقة بى شوق جارف إلى العمل.. وبين أمتعتي كنت أحمل جهاز راديو لماركة عالمية معروفة.. هو بالأصل جهاز لاسلكي أكثر تطوراً ولا يمكن اكتشافه.. وبحقيبة يدي كنت أحتفظ بالمصحف الشريف المذهب.. وقد نزعتم عدة صفحات منه واستبدلت بصفحات أخرى تحمل الشيفرة السرية التي سأستخدمها في بث وتلقى الرسائل المبنوثة..

القسم الثاني والعشرون في لبنان (٣)

«كنت أول جاسوس للموساد يحمل جهازاً
لاسلكياً متنقلاً داخل بلد عربي.. وهي جراحة لم
تكن لدى «إيلي كوهين» أشهر جاسوس زرع في
سوريا قبل سنوات.. ولم يفعلها أيضاً «فاروق
الفي» المقدم في الجيش المصري.. وذلك لأنني
كنت أجراً هؤلاء جميعاً.. مدفوعة برغبة مجنونة
في الانتقام والثأر.. وليس طلباً للمال..»

٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣:

صباح اليوم، من أمس - الثلاثاء - وصلت إلى بيروت.. وعندما كنت اتجه إلى حيث يتحرك سير الحقائق بالمطار.. صدمت بشدة لمشهد شاب عربي يقتاده رجال الأمن.. لفت انتباهي هذا الأمر وقلت في نفسي:

- هل هو جاسوس يحمل أوراقاً ثبوتية مزورة..؟

أم هو مهرب خطير يتبع إحدى المنظمات العالمية..؟

أسئلة عديدة أخرى دارت برأسي.. وكدت أنهار عندما فوجئت بيد قوية تربت على كتفي من الخلف.. وعند ذلك صدرت عني صرخة مكبوتة هلوعة.. وسقطت في الحال حقيبة يدي على الأرض وأوشكت أنا أيضاً على السقوط معها.. وعملاً بما تعلمته في إسرائيل تماسكت.. واستدرت لأصطدم بوجه صديقي «مارون الحايك» تغطي وجهه نظارته الشمسية السوداء.. وينسدل شعره اللامع الناعم لقرب كتفيه.

استغرق هذا المشهد الأليم أقل من عشر ثوان.. فاستدعيت في الحال ابتسامة باهتة وتنفست الصعداء وأنا أود أن أصفعه بقوة على وجهه.. وأظل هكذا أصفعه حتى ينقشع الخوف الذي حل بأعماقي من جديد.. حيث أنه - هذا الغبي - أرجعني كثيراً إلى الوراء.. إلى تلك اللحظات المرعبة التي غادرت بيروت بسببها إلى النمسا ثم لإسرائيل.

وفي بشاشة مصطنعة سألته:

- أوه.. أيها الماكر.. أكنت معي على اللوفتهانزا قادماً من فيينا..؟

خلع نظارته مبتسماً وهو يضغط على كتفي ضغطاً ذا مغزى وأجاب في خبث:

- بحثت كثيراً عنك في بيروت فلم أجذك.. لقد كنت أمني نفسي بأن نمضي معاً أسبوعاً خيالياً في نيقوسيا.

قلت بدهشة:

- نيقوسيا..؟

وأخذت أضربه على صدره بلطف مفتعلة التحسر وأنا أردد:

- مجنون.. مجنون يا «مارون»!! لماذا لم تخبرنى قبلها بوقت كاف؟! كم كنت مشوقة لرحلة كهذه معك.

غمز بطرف عينه ضاحكاً وقال:

سنتدبر الأمر عما قريب أيتها الأنثى الشقية.. انظري.. هاهى حقائبي وصلت الآن.. سأراك عما قريب فى بيروت..!!

ولأن لبنان بلد سياحي حر.. فأمور التفتيش والتدقيق فى المطارات والموانئ شكلية جداً.. ولا تخضع بالمرة لرقابة صارمة كما فى سائر البلدان العربية.. على اعتبار أن التدقيق الزائد يسئ إلى السواح الذين هم عماد الاقتصاد وأحد أهم أسباب الرخاء فى لبنان.

لذلك.. لم ينتبه رجال الجمارك لجهاز اللاسلكى المدسوس بحقيبتى.. ففى تلك الفترة كانت بيروت فى أوج انفتاحها.. وسوقاً رائجة لتجارة السلاح.. والمخدرات.. والرقيق الأبيض.. والجواسيس..!

كنت فى غاية النشاط.. واستطعت جمع بعض المعلومات التى تهم الموساد.. وصباح اليوم - الخميس - أطلقت أولى إشارات البث اللاسلكى إلى إسرائيل.. وبعثت بهذه الرسالة الهامة:

وصلت بسلام.. سمو الأمير «الأحمر» فى أوروبا.. تعرفت بضابط فلسطينى يدعى «أبو ناصر».. مارون فى قبرص ووعدنى بأن يأخذنى معه إلى غرفة الاستماع بمبنى الهاتف المركزى.. حبس غادر إلى تونس سراً.. رجاله يقتلون سبعة من أتباع حواتمة.. أبو عمار بالبيت مصاباً بالبرد.. وصلت شحنة أدوية رومانيا.. يوجد نقص كبير من «الأنثى بيوتك» تحياتى.. "R.Q.R - 3301".

لا أحد يدري كيف استقت «أمنية» معلوماتها الهامة هذه التي تمكنت خلال ساعات من وصولها إلى بيروت من جمعها.. وفي ذات الوقت استقبلت الموساد رسالة «أمنية/ آنى» بشيء من الاطمئنان والفرح.. فالرسالة كانت واضحة الشيفرة وبلا أخطاء تذكر.. كما أن الأخبار التي بثتها كانت على درجة عالية من الخطورة والأهمية.. مما استدعى دخولها إلى غرفة التحليل والمتابعة على الفور.

وسرعان ما تسلمت «أمنية/ آن» أول رسالة بثت إليها من تل أبيب وجاء فيها:

- تهانينا بالوصول بسلام.. وصلت رسالتك سليمة من الأخطاء.. اهتمى بتحركات الأمير.. أبو ناصر خبيث جداً فاحذريه.. لا تهتمى بمارون الآن.. من «يطبب» أبو عمار «عرفات».. ماذا ببطن الباخرة «كيفين» فى صيدا.. نريد معلومات عن مخازن الأسلحة والذخيرة بمخيم «البدوى» فى طرابلس.. وكذا مراكز التدريب فى قلعة «الشقيف»^(١).

٩ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣:

بينما تهيأت للعمل بنشاط أكبر وتحركات أوسع.. انطلقت شرارة حرب السادس من تشرين الأول.. وعبر المصريون القناة ودمروا خط بارليف المنيع.. ففرقت بيروت فى مظاهرات الفرح.. بينما أصبت أنا بانهيار حاد.. وبعثت برسالة إلى تل أبيب:

«ماذا جرى.. هل أصدق ما أسمعه وأراه عبر شاشات التلفاز..؟ أم أن ذلك مجرد أضغاث أحلام..؟».

وجاءنى الرد بأسرع ما يمكن:

- لا يجب أن تكون هذه الأحداث مصدر قلق لك.. نريد معلومات أكثر عما

(١) قلعة قديمة فى جنوب لبنان.. كان القائد صلاح الدين الأيوبي قد حررها من الصليبيين.. وانطلق منها إلى معركة «حطين» التاريخية فى عام ١١٧٨م لتحرير القدس وفلسطين من الاحتلال الأوروبى الصليبي الذى دام ٩٠ عاماً.

يجرى فى لبنان .

فكثفت من عملى كطبيبة عربية متطوعة تجوب أنحاء لبنان من الشمال إلى الجنوب .. يساعدننى فى ذلك التصريح الذى منحه لى «أبو عمار» .. حيث كنت أزور المناطق المحظورة أحياناً بدعوى الفحص الطبى للمقاتلين .. وذلك خوفاً من وجود أمراض معدية أو أوثبة خبيثة .. وكان مجرد ذكر ذلك يفتح لى شتى الأماكن والمواقع التى لا يدخلها مطلقاً أى مدنى .

كان القذائيون قد ابتهجوا بعبور القناة وموقف إسرائيل العسكرى الصعب .. وانتابهم حلم الانتصار وإزالة دولة إسرائيل من الوجود .. فأرادوا المشاركة فى هذا العمل الذى سيسجله التاريخ .. لذلك كثفوا من عملياتهم الفدائية فى جنوب لبنان وهددوا شمال إسرائيل .

قد شحنهم انتصار الجيوش العربية فازدادوا استبسالاً وضراوة .. واستغل «سلامة» انشغال إسرائيل فى سيناء والجولان .. وخطط لعمليات انتقامية وعسكرية واسعة أربكت إسرائيل المنهارة معنوياً وعسكرياً .. ذلك لأن المفاجأة كانت مستحكمة وقاتلة .. وصدمة العبور كانت بمثابة اللطمة التى تصيب بالدوار والترنح .

استغل «سلامة» ذلك أحسن استغلال .. فقد كان يعلم أن إسرائيل فقدت السيطرة على نفسها .. وعلى اتزانها .. وتركت الضربات العربية القوية والفجائية آثارها الواضحة على تصرفاتها وتخبطها أمام جبهتين عربيتين .. وضربات موجعة ومؤثرة إلى حد كبير تجىء من الشمال .

وجاءتنى رسالة بمثابة الصراخ :

- افعلنى كل ما بوسعك لإعلامنا بتحركات رجال المقاومة فى جنوب لبنان .. من حيث أعدادهم .. والأسلحة التى لديهم .. وخطط عملياتهم والمواقع التى ينوون ضربها .

لكن كيف لى أن أتحرك بحرية فى الجنوب وسط المئات من رجال المقاومة الذين يرتادون الممرات الجبلية والمدقات ويختبئون فى الرمال كفئران الصحراء ؟

٢٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣

مع الضربات المتتالية التي يقوم بها شباب المقاومة.. تركت بيروت إلى صور بواسطة سيارتي المستأجرة ماركة «لاند روفر» Land Rover.. ومعنى جهاز اللاسلكى الذى يشبه الراديو لذلك كان من الصعب اكتشافه.

فى صور اتجهت جنوباً إلى مخيم «الرشيدية» الذى يعد أقرب وأكبر المخيمات الفلسطينية إلى حدود إسرائيل الشمالية.. وهناك قابلت المسئول الصحى حيث قدمت إليه أوراقى وتوصية «ياسر عرفات».. فرحب بى الرجل وأوصلنى بنفسه إلى عيادة المخيم وهو يشكر لى فضل اهتمامى كمتطوعة عربية مخلصه.

ومن خلال عملى وتحركاتى الدائمة فى الجنوب.. حصلت على أسرار لا تقدر بهال عن تحركات الفدائيين وتنظيماتهم.. هؤلاء الذين وثقوا بى حتى أنهم تحدثوا معى وأمامى عن خططهم لضرب الشمال الإسرائيلى.. فعكفت على بث رسائل اللاسلكية يومياً من أماكن مختلفة.. والتي وصلت فى أحيان كثيرة إلى خمس رسائل قد تهدد حياتى للخطر وتضع حداً لحياتى.. مما اضطر الموساد إلى فتح جهاز الاستقبال على التردد المتفق عليه لساعات طويلة على مدار اليوم لتلقى رسائلنى.

لقد كان عملى انتقاماً فعلياً لما حل بى.. حيث كنت أفرغ شحنات غضبى فى رسائل يومية مبنوثة قد تعرضنى للانكشاف والسقوط.. لكننى كنت قد تزودت بالجرأة ولم أعد أسمع لنداءات الخوف أبداً.. إذ اندفعت بحماس مذهل إلى مواقع الفدائيين فى الجنوب بحجة تطبيبهم.. وكنت أحمل جهاز اللاسلكى فى سيارتى التى يعلوها الهوائى الصغير.

وفى إحدى جولاتى بمنطقة «بنت جبيل» على مساحة خمسة كيلو مترات تقريباً من الحدود الإسرائيلية.. فوجئت ببعض زعماء منظمة التحرير بينهم الرجل الثانى فى المنظمة: «أبو إياد».. حيث كانوا يتفقدون جبهة القتال ويخطبون فى الجنود فيثيرون حماسهم.

كنت لحظتها أرتدى الملابس الطبية.. ورمقني «أبو إياد» بنظرات نارية لا تغلو من الامتتان والتساؤل في ذات الوقت.. ولما أشار إليّ أن أقترّب رميت مخاوفي وفي جراءة اتجهت إليه وسألني:

- فلسطينية..؟

قلت في سرعة:

- أنا طبيبة أردنية متطوعة..!

ولما لمحت في عينيه التساؤل المتوقع عن سبب تواجدي بهذه المنطقة العسكرية.. أردفت على الفور:

- ومنحني القائد «أبو عمار» تصريحاً بالمرور على عيادات المخيمات ومتابعة علاج الفدائيين.

فسكت ولم يرد.. وبينما انهمك في التحدث مع قيادات المقاومة.. انسحبت بعيداً ثم قدت سيارتي حتى مدخل أحد الكهوف وفتحت جهاز اللاسلكي بعدما قمت بتحويل رسالتي إلى وضع الشيفرة في سرعة فائقة.. وبعثت عدة جمل إلى تل أبيب تحمل مفاجأة لهم:

- «عاجل جداً وهام.. للعرض على أعلى المستويات.. أبو إياد^(١) وقيادات هامة يزورون بيت جبيل.. الموقع مائة وخمسون متراً شرقاً التبة بجوار فنتاس المياه الأخضر.. بين شجري الصنوبر مباشرة.. اضربوا الموقع كله الآن في

(١) أبو إياد «صلاح خلف»: ولد عام ١٩٣٣ في يافا.. وهرب مع أسرته إلى غزة قبل يوم واحد من إعلان دولة إسرائيل، تعلم الفلسفة في كلية التربية جامعة القاهرة والتقى بياسر عرفات وصارا من يومها حليفين لا ينفصلان.. عاش أبو إياد حياة ثوري متجول.. مهدد باستمرار.. فقد انفصل عن عائلته التي تقيم في ضواحي القاهرة وتفرغ للقضية الفلسطينية.. حتى إنه لا يرى زوجته وأولاده الستة (ثلاث فتيات وثلاثة فتيان) إلا نادراً جداً.. وكان دائم الشوق لابنته جيهان المصابة بشلل الأطفال.

كان أبو إياد الرجل الثاني بعد عرفات.. قاد تنظيم أيلول الأسود الجناح العسكري للمخابرات الفلسطينية التي كان قائداً لها أيضاً.. وخطط لسياسة المنظمة داخلياً وخارجياً، وبعد غزو صدام للكويت أيد عرفات عملية الغزو فيما عارض أبو إياد معلناً رايه على الملأ.. وفي ١٤ يناير ١٩٩١ =

الحال.. دمروا السيارات الجيب والليموزين.. سأكون على بعد معقول منهم عند الكهف.. سأفتح الجهاز لأربع دقائق فقط لاستقبال ردكم.. R.Q.R- 3301».

وقبل انتهاء المهلة بثوان معدودة جاءنى الرد:

- «ابتعدى عن الرتل.. انبطحى أرضاً داخل الكهف عند ظهور الطائرات.. نريد معرفة النتائج والخسائر بعد انتهاء القصف.. خاصة ما أصاب أبو إياد».

بعدما ترجمت الرسالة وقفت أنتظر وصول الطائرات ووقوع المجزرة.. لكن يا للحظ السيء.. لعبد القدر لعبته وتحرك رتل القادة بعيداً عن الموقع لأغرق فى الحسرة.. وأخذت أقلب عيني فى السماء الصافية بانتظار الطائرات.. لكن لا شئ يأتى.. خمس دقائق تمر.. عشر دقائق.. عشرون.. ولما نهشنى الانتظار القاتل فتحت جهاز اللاسلكى من جديد:

- تحرك الهدف فى سبع سيارات إلى الشمال طريق تيبنين منذ (٢٥) دقيقة.. سيارة أبو إياد رقم (٢) فى الترتيب وهى سوبارو سوداء.

بعثت بالرسالة فى اللحظة التى لمحت فيها طائرتا ميراج تطلقان صواريخ «السيدوندر» والقنابل زنة الألف رطل.. ثم عادتا وارتفعتا إلى عنان السماء وعاودتا الانقضاض من جديد.. وهذه المرة بفتح خزانات النابالم الحارقة.

حدث كل شئ خلال دقائق معدودة.. كنت خلالها منبطحة أرضاً قرب مدخل الكهف.. ولم يمنعنى ذلك من مراقبة المشهد.. حيث رأيت الأجساد البشرية تتناثر كالشظايا فى الهواء.. واكتشفت أننى كنت أضحك فى هستيريا مجنونة مشبعة بالحسرة والشماتة.. حسرة انعناق «أبو إياد» ورفاقه.. وشماتة فى هؤلاء الذين امتزجت بقاياهم بالتراب.. والدم.. والسلاح..!

هكذا كنت أحمل بحقيبتى جهاز اللاسلكى الصغير خلال تجوالى فى جنوب لبنان خلال حرب تشرين الأول.. وبواسطة كابل كهربائى طويل متصل بالبطارية.. كنت أبث الرسائل أولاً بأول إلى إسرائيل.. فى ذات الوقت الذى كنت

= قام حمزة أبو زيد الحارس الشخصى لأبى الهول رئيس مخابرات فتح باغتياله فى تونس.. وقيل أن صدام أمر بقتله لانتقاده سياسته.. وكان ذلك بواسطة صبرى البنا «أبو نضال» قائد تنظيم فتح الثورى المنشق الذى قتله صدام فى أغسطس ٢٠٠٢ ليموت السر معه.

أعالج فيه المصابين. وانتقل بين المستشفيات العسكرية والميدانية هنا وهناك فأعطى الدواء وأجلب الأسرار.

٤ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٧٣:

كنت أول جاسوس للموساد ويحمل جهازاً لاسلكياً متنقلاً داخل بلد عربى.. وهى جراءة لم تكن لدى «إيلى كوهين» أشهر عملاء إسرائيل الذى زرع فى سوريا قبل سنوات.. برغم تجواله بين الوحدات العسكرية فى الجولان.

لم يفعلها أيضاً المقدم فى الجيش المصرى «فاروق الفتى».. وهو ضابط فى الاستخبارات العسكرية جندته عميلة الموساد «هبة سليم عامر».. كذلك لم تفعلها «إنشراح موسى» فى مصر التى عملت لصالح إسرائيل هى وزوجها وأولادها.. وكانوا يزورون منطقة القناة مع زوجها بحثاً عن الجديد من الأسرار^(١).

لكننى كنت أجراهم جميعاً قلباً وقالباً.. مدفوعة برغبة مجنونة فى الانتقام والثأر.. لا برغبة المغامرة والحصول على المال.

فمنذ أن حملت معى جهاز اللاسلكى لأول مرة إلى الجنوب.. لم أعرف الخوف للحظة واحدة.. وعندما شاهدت بنفسى هجوم الميراج على الموقع الفلسطينى بفرض تدميره وتصفية أبى إياد.. تملكنى شعور رائع بالزهو وجدت فيه لذة لا تدانيها لذة.. ومنذ تلك الحادثة وأنا أحرص على أن يكون الجهاز اللاسلكى معى.. بجواره المصحف ذو الجراب والشيفرة.

كنت أكتب رسالتى أولاً على ورقة منزوعة من بلوك نوت.. ثم أوقف سيارتى فى مكان اطمئن فيه من فضول العابرين.. وأسحب هوائى الجهاز بعدما اطمئن على عمل الدائرة الكهربائية.. وأقوم بالبث لدقائق، وفى أحوال محدودة كنت أبث الرسالة مرتين لتأكيدهما وأحرق الورقة وأتحرك فى الحال إلى مكان آخر.

وبفضل تصريح المرور الموثق الذى وقعته «عرفات» كنت أجوب بأمان شتى المواقع

(١) يبدو أن أمينة الفتى كتبت اسمى فاروق الفتى وإنشراح فيما بعد.. ذلك لأنهما اعتقلا فى مصر قبيل وخلال حرب أكتوبر ولم يدع أمرهما إلا بعدها بسنوات..!

بما فيها العسكرية.. فأطلع بنفسى على أنواع الأسلحة وكميات الذخائر التقريبية بالمستودعات الأمامية.. وحالفنى الحظ كثيراً عندما وثق بى القادة الفلسطينيين لأننى كنت أبـدو متحمسة جداً لقضيتهم وحققهم فى الكفاح لاسترداد الأرض المفتصة.. للدرجة التى دعت «أبى إياد» لأن يطلب منى إلقاء خطبة حماسية فى المقاتلين المعسكرين بالقرب من مخيم البرج الشمالى جنوبى «صور».

يومئذ - وكان أبو إياد قد جاء من القاهرة قبل أيام وذلك بعدما حضر أياماً من تشرين الأول هناك - ألقىت خطبة رائعة تتدفق منها الوطنية ومعانى الكفاح والعروبة.. لقد أجدت تماماً عندما صعدت من انفعالى فبكيت.. نعم بكيت وأنا أصف مشاهد القصف والقتل والإنكسار على وجوه الأطفال اليتامى.. بكيت حقيقة وأنا أحثهم على الإنتقام والثأر والجهاد.. وفى داخلى تعجبت:

- هل كنت أبكى «موشيه» الحبيب ولازالت تزلزلنى الثورة المصطخبة بالفضب فى أوردتى وشرابىنى. ونبضى..؟

أم كنت أعيش لحظة صدق حقيقية مع نفسى..؟

ترى لأيهما كنت أبكى..؟

إلا أن المؤكد أننى كنت أكره هؤلاء الأوغاد الذين زرعوا البرودة فى حياتى.. والأمن.. فأذلونى.. وأترعونى كؤوس الوحدة والصمت..!

كان انفعالى عجيباً.. ومؤثراً.. وظن القادة والجنود أنه إيمان منى بقضيتهم.. فأدمعت عيون البعض.. مثلى.. ولما بحثت عن منديل بحقيبتى اصطدمت يدى بجهاز اللاسلكى..!!

بعد إعلان وقف إطلاق النار انعقد مؤتمر القمة العربية فى الجزائر.. وتم التوصل إلى قرار بأن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى.. وكذا موافقة سوريا ومصر - دولتا المواجهة - على قرار مجلس الأمن ٢٢٨ الذى ينص على عودة السلام الدائم والعدل فى الشرق الأوسط.

رفضت منظمة التحرير قرار عودة السلام طالما لم تحرر فلسطين.. وأقرت مواصلة الكفاح المسلح بناءً على رغبة «الثورة الفلسطينية» وفى ٢٥ نوفمبر ١٩٧٣

بدأ أول عمل فدائي فلسطيني.. وذلك عندما تم اختطاف طائرة جامبو نفاثة.. تابعة للخطوط الجوية الهولندية KLM كانت في طريقها من بيروت إلى طوكيو مروراً بنيودلهي تحمل على متنها ٢٤٤ راكباً وثلاثة من الفدائيين الفلسطينيين..

كانت مطالب هؤلاء الثلاثة إطلاق سراح سبعة من زملائهم في قبرص.. وألا تمنح هولندا تراخيص مرور لليهود السوفييت الذين في طريقهم لإسرائيل.. كذلك تعهدت الشركة بالآ تفعل سلاحاً لإسرائيل من أية جهة.. وانتصر الفدائيون انتصاراً ساحقاً..

وفي ١٧ ديسمبر ١٩٧٣ كانت هناك عملية كبيرة في مطار روما.. عندما أطلق عدد من الفدائيين نيران مدافعهم الكلاشينكوف بصورة جنونية داخل صالة المطار المزدحمة.. ثم تمكنوا من اختطاف طائرة ٧٠٧ تابعة لشركة بان أمريكان كانت راسية على المدرج.. ففجروا قنابلهم الفسفورية بالطائرة ليحترق عدد كبير من الركاب.. ثم جرى الفدائيون ومعهم بعض الرهائن واختطفوا إحدى طائرات شركة «لوفتهانزا» كانت على وشك الإقلاع وحطت بهم في أثينا.. وكانت مطالبهم الإفراج عن زملاء لهم من جبهة «أيلول الأسود».

ومع بدايات العام الجديد - ١٩٧٤ - شكلت عدة منظمات فلسطينية باسم الجبهة هو الدكتور «جورج حبش»^(١) زعيم الجبهة الشعبية وبطل خطف الطائرات الأول.

(١) جورج حبش: ولد عام ١٩٢٥ بقرية ليديا التي تسمى اليوم «اللد» في فلسطين.. كان من أسرة ثرية وعاش في رغد ودرس الطب بالجامعة الأمريكية ببيروت.. انخرط في العمل الوطني السياسي متخذاً من عمان ركيزته في العمل.. ولما اختلف مع أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير قرر الاتجاه إلى العمل المسلح.. وبعد نكسة ١٩٦٧ أسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ونفذ عمليات خارقة مع زميله وديع حداد.. ولجأ إلى خطف الطائرات المدنية كوسيلة لضرب مفاصل الأمن الإسرائيلية وتذكير العالم بمشكلة فلسطين.. فخطف طائرة المال الإسرائيلية في ٢٣ يوليو ١٩٦٨ إلى الجزائر حيث جاءته معلومات أن شارون بين ركاب الطائرة.. وأطلق النار على شركة المال في أثينا في ديسمبر ١٩٦٨.. وبعد أيام هاجم طائرة المال في مطار زيورخ.. وقادت الفدائية ليلى خالد عمليات خطف الطائرات.. ويتم خطف ثلاث طائرات دفعة واحدة اقتيدت إلى الأردن.. وهناك سجل طويل من العمليات مما دعا إسرائيل للبحث عن حبش لاغتياله.. لكنه إلى الآن ما يزال على قيد الحياة.. ١١

القسم الثالث والعشرون تكليفات ومهام

«ناولته القلم والورقة التي حاول قراءتها..
فصرخت فيه بعنف.. وانتهزت فرصة وقوعه
تحت السيطرة والشلل العقلي الفجائي..
وصفمته بشدة على وجهه.. فتملكه الهلع
ووقف مذهولاً ثم اكتشف عريه فجلس
ثانية.. ووقع..»

١٨ كانون الأول / ديسمبر ١٩٧٢

كانت التكاليفات والضعفوط الإسرائيلية فوق احتمالي فـالعمليات الفدائية الفلسطينية التي تنطلق من الجنوب اللبناني كانت تربك إسرائيل وتزعزع أمنها بشكل لم تعهده من قبل.. بل وأصبحت بعدوى العمليات الفدائية غالبية دول أوروبا المساندة لإسرائيل.. فالفلسطينيون أرادوا الإعلان عن وجودهم بشتى الطرق بما فيها العنف من خطف وتفجير.

ولأن إسرائيل لم تكن تعرف من أين ستجىء ضربات رجال المقاومة.. فقد اعتمدت العنف سلاحاً لها.. حتى إنها احتلت مطار بيروت الدولي بعض الوقت مساء ٢٨ كانون الأول ١٩٦٨ وفجرت ١٢ طائرة مدنية على أرضه.. انتقاماً لعملية فدائية نفذها رجال «حبش» في «أثينا» قبل يومان فقط.. وإذ كانت إسرائيل قد لجأت إلى العنف الأكثر ضراوة وقسوة للرد على العمليات الفدائية. فالفلسطينيون كذلك.. رأوا الحل في ذات السلاح.. دون غيره..!

وكان لتسارع الأحداث وشراسة الضربات الفلسطينية.. الأثر البالغ في انتشار سحب الخوف السوداء فوق رؤوس الإسرائيليين.. فقدت الموساد بذلك خاصية طالما ألصقت بها.. وهى أنها حامية الدولة اليهودية.. فسخر العسكريون في إسرائيل من هيبة الجهاز الأسطوري التي سقطت.. ومن المقولة التي طالما ترددت وهى «أن الموساد تجعل العدو يرتجف.. وتمنح الإسرائيليين القدرة على النوم فى هدوء».

انعكس الوضع الآن.. فأصبح الإسرائيليون يرتجفون عند سماع أزيز طائرة.. أو فرقعة إطار سيارة.. أو انفجار عادم دراجة بخارية.. وانتقل هذا الضغط العصبي إلى عميلة الموساد فى بيروت: «آنى موشيه»، فالمطلوب منها إنجازها كان يفوق الوصف.. ويتجاوز قدراتها التي كانت فى طور الاكتمال.

لذلك انتقلت «آنى».. للإقامة شبه الدائمة فى «صور».. واستأجرت شقة بسيطة بمنطقة «الشجرة» على مسافة عدة كيلو مترات من الحدود الإسرائيلية.. اتخذت منها مقراً ومركز انطلاق لاستكشاف تحركات رجال المقاومة.

١٦ نيسان / أبريل ١٩٧٤:

كنت قد اتصلت بالضابط الفلسطيني يوسف أبو ناصر.. وهو الذى سبق أن حذرتنى الموساد منه.. لكننى تجاوزت تلك الأوامر وارتبطت به رباطاً وثيقاً مستخدمة معه أسلوب «فورة الإثارة».. الذى يدفع المرء لأن يخرج ما عنده من أسرار بشكل طوعى لتأكيد الرجولة والفحولة والأهمية.

وفى شقتى طبقت معه ما سبق أن تدربت عليه.. وفوجئت به يتكلم وينطق ويبوح مزهواً بنفسه.. حتى إنه أعلن عن عملية فدائية ستتم فى اليوم التالى داخل الأراضى الإسرائيلية.. فضاعفت من جرعة إثارة رجولته وأهميته كمسئول متميز.. لكنه لم يتفوه بأكثر مما قال برغم ثمالة الشديدة.

وتخوفاً من شكوكه لم ألح عليه أو أحدثه كثيراً عن أمر هذه العملية المرتقبة.. وبعثت برسالة سريعة إلى الموساد بعد انصرافه.. جاء فيها:

- «عملية فدائية ستنفذ غداً داخل الأراضى الإسرائيلية.. التسلسل بطريق البحر.. المصدر أبو ناصر. R.Q.R. 3301».

وفى اليوم التالى - ١١ أبريل ١٩٧٤ استتفرت القوات الإسرائيلية وتم تشديد المراقبة على ساحل البحر.. لكن العملية لم تتم بحراً.. إنما تمت براً عندما اقتحم رجال الكوماندوز مدينة «كريات شمونة» Qiryat shemona أقصى شمال إسرائيل.. والواقعة على مسافة خمسة كيلو مترات من الحدود اللبنانية.

يومها أصيبت بالهلع.. فمعنى ذلك أن الضابط الفلسطينى خدعنى لأنه شك بى.. وربما كان ضابطاً وطنياً لا يبوح بأسراره.. لكننى تغابيت واتصلت به أهنته على انتصاره.. فقد قتل فى الهجوم ثمانية عشر إسرائيلياً وأصيب أكثر من ٤٨ بجروح.. وصرح مسئول فلسطينى أن هذه العملية بداية عمليات أكثر شراسة داخل الأراضى الإسرائيلية لإعاقة الحل السلمى العربى.

لماذا إذن ضللنى هذا الرجل..؟

وهل سأتعامل معه بعد ذلك..؟

أرسلت إلى تل أبيب أطلب مساعدتي.. فأشاروا علىّ ألا أظهر خوفاً منه أو أحاول جرجرته للحديث مرة أخرى.. فريماً يكون ضابط استخبارات يريد الإيقاع بي.

كان هذا الرد يحمل الكثير من المخاوف والهلع.. فالضابط الفلسطيني إذن يضعني في دائرة الشك. وبدلاً من اصطياذه كان يخطط هو الآخر لاصطيادي!! لقد كنت أخطو إلى نهايتي بلا شك.. فهذا الرجل كان محيط معلومات ويفرني أن أتعامل معه وألاعبه لعبة الذكاء.. وبعد اتصالات كانت تبدو عفوية.. دعوته إلى شقتي من جديد.. وهيات له نفسي مع أنواع جيدة من الخمر.. حتى إذا ما تمكن السكر منه انطلق لسانه متباهياً بعبقريته العسكرية.. وكيف أنه جهز فريقاً يعد من أكفأ الرجال للتسلل وضرب مدينة نهاريا Nahariyya الساحلية بالصواريخ.

وتوقعت أن يوجد بمعلومات أخرى وهو بين أحضانى.. لكن عقدة لسانه لم تنفك وظل حديثه المتقطع غامضاً.. مبهماً.. لا يفهم منه شيء..! استشطت غضباً أمام هذا الصمت.. فالمعلومة هكذا تبدو مبتورة تفتقد الكثير والكثير.. حيث كان عليها أن تعرف منه موعد العملية.. وهل سيتم التسلل بعبراً أم براً.. وكيفية الانسحاب حال نجاح العملية..؟

وبعد أن ذهب وعيه غط في نوم عميق.. وبحذر بالغ فتشت جيوبه بحرص محافظة على ترتيب محتوياتها.. فاستوقفتني وريقة كتبت بها عدة كلمات مرعبة.. وببدا مرتعشة نقلت ما بها بورقة أخرى خبأتها بمكان سري داخل حذائي.. بعدها تمددت إلى جوار النائم المكدود.

(تل أبيب - ٩ إلى ٢٥ أيار - ٥٠٠ كيلو TNT - ش بلفور - كيديم - أريخ وأكلييتوس - ثم أيركون ورعان - عدد «٥» فرق - ١٧ فولكس سوبارو وشيفر - يافا).

كانت هذه الكلمات الغامضة الغير مترابطة.. تثير الفزع بحق. وفي الصباح بعثت بها إلى تل أبيب ثم مزقت الورقة.

استقبلت إسرائيل رسالة «أمنية المفتي» فحل الهلع بجميع أجهزة الدول.. فالضابط الفلسطيني كان صادقاً عندما تحدث عن عملية «كريات شمونة» التي ستتم من خلال التسلل بحراً.. لكنها تمت في مكان بعيد عن البحر.. وبطريق البر عبر الحدود.

أما خبر عملية تل أبيب التي قيد التخطيط.. فكان أكثر غموضاً ورعباً.. بل هو الرعب نفسه.. والدمار الأكبر مدن إسرائيل.

هكذا كان الوقت يمر سريعاً.. يحمل بين دقاته انفجارات الموت البطيء.. وعجز رجال الموساد والاستخبارات العسكرية في التوصل إلى تحليل دقيق يؤدي إلى معرفة شيء بعينه.. كل ما في الأمر أن هناك عملية فدائية مسلحة وفتاكة ستنفذ في تاريخ غير معروف داخل تل أبيب.

وتخوفاً من أن تكون تلك الوريقة في حافظة «أبي ناصر» مجرد كمين لاصطياد عميلة الموساد.. صدرت إليها الأوامر بالتوقف نهائياً عن بث الرسائل أو جلب المعلومات.. ومفادرة «صور» على الفور إلى «بيروت».. لكن العملية الفاضية الثائرة العنيدة بثت رسالة جديدة إليهم قلبت الموازين كلها وأذهبت بعقول كبار رجال الأمن في إسرائيل.

فقد زفت إليهم خبراً يفيد تسلل سبعة فدائيين في غبش الفجر.. يحملون ال آر. بي. جيه ومدافع الكلاشينكوف القاذفة والقنابل الهنغارية.. فضلاً عن عجائن المتفجرات بقصد تفجير مستوطنة «جيشر هازيف» Gesher Haziv الواقعة شمال «نهاريا» بمناسبة عيد إسرائيل القومي.

انطلقت قوات الأمن تطوق المستوطنة وتفرض حزاماً أمنياً حولها.. كما انتشرت نقاط التفتيش على كل الطرق والمحاور.. ومع أولى تباشير الخامس عشر من مايو ١٩٧٤ كانت المعركة الشرسة قد بدأت.. ولكن بمنطقة أخرى بعيدة عن تصور الإسرائيليين.. وتوقعهم: قرية «معالتوت».

حاصر الفدائيون السبعة القرية وأمطروها بوابل من قذائفهم الصاروخية.. وسيطروا تماماً على سكانها والطرق المؤدية إليها.. كما دمروا عدة سيارات

عسكرية حاولت الالتفاف لعزلهم عن القرية.. وبعد ست ساعات ونصف الساعة أسفرت المعركة عن إصابة عدد كبير بينهم ٢٥ قتيلاً.. ووقفت جولدا مائير أمام كاميرات التلفزيون في الكنيسة وهي تكفكف دموعها وتقول:

- اليوم عيد ميلاد دولتنا الخامس والعشرون.. وقد أحاله الإرهابيون إلى يوم مرير بالنسبة لإسرائيل..!!

وبرغم الشكوك التي شابت الضابط الفلسطيني والمعلومات المغلوطة التي مررها إلى «آنى موشيه».. لم تنصت عميلة الموساد للأوامر التي صدرت إليها بالتوقف عن العمل لبعض الوقت حفاظاً على أمنها الشخصي.. إلا أنها كانت قد تحولت إلى كتلة من الصخر الصلب ألقيت من فوق جبل.. فهرت مندفعة يستحيل إيقافها.

نعم.. بدت كفدائية شرسة تحمل روحها على كفها لا تفكر بالأخطار التي تحيق بها.

١٤ حزيران/ يونيو ١٩٧٤،

الأول من أمس كان يوماً مثيراً.. كنت قد فكرت قبلاً بضرورة تجنيد «مارون الحايك» لأعرف بالضبط أسرار قادة المنظمات الفلسطينية من خلال التنصت على مكالماتهم عبر «الغرفة السرية» بالمبنى المركزي الذي يعمل به «مارون».

استدعيته إلى شقتي بعد طول غياب.. فجاء مسرعاً يمني نفسه بوليمة فسق مثيرة.. وبينما كان عارياً تماماً ناديته إلى الصالون فوقف مذهولاً وقد تجمدت الدماء في عروقه.. وتعلقت عيناه بنجمة داوود السداسية الزرقاء.. وذلك الرجل الضخم الواقف وبيده مسدسه الصغير الكاتم للصوت.

ستر الرجل المرتجف عورته بيده.. واصفر وجهه وأنصت باهتمام بالغ وأنا أقول بلهجة آمرة وحاسمة:

- اجلس أيها الأبله..!!

قال في هلع:

- أنت.. ١٩..

قلت:

- نعم.. أنا إسرائيلية.

تلقت حواليه هلوياً وهو يقول:

- أريد الذهاب إلى الحمام.. أرجوك..

أجبت:

- ليس الآن.

قال وهو على وشك البكاء:

- ماذا تريد مني.. ١٩..

قلت:

- بدأنا المشوار معاً.. ولا بد أن نكملة حتى النهاية يا مارون..

مرتجفاً:

- مشوار.. معاً.. أنا لم أبدأ.. أنا لا أعرف.. لا أفهم شيئاً.

صحت به:

- لا تكن مراوغةً أيها النتن.. فأنت تعلم جيداً أنك تعمل معي لصالح

الموساد.. وحياتك وحياة أسرتك رهن إشارة واحدة مني..

هتف:

- يا يسوع.. أنقذني.. خلصني..

وبينما جسده ينتفض كالطير المذبوح.. نثرت أمامه عشرات الصور التي

تجمعنا معاً في أوضاع مشينة.. ثم فتحت جهاز الكاسيت ليحيى، صوته وهو يدلي

بأرقام التليفونات السرية للقادة الفلسطينيين.. ويحدثني عن «على حسن سلامة».

تصعب عرقاً وقال في مذلة:

- أرجوك.. أريد الذهاب إلى الحمام بسرعة.

قلت له مرة ثانية:

- ليس الآن.

سألنى خاضعاً مرتعباً:

- ماذا تريدون منى..؟

قلت:

- الموساد تريد منك تعاوناً أكثر..!

قال متلعثماً:

- تعاون..؟ كيف..؟ أنا لا أعرف.

أجبت:

- سأعرفك.

قال مذعوراً:

- أنا لا أفهم فى السياسة.

حدقت فى وجهه وقلت:

- ولكنك تحب الخمر والجنس والمال.. أليس كذلك يا مارون..؟

قال فى وهن وندم:

- أنا غبى.. تعس.

قلت له فى الحال:

- أنت تحب المال لتتفق على الخمر والنساء.. ستدفع لك الموساد مائتين

وخمسين ليرة كل شهر.

انتفض وهو يقول:

- موساد..؟

علقت قائلة:

- الموساد إن كنت لا تعرف هي الاستخبارات الإسرائيلية.. وكلب مثلك يعبد المال يجب أن يكون وفياً لأسياده.

انفتح على حين فجأة باب إحدى الغرف.. فالتفت مارون وهو ينتفض.. وصدرت عنه أنة هلع عندما رأى ثلاثة رجال ملثمين تراصوا بجانب بعضهم البعض كالتمثيل وأيديهم إلى الخلف.

مرت ثوان كالدهر لم ينطق مارون بكلمة لكنه كان يتمتم بما يشبه نشيج لوعة مكتومة.

- ماذا قلت يا مارون؟

تنقلت عيناه بين الجميع وهو يردد:

- ماذا تريدون منى؟

قلت:

- أكره إسرائيل؟

قال:

- أنا لا أكره أحداً.. لا.. لا.. بل أكره ياسر عرفات.. نعم.. أكره عرفات ورئيسي في العمل.

وأضاف:

- أرجوكم.. ماذا تريدون منى؟ أنا لا أفهم شيئاً ولكنى أوافق على ما تطلبونه.. إن عائلتي لا ذنب لها.. و..

قاطعته:

- عليك أن توقع هنا لتضمن الحماية والأمان.. والمال الوفير.

ناولته القلم والورقة التي حاول قراءتها.. فصرخت فيه بعنف.. وانتهزت فرصة وقوعه تحت السيطرة.. والشلل العقلي الفجائي.. وصفعته بشدة على

وجهه.. فتملكه الفزع ووقف مذهولاً ثم اكتشف عريه فجلس ثانية.. ووقع.

انصرف الرفاق الثلاثة بالورقة وأسرع مارون إلى الحمام.. وجاءنى صوت نشيجه الحزين فطرقت الباب.. وحاولت أن أوقف رجولته لكنه بلا فائدة.. وسألنى فى رجاء:

- كنت أريد قراءة ما وقَّعت عليه..!

قلت:

- إنه إقرار بالصدقة والتعاون.

قال فى خزي:

- مع من..؟

أجبت:

- جهاز الموساد.

سأل:

- وماذا بيدى لكى أقدمه لكم..؟

قلت:

- أريد زيارة الغرفة السرية بالسنترال المركزى التى حدثتى عنها.. وسوف أقوم بالتأوب - أنا وأنت - لتسجيل المكالمات الهاتفية بين القيادات الفلسطينية وكبار مساعديهم.

همس فى استغراب:

- تسجيل..؟

قلت مؤكدة:

- نعم.. ألم تسمع أيها القبى عن العمليات الفدائية داخل إسرائيل لمتسللين

فلسطينيين..؟

قال:

- أنت تعرفين أنتى لا أقرأ فى السياسة ولا أهتم بها.

هتفت به ساخطة عليه:

- ولن تقرأ على قبرك: «طوبى للذى تختاره يارب»..!

وبعد برهة نطق قائلاً:

- بإمكانى التنصت أثناء نوبات عملى.. ولكن..

قلت:

- سيعاونك «مانويل»..!

حملق مندهشاً:

- مانويل..!!

- ألا تكفيه مائة ليرة؟.. هو يبيع امرأته من أجل ليرة واحدة..!

هذا ما قلته بينما مارون كان يرتعش كالقار المذعور الذى وقع فى
المصيدة.^(١)

سنوات طويلة من حياته مرت به وهو يستمرئ المغامرة ويستلذ اصطلياد
الفرائس.. بيد أنه لم يتوقع يوماً أن تجيء فيها لحظة ما ينقلب فيها حاله..
ليصبح هو الفريسة المرتجفة بين يدى امرأة كانت إلى عهد قريب ناعمة..
ناعسة.. بضعة.. مثيرة.. سرعان ما انقلبت فجأة إلى وحش مسعور.. تتبعث
رائحة الموت من لفاتاتها.. ويسمع له وقع فى صوتها الشيطانى الرهيب..!

* * *

(١) فى أسلوب تجنيد مارون الحايك مبالغة شديدة.. ويبدو أن خيال عميلة الموساد كان واسعاً جداً
فهذا ليس أسلوباً للتجنيد بالمرة.. وأثناء الاستجواب أنكر مارون الحايك رواية أمينة وضحك
قائلاً: (يبدو أنها كانت تحلم).

القسم الرابع والعشرون الغرفة السرية

«انشفلت بشكل لم يسبق له مثيل
باستخلاص اتجاهات شتى التيارات
الفلسطينية.. وساعدها «مارون ومانويل» في
عمليات التنصت على هواتف القيادات
الفلسطينية من داخل الغرفة السرية التي لا
يسمح بدخولها إلا للمستولين...»

أسفرت عملية تجنيد «مارون الحايك» عن فائدة عظيمة لإسرائيل.. إذ أن التنصت المستمر على مكالمات القادة وزعماء الجبهات الفلسطينية كشف خططهم تجاه الدولة العبرية.

هذا ولم تكن الأحاديث الهاتفية بينهم أحاديث مكشوفة تماماً.. بحيث يمكن للمتصت عليها إدراك مضامينها بسهولة.. إنما اعتمدت على أسلوب التمويه والشفرة الكلامية.. وثقة في اللبنانيين كان زعماء المنظمات والجبهات ينسبون أنفسهم أحياناً ويتحدثون علانية فيما بينهم بصراحة.. أو مع مساعديهم.. ظناً منهم - وهذا خطأ كبير - أن التجسس على مكالماتهم أمر مستحيل.. فالدوائر التليفونية المغلقة كانت محددة بكل منظمة أو جبهة.. والاتصال بالمنظمات أو الجبهات الأخرى في بيروت نفسها كان يتم عبر خطوط شبكة المدينة.. وكذا الاتصال بالخارج.

وعلى ذلك كانت السرية خاضعة للخدش والاختراق عن طريق زرع أجهزة التنصت.. أو باستراق السمع بأسلوب «مارون الحايك» و «مانويل عساف» من خلال الغرفة السرية.

هذه الغرفة أقامتها الميليشيا المسيحية المسلحة في لبنان بغرض التجسس على المسلمين اللبنانيين.. وعلى الفلسطينيين الذين اتخذوا من حي «الفكهاني» مقراً لهم.. فكان بمثابة عاصمة فلسطينية وسط بيروت وجنوبها.

فبالحي الذي يقع بالقرب من مخيمي «صبرا وشاتيلا».. أعدت منظمة التحرير مكاتبها بطريقة عشوائية حول مبنى جامعة الدول العربية.. وأقام قاداتها في مبان مجهولة تحت حراسات مشددة.

فالمنظمة التي أسسها «عرفات»^(١) - خريج هندسة القاهرة عام ١٩٦٥ -

(١) يقول صلاح خلف «أبو إياد»: تقابلنا في ١٠ أكتوبر ١٩٥٩.. مجموعة صغيرة في منزل لعميد في مدينة الكويت.. بهدف الانتهاء من البناء الهيكل للمنظمة فتح.. كنا في مجموعتنا أقل من العشرين مشاركاً كممثلين لجماعات سرية من مختلف البلدان العربية وغير العربية. وأعلن تدشين منظمة «فتح» تصفير لـ «حركة التحرير الفلسطينية» مرتبة أول حروفها ترتيباً عكسياً.. وكان السبعة المؤسسون لفتح هم:

كانت أكثر من مجرد مقاومة شعبية.. بل جيش مسلح مدرب يتريص بإسرائيل لضربها في الأعماق..!

كانت «أمانة المفتى» تدرك ذلك جيداً.. وترى بنفسها الرقابة القوية الصارمة التي تفرضها كبرى المنظمات الفلسطينية - فتح - على منشأتها في حي الفكهاني.. والحراسة المكثفة حول مكتب عرفات كلما ذهب لمقابلاته.

وصباح ٢٣ مايو ١٩٧٤ بدأت أولى رسائل مارون إليها.. حيث أبلغها بخبر هام للغاية بثته «أمانة» فوراً إلى إسرائيل:

- «بعد ثلثي الساعة من الآن.. سيهاجم ثمانية من الفدائيين المتسللين مستوطنة «زرعيت».. تسليحهم كلاشن وقنابل ٥٧ مم/ م. د».

وكانت المعلومة صادقة تماماً.. فقد قتل ثمانية فدائيين وأسروا اثنان.

وبعد هذه العملية طلبت «أمانة» من «مارون» أن تقتصد بنفسها على مكالمات القادة الفلسطينيين.. فأتاح لها زميلها هذه الفرصة التي ما حلت بها من قبل.. وعندها اقتحمت الخط السري الخاص بمكتب «جورج حبش».. ولاحظت بعد عدة مكالمات له.. أن هناك ترتيبات لإحدى العمليات السرية يتم إعدادها.

وذاث مرة.. انفجر الحوار ساخناً بينه وبين أحد مساعديه في صيدا.. حيث بدأ «حبش» منفعلاً أشد الانفعال وهو يأمر مساعده بالإسراع لإتمام العملية يوم

= ١ - ياسر عرفات: رئيس المنظمة - مات بباريس في ٩ نوفمبر ٢٠٠٤.

٢ - صلاح خلف: مساعد عرفات وقائد عام أيلول الأسود.. والمشرف على الاستخبارات الفلسطينية.. اغتيل في تونس في يناير ١٩٩١.

٣ - كمال دوان: مسئول العمليات داخل الأرض المحتلة وعضو هيئة الأركان.. اغتيل ببيروت في أبريل ١٩٧٣.

٤ - محمد يوسف النجار أبرز قادة أيلول الأسود بعد صلاح خلف.. ورئيس جهاز الاستخبارات «رصد».. اغتيل ببيروت في أبريل ١٩٧٣.

٥ - فاروق قدومي: رئيس الدائرة السياسية وعضو اللجنة التنفيذية.

٦ - محمود عباس أبو مازن: عضو اللجنة المركزية.

٧ - خليل إبراهيم الوزير: المسئول عن العمليات داخل الأرض المحتلة.. اغتيل في تونس في أبريل ١٩٨٨.

٢٢ يونيو.. وفي غمرة انفعاله نسى القائد الكبير عوامل الحس الأمنى ونطق اسم «كيبوتز شامير» سهواً.. وبعد ثلاثة أيام كان هناك خمسة فدائيين قتلوا على مشارف الكيبوتز.. بوغتوا قبلما يستعملوا رشاشاتهم.. وفي ٢٧ يونيو لقي ثلاثة فدائيين مصرعهم بعدما قتلوا أربعة جنود إسرائيليين فى «نهاريا»..!

* * *

تقول أمينة المفتى:

- كنت وراء أغلب هذه العمليات التى راح ضحيتها العديد من الفدائيين.. أولئك الذين غرر بهم باسم الجهاد والوطنية وثورة ثورة حتى النصر..!!

وبالرغم من أن هذه الهجمات البسيطة كانت غير مؤثرة بالمرة.. فقد دأبت الطائرات الحربية الإسرائيلية على الرد بوحشية إثر كل عملية.. فتدك المواقع الفلسطينية فى الجنوب من معسكرات ومحطات تموين ومراقبة.. بل وتضرب كل ما هو فلسطينى على أرض الدولة اللبنانية للوقية بين الشعبين.

فى تلك الفترة كانت المعلومات التى أتحصل عليها من خلال الغرفة السرية حيوية جداً وهامة للغاية.. ولا تحتمل تأويل أو شك لأنها تجيء عبر أحاديث أعلى المستويات القيادية الفلسطينية.

سلسلة طويلة من التبليغات قمت بها.. وأودت بحياة العشرات من الشباب الفض الفدائي المكافح.. عمليات ناجحة لعملية مخصصة أشعرتها بأهمية دورها الإنتقامى دون إحساس ولو ضئيل بالندم.. بل ازدياد مستمر فى حدة الغضب وضراوة الثأر لفقد زوجها.

ومنذ منتصف عام ١٩٧٤ دعمت الموساد الاتصالات السرية مع ميليشيا الكتائب.. اعتقاداً منها بأنها ستعمل على إسكات المقاومة الفلسطينية فى جنوب لبنان.. وسيكون لها الدور الحيوى فى التجسس على الجيش السورى.

لذلك.. كانت صفوف طويلة من عملاء الموساد تعمل فى لبنان باطمئنان.. فى حين كان الخوف كل الخوف من جهاز الاستخبارات الفلسطينية وجناحه العسكرية الذى يترأسه «على حسن سلامة» الذى أحاط كل وافد غريب بدوائر

من الشكوك والريب.

وانتهزت هذا التقارب اللبناني/ الإسرائيلي وسعيت خلف المارونى «بشير الجميل» الذى كان معامياً فى بلاد لا قانون فيه.. حيث كان من المنتظر تصعيده إلى أعلى المناصب فى الكتائب.. فجمعت عنه حصيلة هامة من المعلومات زودت بها الموساد.. وكان من ضمنها أن الشاب اليافع مكر وجري وإجرامى.. فرغم كونه أصغر ستة أبناء لبيار الجميل.. إلا أنه تقدم بسرعة.. ولم يبد أى تردد فى قتل حلفائه المسيحيين - أفراد أسرته شمعون وفرنجية - حتى أصبح فيما بعد مسئولاً عن أكبر ميليشيا مسيحية فى لبنان..!

5 تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٤:

مساء الأول من تشرين الأول ١٩٧٤ كنت بالغرفة السرية منهمكة فى عملى.. إلى جوارى تمتد كابلات جهاز التسجيل.. وعلى كرسيه يقبع خلفى «مارون الحايك» يتصفح مجلة ألمانية تعرض صوراً عارية.. وتلفح جسدى أحياناً نظراته اللاهثة برغم هواء الغرفة المكيف اللطيف.

كانت الغرفة الواسعة ذات بابين.. أحدهما مفلق دائماً من الداخل ولا يفتح إلا عند دخول أو خروج الموظف المختص.. وهو يؤدى إلى الممر الرئيسى.. أما الثانى فباب سرى يشكل جزءاً من دولا ب حائط كبير.. ويتصل بسلم خلفى صاعد.. وهو المخبأ الخاص بى عند حدوث أى طارئ.

فى ذلك اليوم كنت أنصت إلى حديث هادئ بين «عبد العزيز الكيالى» زعيم جبهة التحرير العربية التى ارتبطت بعزب البعث العراقى.. و«أحمد جبريل» زعيم جبهة التحرير الشعبية.. وأصابنى الملل من حوارهما الذى لا جديد به.. فالتفت إلى مارون الذى كان يلتهمنى ويخترق مؤخرتى بنظراته وسألته عمن يعرف سر هذه الحجرة.. فأجابنى بأنهم نضر قليل.. وأن إجراءات دخولها تخضع لتعقيدات وقيود كثيرة.. وأنه لولا الأربعين ليرة التى دفعها لحارس الغرفة السكير ما استطاعا الدخول إليها.. أبداً..!

كان «مارون» يحدثنى بنبرة تفيض ثقة.. بما يدل على أنه قام بعمل بطولى

لأجل.. لذلك ترك مقعده واقترب منى مبتسماً.. فقبلته.. وأحسست وهو يخاصرنى بأنه تجراً أكثر وأكثر.. وازداد لهائه يريد منى الكثير فنهرته بلطف.. وعادت الاستماع بتركيز لكن معظم الخطوط كانت صامتة.. ففكرت بالتوقف والانصراف.. لكن طرأت ببالى فكرة التجسس على تليفون «سلامة».

كنا قبيل منتصف الليل بقليل.. وسمعت «سلامة» يتحدث وشخص ما ربما يكون «أبا نضال»^(١).. فضغطت على زر التسجيل وأحكمت سماعتى الميكروفون فوق أذنى وانتبهت للحوار الدائر بينهما.

كان «مارون» ما يزال ملتصقاً بى من الخلف يحاول إثارتى بقبلاته المجنونة ولمساته الضاغطة.. وفجأة اقشعر بدننى كله وبدأ شعر رأسى كأنه يتصلب كالسامير.

كان سلامة يقول للطرف الآخر فى انفعال:

- التل^(٢) وحده لا يكفى.. علينا برأس الحية صديق اليهود.. ومؤتمر الرباط فرصتنا الأكيدة فلنكن حذرين.. والله معنا..!!

وحين نزعنا الكابلات كانت رأسى تدور فى دھول وتدور يد «مارون الحايك» تتحسسنى.. فأزحته بلطف وسألته أن يؤمن لى الطريق لأخرج.. وفى شقتى لم أقو على الانتظار حتى أبدل ملابسى.. فكتبت تقريراً مختصراً بعثته مشفراً إلى الموساد.

وبعد ست وثلاثين دقيقة جاءتنى رسالة تطلب منى إعادة البث.

لقد كانت المعلومات التى أرسلتها خطيرة جداً.. وعندما جاءتنى الرسالة أيقنت أن القلق ركب رؤوس القيادة فى إسرائيل.. خوفاً على حياة صديقهم العربى المخلص: «الملك حسين».. وتأكد لى أن الحكومة الإسرائيلية فى حالة (١) أبو نضال «صبرى خليل البناء قائد مجلس فتح الثورى.. قام بعمليات إرهابية عديدة وطارده أغلب المخابرات فى العالم.. لجأ إلى العراق وقتل فى أغسطس ٢٠٠٢ ببغداد وقيل إن صدام قتله لتموت الأسرار معه.

(٢) وصفى التل: رئيس وزراء الأردن.. قيل إنه اشترك فى مذابح الفلسطينيين فى الأردن.. واغتاله اثنان من عناصر أيلول الأسود فى ١٨ نوفمبر ١٩٧١ بفندق شيراتون القاهرة.. وقام أحدهما بشرب دمه..!

رعب الآن وربما يعقد اجتماع سريع يضم أعلى المستويات لمناقشة كيفية التعامل مع هذا الخبر الرهيب.

مرت نصف الساعة حتى جاءتني رسالة جديدة تحمل تكليفاً هو غاية فى العجب والدهشة.. إذ أمرت بالبحث عن وسيلة لدخول شقة سلامة^(١).. ولما كان ذلك مستحيلاً ألغى التكليف لخطورته.

لكن الجديد أننى حتى تلك اللحظة.. لم أكن أعرف أن لسلامة أولادا رزق بهم من زوجته الأولى التى قيل إنها ابنة أخت مفتى القدس الحاج أمين الحسينى.. وقلت فى نفسى متعبة وقد طفت على الدهشة:

- أترضى ملكة جمال الكون بدور الزوجة الثانية..؟

بلا شك أنها رضيت بذلك لتفوز بذلك الشاب الأسطورى الذى يفيض رجولة ووسامة..!!

يا لسلامة المحفوظ.. الهائى السعيد..!!

كانت فكرة اغتيال الملك حسين مسيطرة على الفلسطينيين لارتباطه بعلاقات سرية وثيقة بالإسرائيليين خوفاً على عرشه.. وأذيع عنه اجتماعه بموشى ديان لمرات عديدة وكذلك مع «مناحيم بيغن».. ففى تلك الفترة كان الفلسطينيون يشكلون نحو نصف سكان مملكته.. ويشكلون أيضاً مصدر إزعاج متزايد له.. بقيامهم بعمليات فدائية مسلحة انطلاقاً من الأردن.. فيرد عليها الإسرائيليون بالمثل.. ويضغطون على الملك لوقف تلك العمليات التى تضر بمملكته.. وكانت مجزرة «أيلول الأسود» إحدى نتائج هذه الضغوطات التى أدت لنزوح المقاومة إلى جنوب لبنان.

وبعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ توصل العرب فى الجزائر إلى صيغة رسمية تعترف بأن منظمة التحرير هى الممثل الشرعى والوحيد للشعب الفلسطينى..

(١) ذكرت بعض المصادر الإسرائيلية أن أمينة دخلت شقة سلامة بعجة علاج أطفال من زوجته الأولى.. لكن ذلك كان بفرض الدعاية فقط ولا أساس له من الصحة.. وإذا افترضنا حدوث ذلك بالفعل.. فسلامة كان يقيم بشقته الأخرى مع جورجينا.. ولم يكن يأخذ إلى مسكنة أية أوراق هامة بالمرة..!

وشكل الأمر خلافاً مع الملك حسين الذي كان يدعى لنفسه بهذا الحق.

وفى تموز ١٩٧٤ اتفق السادات وحسين على صيغة أخرى تحفظ ماء وجه الملك.. وهى أن المنظمة هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى باستثناء هؤلاء الذين يعيشون فى المملكة.. مما أثار الرأى العام الفلسطينى وفكر سلامة باغتيال الملك.

وبعد الرسالة التى بثتها «أمينة» إلى تل أبيب.. أخبر الملك بخطة اغتياله التى تقرر تنفيذها فى الرباط أثناء حضوره لمؤتمر القمة العربى فى أكتوبر ١٩٧٤.. لكن السلطات المغربية أفشلت العملية عندما ألقت القبض على وحدتى كوماندوز فلسطينيتين وصلتا من إسبانيا لتنفيذ العملية.. وتم التعتيم على العملية فى حينها خاصة وقد جاء عرفات لحضور المؤتمر.. وفيه حقق نجاحاً كبيراً وحصل على دعم عربى لشرعية منظمة التحرير.

وبموجب مقررات المؤتمر أصبحت المنظمة مسئولة عن وضع الاستراتيجية التى ترى أنها كفيلة باستعادة الحقوق المشروعة للفلسطينيين.. أى مطالبة باتخاذ مواقف واضحة ومحددة: فهل هى تريد تحرير فلسطين كلها أم جزء منها تقام عليه الدولة الفلسطينية.. وفى هذه الحالة كيف ستعمل للوصول إلى هذا الهدف..؟

هل تريد الوصول لهدفها بجهد الخاص..؟

أم بالتنسيق بين مصر وسوريا دولتى المواجهة..؟

وهل تريد العودة إلى قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨؟

أم تريد إقامة دولة فلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة..؟

وكيف ستحل مشكلة الإعراف بالوجود الإسرائيلى فى فلسطين.. أو

بإعراف إسرائيل بها..؟

وهل هى مستعدة للإعراف بقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ إذا ما عدلت

الفترة التى تتحدث عن «اللاجئين الفلسطينيين» إلى «الشعب الفلسطينى»؟

عشرات الأسئلة طولبت عميلة الموساد بالبحث عن إجابات لها بالتتصت

على هواتف أعضاء اللجنة التنفيذية العشرة لاستبيان نواياهم.. وهم خليط من

كافة التيارات الفلسطينية.. يمينية.. ومتطرفة.. ويسارية محايدة.. ومتعصبة.. وشيوعيون.. وهناك أيضاً ديمقراطيون.. اتفقت جميع هذه التيارات على هدف واحد هو «تحرير فلسطين» مع اختلاف فى التكنيك.

انشغلت «آنى موشيه» بشكل لم يسبق له مثيل باستخلاص اتجاهات شتى التيارات الفلسطينية.. وساعدها «مارون ومانويل» فى عمليات التنصت.. وإلى جانب ما كانت تمنحه لهما من مكافآت سخية.. تركت لهما جسدها أيضاً زيادة فى السخاء.

أما صديقتها «خديجة زهران» التى طلقت من زوجها الأول.. ثم انفصلت عن زوجها الثانى.. فقد مرت بظروف مادية سيئة بعدما استولى زوجها الأول على محل الملابس.. ثم استولى الثانى على كامل مدخراتها.. لذلك سقطت فريسة سهلة فى براثن «أمينة» فى فترة من أحلك لحظات ضعفها وبأسها وخوفها من المستقبل.

استغلت «أمينة» ظروف صديقتها الخائرة وحاجتها إلى النسيان والثراء.. وأغدقت عليها بما ظنت أنها افتقدته إلى الأبد.. وكان من السهل على امرأة فى مثل ظروفها أن تسقط.. لكن ليست مثل هذه الظروف ذريعة للخيانة.. فالمرأة المطلقة كانت سيئة السلوك لا تعر الشرف انتباهاً أو اهتماماً.. ولأنها كانت تقترب من الأربعين فالطلب عليها من هواة النساء كان قليلاً.. فكانت تضطر لشرايهم بالمال..!

وبعدما فقدت أموالها.. منحتها «أمينة المفتى» ما تحتاجه.. مقابل أن تبيع نفسها للموساد..!!

رباعى عجيب انطلق فى مهام تجسسية صعبة لإمداد إسرائيل بأخطر المعلومات عن القادة الفلسطينيين واستراتيجيتهم فى الجهاد.. والقيام بعمليات مناوراتية أو عسكرية ليس فى فلسطين فحسب.. بل ضد المصالح الإسرائيلية المختلفة فى كل بلاد العالم.. وعن أولئك الذين قرروا اللجوء إلى السياسة والدبلوماسية لتحرير الأرض..!

استشعر الفلسطينيون في ذلك الوقت وجود مؤامرات لبنانية لتصفيتهم.. وقالوا للبنانيين:

- أنتم لا تستطيعون تصفيتنا لأنكم لا تملكون القوة الكافية لذلك.. ونحن لا نريد منكم إلا تمهيد الطريق لنا إلى فلسطين.. والطريق إلى فلسطين يمر «بمينطورة وجونية» وهما منطقتان مسيحيتان.. إحداهما في الجبل والثانية على الساحل. فتساءل اللبنانيون:

- كيف ذلك والجبل يبعد عن طريق فلسطين بأكثر من مائة كيلو متر.. ١٩.. وكانت تلك مقدمة الحرب الأهلية اللبنانية.. ١١..

٢٢ كانون الثاني/يناير ١٩٧٥:

في ٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤ دخل ياسر عرفات لأول مرة مبنى الأمم المتحدة بردائه العسكري ومسدسه.. وألقى كلمته التي استمرت تسعين دقيقة وسط تصفيق حاد منقطع النظير. وجاء في كلمته:

- جئت اليوم ومعى غصن الزيتون في يد.. وسلاح المقاومة في اليد الأخرى.. فلا تدعوني أسقط غصن الزيتون من يدي.. ١١.. أقرت الجمعية العمومية مشاركة منظمة التحرير كمراقب.. فيما أعلن مندوب إسرائيل:

- ستتعقب إسرائيل القتلة من منظمة التحرير الفلسطينية.. ولن تسمح في أي جزء من إسرائيل أن تصل إليه سلطة المنظمة.. إن قتلة الرياضيين في ميونيخ.. وقتلة الدبلوماسيين في الخرطوم لا ينتمون بكل بساطة لهذا المجتمع الدولي. وبعد أسبوع واحد من هذا الحدث المثير.. بثت «أمينة» رسالة إلى الموساد تفيد بأن هجوما فدانيا سيتم بعد عدة ساعات على إحدى مدن الشمال. وقبلما تتخذ السلطات الإسرائيلية التدابير الأمنية الكافية كان ثلاثة من

فدائي الجبهة الديمقراطية قد هاجموا مدينة «بيت شين» Bet shean انطلاقاً من الأراضي الأردنية على غير المتوقع.. فقتلوا أربعة إسرائيليين ثم جزوارؤوسهم وكتبوا بدمائهم:

- فليرحل أبناؤكم قبلما يلقوا ذات المصير.

بثت «أمانة المفتى» رسالة استنكار شديدة اللهجة بدعوى أنها أبلغت عن العملية قبل وقوعها بوقت كاف.. وتشجيعاً لها جاءها الرد الذي يفيد امتنان الحكومة الإسرائيلية بما تتوصل إليه من أخبار.. لكن معرفة مكان العملية لم يكن بالأمر السهل.. وإضافة إلى ذلك فقد تقرر صرف مكافأة خاصة لها ولأعضاء شبكتها.

في ذلك الوقت كانت مدخرات عميلة الموساد تزيد عن المائتي ألف دولار.. بالإضافة إلى خمسمائة ألف أخرى هي مكافأة خاصة صرفتها بعد مقتل «موشيه»...

وبعد يومين فقط من عملية «بت شين».. اختطف أربعة فدائيين طائرة بريطانية بعدما تسلقوا سور مطار «دبي» الدولي وطاروا بها إلى تونس وعلى متنها «٤٧» راكباً.. وما هي إلا أيام حتى أعلن «أبو إياد» في نهاية كانون الثاني/يناير ١٩٧٥:

- إنني أعد بأن هذه الحادثة العارض سيكون الأخير.

كان هذا التصريح كالقنبلة.. إذ أصبح لا وجود لجبهة: «أيلول الأسود».. فقد غطت الحرب الأهلية اللبنانية على كل شيء.

وعندما طلبت «آني داوود» الإذن بتفكيك شبكتها ومفاردة بيروت إلى تل أبيب.. أعيد تذكيرها بأن عليها إيجاد الفرص المناسبة لتوظيف علاقاتها بـ «على حسن سلامة» في محاولة للوصول إلى القوائم السرية لرجال مخابراته في أوروبا.. وكذا خططه للعمليات السرية المطروحة.

القسم الخامس والعشرون السقوط

«قررت ألا أموت بأيدي الفلسطينيين.. فهم
سوف يقتلونني لا محالة.. وبين خصلات
شعري كانت كبسولة سم السيانيد بحاجة
إلى ثلاث ثوان فقط لمضغها.. وقبلما أمد
يدي كانت أيدي رجال الأمن أسرع من
انقضاض الكويرا على فريستها..»

وقعت أمينة فى الخطأ الفادح الذى قد يقع فيه أعتى خبراء التجسس.. خصوصاً عند التعامل مع رجل أمن يتمتع بذكاء فطرى غير عادى.. وحاسة أمينة تشبه حاسة الكلب المدرب الذى أجاد التعامل مع المجرمين والإمساك بهم. وكان ذلك أثناء لقاء جمعها بسلامة فى الكورال بيتش وسألته يومها عن أولاده وصحتهم.

دهش رجل المخابرات الذى أكدت له ذاكرته أنه لم يحدثها قط عن أولاده.. فهى مجرد امرأة عابرة لا صديقة حميمة.. حتى أنه قدم نفسه إليها كرجل أعمال ثرى باسم آخر وهى: «كمال ياسين».

وبحاسته الأمنية العالية ملأه الشك تجاهها.. وفى الحال قرر البحث عن ماضيها.. وطلب من رجاله فى عمان موافقاته بشتى البيانات عن الطيبة الأردنية «أمينة داوود المفتى» التى يعيش أهلها فى فيلا كبيرة بحى «صويلح» أرقى وأروع أحياء عمان.. وأنها غادرت وطنها للدراسة فى النمسا.. ولمشاحنات مع أهلها قررت عدم العودة وانقطعت صلتها بهم حتى تلك اللحظة.

نبذ «سلامة» شكوكه وعادت ثقته بأمينة المفتى من جديد.. وفى الوقت الذى كانت تمر فيه ببعض المشكلات المتعلقة بتجديد جواز سفرها أو استخراج آخر جديد.. وصلت «إخبارية» سرية من «فيينا» قلبت الأمور رأساً على عقب.

إذ تبلى أن شاباً فلسطينياً يعيش فى «فرانكفورت».. صرح لمصدر سرى بأنه تقابل مع شاب فلسطينى فى «فيينا» جمعته به حانات المدينة.. وأخبره هذا الشاب الذى لا يعرف اسمه.. أن له صديقة نمساوية يهودية ماتت إثر تعاطيها جرعة زائدة من عقار مخدر.. وكان لها أخ يعمل طياراً تزوج من فتاة عربية مسلمة هرباً معاً إلى إسرائيل.. ولأنها درست الطب انتقلت إلى لبنان للعمل ولتقضى أخبار زوجها الذى سقطت طائرته واعتبر مفقوداً.

كان البلاغ برغم محدودية معلوماته يحمل نبرة عالية من الشك.. فلو أن هذا الأمر حقيقياً فهناك إذن جاسوسة للموساد بين الفلسطينيين فى لبنان.

طلب سلامة الوصول إلى الشاب الفلسطينى فى «فرانكفورت» لإعادة

استجوابه ولو اضطروا لأخذه إلى النمسا ليدلهم على الفلسطينيين الآخر الذى يحمل بقية المعلومات فى جعبته.. كاسم الفتاة وعنوانها أو مكان عملها.. وبذلك يتم التوصل إليها فى وقت وجيز.. وإلى حين تجهئه معلومات جديدة أمر «سلامة» بحصر كل الطبيبات العربيات المتطوعات فى المستشفيات الفلسطينية.. واللبنانية أيضاً.. خاصة الحاصلات على شهادة الطب من إحدى جامعات النمسا.

كان «على حسن سلامة» شاباً ذكياً خارق الذكاء.. شاهد بنفسه مقتل والده بين اليهود وهو فى الخامسة عشرة من عمره.. ففرت به والدته من «الرملة» إلى «نابلس» فى الأردن.. وهناك عاش مثل آلاف الفلسطينيين فى مخيم بائس يفتقر إلى المياه والكهرباء.. فأكمل تعليمه الثانوى متجاهلاً مطاردات الفتيات له بسبب وسامته وجسمه الرياضى.. حيث لم يكن يهتم إلا بالسياسة ونكبة فلسطين.. ثم حصل على منحة للدراسات بالجامعة الأمريكية ببيروت التى كانت وقتئذ مجتمعاً لكبار المثقفين الفلسطينيين.

وفى الجامعة تبلورت ثقافته السياسية وثورته.. وكان يقول دائماً: لقد نسونا.. وإذا لم نفعّل شيئاً سبنقى دائماً فى الطين والوحل. أذلاء بلا وطن^(١).

وبعد ما أنهى دراسة الهندسة التقى بعرفات الذى كان قد أسس منظمة التحرير.. فشغل منصب قائد القوة (١٧) المنوطة بحراسة عرفات.. وسميت بذلك الاسم لأن تليفونها الداخلى كان يحمل الرقم (١٧).. ثم رئيس العمليات بجبهة «أيلول الأسود» التى دوخت إسرائيل.. كما شغل منصب قائد الجناح العسكرى بجهاز الاستخبارات الفلسطينى «رصد».

تعقب سلامة الجواسيس الذين اخترقوا صفوف المقاومة.. وحصل على دورات تدريبية على أيدي رجال المخابرات المصرية.. واستهواه العمل الفدائى ومطاردة الخونة الذين كان ينفذ فيهم بنفسه حكم الإعدام رمياً بالرصاص.

(١) وليم ديشيل: إريكا.. عملية الموساد.. ترجمة د. رمضان أبو العلا.. د. عبد العظيم حسنة، مكتبة مبدولى الصغير.. القاهرة.

إضافة إلى ذلك اشتهر بأنه كان يجيد التخفى وتضليل مطارديه.. ويتمتع بمكر الثعلب وجسارة الأسد.. وصلابة الفولاذ.

ولما جاءت معلومات مبدئية تفيد وجود طبيبة عربية متطوعة تعمل لصالح الموساد في لبنان.. كانت أمامه قائمة تضم (٢٧) طبيبة.. أربعة منهن فقد حصلن على شهادتهن العلمية من جامعات النمسا.. إحداهن كانت «أمينة داوود المفتى».. وفى انتظار التقرير الحاسم الذى سيجىء من أوروبا.. أمر «سلامة» بوضع الأربعة تحت المراقبة الصارمة على مدار اليوم.

تقول أمينة المفتى فى مذكراتها:

- بعينى الجاسوسة المدربة أحسست بأن هناك عيوناً ترقبني وتترصد خطواتي.. ولا تكاد تترك لى مساحة من الحرية لأتحرك هنا وهناك كما اعتدت دائماً.. وعندئذ أدركت بأن الموت يقترب منى أكثر وأكثر.. وفكرت بالتخلص من جهاز اللاسلكى دليل الإدانة الذى سيقدمنى إلى حبل المشنقة.. أما مذكراتى فقد قررت إرسالها إلى «فيينا».. وكتبت إلى صاحبة المسكن القديم بشارع «شترأوس» أطلب منها الاحتفاظ بهذه الأوراق إلى حين سفرى إليها.. وبعثت بآخر رسائلى إلى الموساد:

- «هناك من يراقبني ليل نهار منذ صباح أمس.. أنا خائفة ومرتبكة وسأموت رعباً.. أفيدونى».

- ضعى الجهاز ومحتوياته بسلة قمامة الشقة التى تلوك مباشرة.. تخلصى من الشيفرة.. لا تخافى ويجب ألا تظهرى ذلك.. تصرفى بتلقائية شديدة ولا تتصلى بشركائك.. غادرى بيروت براً إلى دمشق.. ستجدين رسالة بمقهى الشام.

وبرغم الأوامر شديدة الوضوح.. إلا أنها وقد فعلت كل شئ، اتصلت بأحد أفراد شبكتها بدافع التحذير وعدم الاتصال بها أو ببقية الأعضاء.. إذ اتصلت بخديجة زهران وأخبرتها أنها فى طريقها إلى دمشق «الشام» لعدة أيام.

يشفق خبراء أجهزة الاستخبارات دائماً على العميل الخائف.. خاصة إذا كان مزروعاً ببلاد الأعداء.. ويدركون جيداً حجم المعاناة النفسية التي تغشى تفكيره مما يعرضه للسقوط لوقوعه فى حالة ضعف تدمر أعصابه وتشل تفكيره بل وتعصف بثباته وجرأته.

وهم فى هذه الحالة يفضلون أن يفر عميلهم إنقاذاً لحياته.. لذلك أصدرُوا أوامرهـم لأمانة المفتى بالهرب.. وشرعت فوراً فى تنفيذ أوامر رؤسائها.

يعصف بها الخوف والهلع.. حملت «أمانة» حقيبة يدها الصغيرة وغادرت شقتها لآخر مرة.. لتدور بعدها فى شوارع «بيروت» أشرس عملية هروب ومطاردة من جاسوسة الموساد الخائفة وقوات الأمن الفلسطينية.

بعد سنوات.. قالت أمانة فى مذكراتها عندما أتيح لها تذكر تفاصيل تلك الفترة: - كنت فى حالة تشبه الانهيار.. إذ تمكن الخوف منى ولم أعد بقادرة على التصرف بهدوء كما طلب منى.. أعرف أن هناك من يطاردوننى ويقتفون خطواتى.. وبما لدى من حاسة أمانة استطعت أن أميزهم يلاحقوننى عبر الشوارع والباصات.

ساعتئذ أدركت بأن النهاية قد اقتربت.. ويجب على أن أدفع ثمن ما ارتكبته من جرائم فى لبنان.

وفى موقف الباصات المتجهة إلى «الشام» اعتقدت أننى ضللتهم.. حتى إذا ما صعدت إلى الباص وجلست ألوك «العلكة» لأتزود ببعض اطمئنان.. فوجئت برجلى أمن يقفان إلى جوارى.. فألجمنى الخوف والهلع وانخرست الكلمات بحلقومى.

قال لى أحدهما بلهجة أمرة: نريدك لدقائق.. لن نؤخرك..)

التفت حولى.. لم يكن أى من الركاب يشعر بأى شىء.. ويبدو أننى تأخرت فى القيام لمصاحبتهم.. لذلك لمحت نظرات الشر بأعينهما والتصميم على اصطحابى ولو بالقوة.. كما لمحت سيارة أمن تقف ومن حولها عدة أشخاص.

فى تلك اللحظة قررت ألا أموت بأيدى الفلسطينيين.. فهم سوف يقتلوننى لا محالة.. وبين خصلات شعرى كانت كبسولة سم السيانيد بحاجة إلى ثلاث ثوان فقط لمضغها.. وقبلما أمد يدى فى حركة سريعة لتناول الكبسولة.. كانت أيدى رجال الأمن أسرع.. إذ انقضت على يدى انقضاض الكوبرا على فريستها.

حملتنى الأيدى القوية حملاً إلى خارج الباص وسط زهول الركاب.. حيث كانت هناك سيارة «بيجو ستيشن» مفتوحة الأبواب كانت تقف خلف الباص.. إلى جوارها وقف رجلان مسلحان جامدى الملامح.. وقبلما أصل إلى السيارة انهرت وبكيت.. فقاما بتكبيل يدى ثم رفعانى عن الأرض رفعاً وألقيا بى داخل السيارة التى انطلقت بى إلى حى الفكهانى تسبقها سيارة «أودى» تقل أربعة رجال أقوياء مدججين بالسلاح.

وفى موضع آخر من مذكراتها تقول «أمنية المفتى»:

- أمام أحد مبانى منظمة التحرير بالقرب من المدينة الرياضية قاموا بتغميتى.. ثم أودعونى غرفة ضيقة تحت الأرض وبالفوا فى تقييد يدى من الخلف بسلسلة حديدية ربطت إلى الحائط.

والذى عرفته فيما بعد أنهم لم يكونوا قد حصلوا على دليل واحد لإدانتى.. فالتقرير الأمنى لم يكن قد وصل بعد من أوروبا.. لكننى عجلت بكشف نفسى لهم عندما حاولت الانتحار بالسم.. وجاءت نتيجة التحاليل أسرع من توقعى.. وعلى ذلك تأكد تورطى فى أعمال خطيرة استدعت إنهاء حياتى بيدي.

قبعت داخل زنزانتى المظلمة أرقب الموت القادم.. وتنسل من عروقى نبضات القوة والصبر رويداً رويداً.. حتى استحال الدقائق عندى إلى جحيم مهلك.. وانقلب الانتظار إلى وحش مسعور يفتك بعقلى.. وعند تفتيش شقتى ببيروت لم يعثروا على دليل مادى يديننى.. فقد كان لدى الوقت الكافى لإزالة أى شىء يؤخذ ضدى.. ولم أترك خلفى سوى «المصحف الشريف» وقد انتزعت منه عدة صفحات تشكل فى مجملها كل سورة «بنى إسرائيل» وصفحة من سورة «الكهف».

هذا الأمر مثل لغزاً معيراً لرجال الاستخبارات الفلسطينية «رصد».. الذين فشلوا فى «رصد» عميلة الموساد والتحرى عنها عندما وصلت إلى بيروت

كطبيبة متطوعة.

* * *

وفى «فيينا».. كان رجال «رصد» يلهثون وراء البحث عن الشاب الفلسطيني العايب يرافقهم الشاب الآخر صاحب البلاغ الذى جىء به من فرانكفورت خصيصاً لإتمام هذه العملية.. وبعد بحث طويل مرهق فى شوارع وحدائق وحانات «فيينا» فشلوا فى العثور على ضالتهم.. ولم يكن أمام رجال «رصد» إلا أن يسلكوا الطريق الصعب باللجوء إلى «مكتب الزواج من أجنبى».. وهى خطوة جريئة وخطيرة.. إذ ربما يؤدى ذلك إلى لفت رجال الموساد فى «النمسا» إلى ما ينقبون عنه.. فكانت عملية البحث وفقاً لهذه المخاطر تتم تحت ستار كثيف من السرية والتكتم.

وبواسطة خطاب مزور صادر عن إحدى الجهات الرسمية يخاطب مكتب الزواج.. أمكن كشف الحقيقة المذهلة.. والوصول بالتالى إلى عنوان شقتها.. وبعد مراقبات دقيقة أمكن اقتحام الشقة والعثور على بقية الأدلة التى تبين كيف وقع هذا الزواج المحرم.. وكان ضمن الأدلة أجندة سجلت بها «أمينة المفتى» مذكراتها.. وتفاصيل عملها التجسس فى بيروت.

هكذا انكشف الأمر دون أن يلاحظ عملاء الموساد المنتشرون فى النمسا تحركات الفلسطينيين وبحثهم وراء الحقيقة.

كل هذه الأدلة بداية من شهادة تغيير ديانتها.. وعقد زواجها باسمها الجديد.. وصور الزفاف.. والمذكرات.. تجمعت فى ملف ضخيم وضع أمام «صلاح خلف» الرجل الثانى بعد عرفات.. وبدأ فى الحال محاصرة عميلة «الموساد» والسيطرة على أعصابها لكى تنهار فتكشف عن بقية أعضاء شبكتها.. وعما أبلغته لإسرائيل من معلومات.. كذلك دورها الحقيقى فى ترصد حركة المقاومة.. خاصة بعد فشل عدة عمليات فدائية كان وراءها أحد جواسيس «الموساد» النافذين.

* * *

القسم السادس والعشرون الانهيار

«كان الموقف عصيباً جداً عند عملية الموساد.. فقد أوصلها الاستجواب إلى مرحلة الشك فالترنع.. وليس هناك من شيء يلى ذلك سوى الانهيار.. فهي اللحظة التي يكون فيها الجاسوس فى أقصى حالات ضعفه.. ويأسه.. وقهره.. فلا عقل إذن أو إرادة.. إنما انصياع كامل يغلفه الخوار..»

كان العديد من الخطط لاستجواب الخونة والجواسيس... أما والحالة هنا لامرأة عربية - امرأة درست علم النفس - فالوضع يختلف.. إنها إحدى الحالات النادرة التي تواجه صلاح خلف «أبو إياد» ورجاله.

لذلك نوقش الأمر من شتى جوانبه واحتمالاته.. واقترح «سلامة» اعتماد خطة جديدة للتعامل مع هذه الخائنة.. تقوم على إيهامها بأن زوجها كان أسيراً لدى السوريين.. وقد أطلق سراحه منذ مدة ضمن عملية مبادلة نشرت عنها الصحف.. وقد رفضت إسرائيل إعلامها بالأمر لاستغلالها في التجسس لأطول وقت ممكن.. ثم إن إسرائيل كانت على علم منذ أسقطت الطائرة أن «موشيه» حيٌّ وكانت هناك مفاوضات طويلة بواسطة الصليب الأحمر الدولي لمبادلتها.

كان معنى ذلك أن «الموساد» خدعتها بحقارة وخسة حتى استنزفتها لآخر نفس كما يقولون.

وكان الغرض أيضاً إشعار الجاسوسة المتهاكمة بـ «عقدة الذنب» فيتملكها الندم الشديد على ما ارتكبته مقابل خدعة حقيرة.. وعند ذلك ستعترف بلا إكراه كرد فعل طبيعي.. ولكي تكتمل الخدعة سربوا إليها إحدى الصحف اللبنانية اليومية وقد تصدرت صفحتها الأولى صورة زوجها الأسير ضمن العديد من زملائه أثناء عملية المبادلة.

كانت هناك بالطبع نسخة وحيدة من تلك الصحيفة طبعت خصيصاً لأجل هذه المهمة.. أما صورة موشيه فمن خلال صورته التي أخذت من شقة «فيينا» ثم تركيبها فنياً ضمن إحدى اللقطات التي بدت حقيقية لا شك فيها.

وما إن سمعت الخبر.. حتى لفها صمت يمتزج بالذهول وقد جحظت عيناها لهول المفاجأة التي كانت بمثابة الصدمة.. صدمة وجود «موشيه» حياً.. وصدمة الخدعة القذرة التي حاكتها الموساد لاستغلالها.. وانطلق من أعماق صدرها صوت نحيب متحسر كأنه العواء.. وليس هناك أبلغ مما كتبته بنفسه عن تلك اللحظة المريرة في حياتها.

تقول «أمانة المفتى»:

- تركونى ألوك الخوف لفترة طويلة.. خلالها كانت أحاول أن ألملم ذاتى المبعثرة داخل زنزانة ضيقة حقيرة مقيدة بالجنازير إلى الحائط.. وفى السادس من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥ انفتح الباب ودخل الحارس المسلح ذو الشارب الكث الكثيف.. كان يحمل فطورى المكون من رغيف خبز وشريحة من الجبن المطبوخ.. وكالمعتاد جلس أمامى يتصفح جريدته ويناولنى قسمة بعد قسمة.. فلمحت الخبر بالصفحة الأولى.

يا إلهى..! إنه «موشيه».. نعم «موشيه» تتصدر صورته مع رفاقه الأسرى الصفحة ومن تحتها اسمه كاملاً مع أسماء الآخرين.

خيل إلى لحظتئذ أننى أحلم.. أطيّر إلى الأفق وأكبو.. فأنهمد.. يتشقق حلقومى وتتأرجح رأسى غصباً عنى.. وكأننى فى غيبوبة الموت.

رجوت الحارس أن يطلعنى على ما كتب بالصفحة الأولى.. أو أن يقرأ لى بنفسه فنهرنى ساخراً.. ولحظتئذ صرخت متوسلة إليه أن يقرأ.. فأغلق فمى بقطعة كبيرة من الخبز ولطمنى بقسوة على وجهى وهو يردد:

- ما لك وما بالصحيفة أيتها المومس الحقيرة..؟

لفظت قطعة الخبز وابتهلت إليه مسترحمة فى ذل ومهانة.. فبسط الصحيفة أمامى على الأرض.. وانحنيت التهم الخبر وأنا لا أصدق.. لقد كان الخبر صحيحاً وكان «موشيه» ما يزال حياً.. فانكفأت على وجهى ملتاعة بائسة.. لقد خدعونى إذن فى إسرائيل..!! خدعونى بقذارة لأننى افترقت المأوى الآمن ولم يعد لى إلا أن أعيش فى «أرض الميعاد».. الخدعة التى أقنعونى بها كما أقنعوا العالم من قبلى.. فأخذت أعض البلاط وألق الحسرة.. وألعن عمراً ذاب فى الوهم والحقد والغضب..!

لست أدري بالضبط كفة المشاعر الجياشة التى اجتاحتنى.. لكنها خليط عجيب من التضاربات تفتك بى وتعصف بآمالى.

كم كنت فى حاجة لأن أصرخ.. وأصرخ.. وأنهش وجهى بأظافرى حتى يتقطع.. لكن يداى مفلولتان.. مشدودتان بالجنازير ولا قبل لى إلا بالصراخ.. فصرخت من أعماقى ومن جذور أنسجتى وشرائينى..

إذ جثم على صدرى حمل ثقیل من الندم والخوف.. الندم على انتقاماتى البشعة من أبرياء.. والخوف من نهايتى المظلمة.. وطالعتنى على جدران زنزانتى الموحشة أشباح أناس بلا أطراف أو رؤوس.. ينزفون الدم فى فورة كالبركان.. فينزلق على أرض الغرفة وأحس به لزجاً ساخناً.

يا إلهى.. إنها أشباح عشرات الضحايا الذين قتلهم وقد شحنت بالغباء والقذارة.. أشباح تطوف من حولى فى حجلان مرعب.. ينبعث منها طنين مخيف.. فأضحك ثم.. أصرخ.. وأضرب رأسى فى الهواء لأصرف الأشباح عني.. وأفيق على «موشيه» الحبيب وقد جاء لينقذنى من عذاباتى.. وأناأتى القاتلة.

اقتيدت «أمينة المفتى» إلى مكتب «أبى داوود»^(١)، فى الثامن من أيلول/ سبتمبر ١٩٧٥ وهو الذى يجيد عملية استجواب الخونة والجواسيس بذات الأسلوب الذى استخدمه الجستابو خلال الحرب العالمية الثانية مع أسرى الحلفاء.

يعتمد هذا الأسلوب على التوصل بعلم النفس فى كسر حدة الخوف لدى الأسرى.. دون اللجوء إلى أى وسيلة ضغط أو تعذيب.. مع محاصرته بوابل من المعلومات التى تم جمعها عنه وعن رؤسائه.. فيضطّر مدعناً إلى الاعتراف بكل ما لديه حيث يرى أنه لا ضرورة للإنكار طالما انكشفت الأسرار التى كان يعتقد بأنها مجهولة.

(١) محمد داوود عودة: أبو داوود: ضابط فلسطينى له تاريخ طويل فى الكفاح والمقاومة.. كان أحد المخلّطين لمذبحة ميونيخ الذى راح ضحيتها أحد عشر إسرائيلياً.. وفيما بعد استرجع إلى الأردن واعتقل هناك وعذب للاشتباه فى تورطه فى محاولة اغتيال الملك حسين بالرباط عام ١٩٧٤.

وبعد إطلاق الرصاص عليه فى وارسو وإصابته إصابة خطيرة.. وكان ذلك فى أواخر السبعينيات.. اختفى نهائياً فى الظلال.. وورد أنه شوهد فى السنوات الأخيرة فى مصر والأردن.

ولكى نشرح أسلوب «أبو داود» فى استجواب العميلة.. علينا أن نقرأ الشهادة الرسمية التى أداها العريف «سكراف» من المخابرات الألمانية أمام هيئات التحقيق الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وهزيمة ألمانيا.. وجاء ذلك بعدما تشكلت فى أمريكا هيئة للتحقيق مع بضع مئات من الطيارين الأمريكيين الذين أسروا فى ألمانيا أثناء الحرب.. وكانت قد وجهت إليهم اتهامات بالخيانة وإفشاء الأسرار الحربية عقب أسرهم.

بيد أنهم نفوا جميعاً أنهم تفوهوا بأى سر.. كما أكدوا أنه لم يتم تعذيبهم أو امتهانهم.. وبالتالي لم يحاول أى إنسان أن يرغمهم على الإدلاء بأى أقوال.. فتطلب الأمر استدعاء العريف الألمانى الذى اختص باستجواب الأسرى للمثول أمام إحدى هيئات التحقيق الأمريكية.. لمناقشته فى شأن التقارير التى كان يرفعها إلى قيادته بعد استجوابه لكل طيار أسير.. وكان لشهادته هذه أكبر الأثر فى تبرئة ساحة هؤلاء الطيارين.

يقول «سكراف»:

- خلال سنين الحرب الطويلة المريعة.. قمت منتصباً فى وضع الانتباه ضارباً كعبى أكثر من خمسمائة مرة.. مؤدياً التحية العسكرية لكل طيار أمريكى شاء حظه أن يقع أسيراً فى أيدي قواتنا.. وكنت أقدم نفسى للأسير قائلاً فى أدب وبشاشة:

- سيدى.. أنا العريف «سكراف» وأنا مكلف بسؤالكم بضع أسئلة.. هل لسيدى أن يجلس..؟ من واجبى أن أذكرك بحقوقك التى كفلتها لك اتفاقية جنين لمعاملة أسرى الحرب.. فلك أن تجيب على الأسئلة الثلاثة: اسمك.. ورقمك.. ورتبتك فقط ولا شئ خلاف ذلك.. سيجارة سيدى؟

وكالمعتاد.. أجاب جميع الطيارين على الأسئلة الثلاثة عند بدء أسرهم.. واستطيع أن أقرر أن كل فرد من الخمسمائة ضابط الذين مروا بغرفتى.. قد أدلى بكل المعلومات التى طلب منى أن أحصل عليها منهم.. دون إهانة أو

تعذيب.. ذلك لأنهم لقنوا عن الطريقة التى يتصرفون بها إذا ما وقعوا فى الأسر.. واحتمال التعذيب الشديد حتى يرغموا على الكلام.

لكن... غاب عنهم الحالة النفسية التى يكون عليها الأسير بعد اكتسابه لهذه الصفة.. فمجرد شعور المرء بأنه أسير تتولد عنده ضغوط شديدة تشعره كأنه المذنب.. (١) حتى ولو كان أسره خارجاً كلية عن إرادته.. فسيظل موطناً نفسه على مقاومة كل وسيلة لاستجوابه.. وكان علينا أن نستغل هذه الحالة فى عملنا.. بأن نتصرف فى معاملة الأسير على العكس تماماً مما يتوقع.

كان الضابط الفلسطينى أحد القلائل الذين تميزوا بأسلوب المهادنة فى استجواب الخونة لإشعارهم بمدى فداحة الجرم الذى اقترفوه.. لكن يبدو أن فلسفة الألمان لم تكن ذات نفع مع جاسوسة محترفة مثل «أمينة المفتى» التى دربت على كيفية مجابهة مثل هذه المواقف الصعبة.. وترتيب الأفكار بحيث لا تخطئ إذا ما اضطرت إلى سرد رواية ما عدة مرات.

وكانت تمارين الذاكرة التى أجادتها خير وسيلة لها للتمسك بأقوالها دون تغيير.. حتى عندما ووجهت بمذكراتها التى كتبتها بخطها وخبأتها فى شقتها بفيينا.. أنكرت كل شئ بدعوى أنها مريضة بالتوهم Delusion وبأحلام اليقظة.. حتى ظنت نفسها بالفعل عميلة للموساد لتمتعها بخيال خصب جامع.. وتأثرها بقصة حياة الجاسوسة الهولندية الشهيرة «مارجريت جيرترود» أو «ماتا هارى» وابنتها الجاسوسة أيضاً «باندا ماكلويد».

وفى النهاية هناك رغبتها فى الانتقام من العرب لفقد زوجها «موشيه» وعجزها عن ذلك.. مع شعورها بالغربة والكآبة.. وكانت إجاباتها المرتبة.. وبكاؤها المتواصل.. وتشنجات عضلات وجهها أمور تدعو إلى الشعور بالأسف البعيد عن الشفقة.

فقد كانت عميلة الموساد تفلت من مأزق تلو الآخر.. وكأنما أيام الاعتقال كانت بالنسبة لها الفرصة الذهبية لاستعادة توازنها النفسى انتظاراً للمواجهة المصيرية.

فبمعقلها .. كانت هناك عمليات معقدة .. تتفاعل .. وتستببط .. وتحلل ..
وتختزن .. وتتوهج .

أما الضابط الفلسطيني فلم يكن من السهل أن يقتنع بصدق إجاباتها .. فهو
رجل مخبرات من الطراز الأول .. حاد الذكاء .. نال دورات استخباراتية عديدة
في محسر في كيفية تعقب الجواسيس .. وقرأ كثيراً في علم النفس والمنطق
وتصنيفات الأمراض النفسية .. وبرع في التعامل مع مرضى الخيانة والكذب ..
حتى اشتهر عنه امتلاكه لحاسة شم قوية تجاه الجواسيس وقدرته على
اخرافهم والحصول على اعترافاتهم بسهولة .

وبرغم كل هذه الخبرات .. وقف حائراً أمام تلك المرأة حادة الذكاء التي
استجمعت كل قواها وقاومته بشراسة لم يعدها .. (!) كانت تدافع عن مصيرها
باستماتة من يوشك على الفرق .. فهي تعرف أن مستجوبها أكثر منها ذكاءً ..
وأشرس منها صلابة وقوة ..!

ندان متضادان كل منهما يسعى إلى هدف مغاير ..!!

ثمانية عشرة ساعة من الاستجواب المتواصل و«أمنية» لم تخضع أو تنهار ..
أو حتى تبدل كلمة واحدة من إجاباتها التي صرحت بها عشرات المرات .
لكن .. كانت هناك حكاية كبسولة السم ..
وجاءت إجابتها عجيبه كل العجب .

فقد بررت وجود السم معها لإصابتها بالجنون الدوري Cyclothymia
الذي يسبب لها مضايقات وتشنجات تدفعها للتفكير بالانتحار .

ولما كان سم السيانيد غير متواجد بالأسواق أصلاً .. وتستخدمه أجهزة
الاستخبارات فقط لتصفية ضحاياها .. فقد جاءت إجابة «أمنية» مخالفة
للحقيقة .. وهنا اضطر الضابط الفلسطيني إلى تغيير أسلوبه في الاستجواب
والجوء إلى العنف .. وكان كارهاً لذلك جداً إلا أنه اضطر لذلك اضطراراً .. فهو
كما قال كان يتعامل مع حية ناعمة اللمس ... كلما حاول الإمساك بها انزلقت

فى سلاسة من بين أصابعه.

تقول «أمنية المفتى» فى أوراقها:

- بعد فشل الضابط الفلسطينى فى استنطاقى وهددنى باللجوء إلى القوة.. أوحيت إلى جسدى بأنهم لن يقتلونى بقسوة العذاب.. بل سيكونوا رحماء بى ليتمكنوا من مبادلتى بآخرين فى المعتقلات الإسرائيلية.. وظللت أردد هذه المقولة حتى تهيأت نفسياً لتحمل أقصى أنواع التعذيب.

وهذا ما حدث بالفعل.. فبعد عدة أيام من التعذيب الشديد.. توقفوا عن الضرب والصعق بالكهرباء والتعليق على أحد الأبواب وحرمانى من الشراب والطعام.

وجاءنى «هايل عبد الحميد»^(١) الملقب بـ «أبو الهول» للتحقيق معى.. وإذا كان محمد داوود عودة قد حصل منى على أية معلومات أو اعترافات مفيدة.. فقد نال «أبو الهول» مثلها أيضاً.. وبذلك فشل أعتى اثنين من رجال المخابرات فى الوصول إلى أى معلومة منى.. وأصابهما اليأس كل اليأس.

وفى إسرائيل كانت الأمور هناك شديدة السوء.. فنبأ اعتقالى كان بمثابة الكارثة التى حلت بهم.. وعندما تأكدوا أن شركائى الثلاثة لم يقبض عليهم كان ذلك يعنى أحد أمرين:

- أنتى لم اعترف أصلاً.

- أو أنتى اعترفت تحت التعذيب وتركت شركائى لاصطياد كل من يحاول الاتصال بهم.

وقع رجال الموساد فى حيرة بالغة.. وأمروا عيونهم فى بيروت بالابتعاد عن الثلاثة الطلقاء مهما كان السبب.. فهم يعلمون مدى شراسة المخابرات الفلسطينية

(١) هايل عبد الحميد: رئيس مخابرات فتح الأسبق.. وهو رجل مخابرات محترف وقدير.. وظل بصفة عامة بعيداً عن الخلافات الداخلية فى منظمة التحرير الفلسطينية.. اغتيل فى تونس مع «صلاح خلف» فى ١١ يناير ١٩٩١ بواسطة الإرهابى الدولى «صبرى البناء» الذى قتله صدام حسين فى أغسطس ٢٠٠٢ ببغداد.

فى معاملة الجواسيس الأجانب.. فما بالك والحالة هنا لعميلة أردنية خدعتهم وامتزجت بقادتهم وتجولت بكل الأماكن العسكرية المحظورة فى لبنان.

كانت المشكلة عند الموساد أكبر بكثير من مجرد سقوط إحدى عميلاتها.. بل فى حالة الهلع التى ستصيب بقية عملائهم فى لبنان إذا ما نشر الخبر فى الصحف.. وساعتئذٍ فقط قد ينكشف آخرون أفلت منهم زمام الجرأة وانكسرت صلابتهم.. وباتوا عرضة لهدم شبكات إسرائيلية عديدة فى بيروت تعمل فى أمان بعيداً عن الخوف الذى هو وراء الشجاعة وقاالتها.

تلك الشجاعة التى تكون هشة مصطنعة لا أرض صلبة لها أو جذران.. تماماً هى كالسراب الذى نراه أيام القيظ فى الصحراء.. مجرد وهم خادع..!

أما «أمينة المفتى» فيالها من امرأة عجيبة.. متماسكة.. فبرغم ابتلاعها طعم بقاء «موشيه» حياً ومبادلته بأسرى سوريين - تلك الخطة البارعة التى وضعها رجال الاستخبارات الفلسطينية - إلا أن شعورها بالذنب تجاه ما اقترفته بحق الأبرياء لم يطغ عليها أو يفتك بأعصابها فى ذلك الوقت.. إذ تقمصت شخصية أخرى أمام المحقق.. وبدأت مريضة بالوهم وما كانت فى حقيقتها إلا متخمة بالخيلاء Conceit والعظمة.. وسيطرت عليها أوهام العبقرية والذكاء والانتصار.. حتى أنها ترقبت مظاهر الاحتفاء ببطولتها فى إسرائيل.. وسترى كل ذلك فى عيني زوجها العائد من الأسر.

كانت تريد إشباع غرورها كأنثى تؤكد أنها أحبت بصدق.. وأدمنت عشق زوجها حتى الثمالة.. فمزقها غيابه إلى ألف قطعة.. تحولت كل واحدة منها إلى قنبلة من الغضب أقسمت أن تفجرها فى جسد العرب الذين أذلوها وحطموها.. لقد كان قلبها يفيض لوعة وحزناً.. وبدأ كبركان ينضث هممه فى وجه البشر.. وصراخ لوعتها على زوجها المفقود يصم أسماع الكون ويمزق سكوته.

وماذا ينتظر من امرأة وحيدة فى الحياة هربت مع زوجها اليهودى إلى الأعداء نابذة الدين والوطن والأهل.. فذهب الزوج ولم يعد.. تركها متضردة

الوجد تبكى ما ضاع من حاضِر ومستقبل.. لتتقلب إلى امرأة ضد الطبيعة.. تقتل بدم بارد بعدما فقدت مشاعر الرحمة ونبضات الإنسانية.. تقتل أبرياء لا ذنب لهم فى اختفاء زوجها.. لكن الإنتقام عندها لا يفرق بين أبرياء وغير أبرياء.. فقد أضيفت إلى غرائزها الطبيعية كبشر غريزة أخرى.. وهى الإنتقام.

وبدلاً من أن تفكر فى الندم على ما ارتكبته من أهوال.. استغلت حبسها الانفرادى لتفكر بهدوء كيف تستعد للمعركة القادمة.. وتشحن ذاتها بكل ما تبقى لديها من قوة ومناورة.. وتعيد تنظيم خطوط دفاعها وسد أية ثغرة أملاً فى الإفلات من المصير الذى ينتظرها.

لقد كانت حتى تلك اللحظة تعلم بأن أدلة خيانتها هشة لأنها مجرد تخمينات بلا دليل ويمكن تفنيدها بسهولة.. كذلك لم يضبط أحد أعضاء شبكتها فيعترف عليها وتحاصرهما الأدلة.

لذلك وطنت نفسها على المقاومة والاستبسال فى الإنكار والدفاع.. فحتماً سيضيقون بها ولن يكون أمامهم سوى طردها من بيروت إلى النمسا.. وربما إلى الأردن.. لكن وقعت مفاجأة مذهلة لم يتوقعها أحد مطلقاً.. وهى أن سلطات الأمن اللبنانية تدخلت.. وأجبرت الفلسطينيين على الإفراج عن المتهمه لتقوم هى بالتحقيق معها.. ونظراً لعدم وجود أدلة.. فالأمر سيتحول إلى نكتة..!!

هكذا خرجت «أمينة» المفتى من محبسها - وكما توقعت - منتصرة.. فالسلطات اللبنانية رأت أنها بريئة وأن «الشكوك» التى طالتها باطلة مجحفة.. فهى طبيبة عربية مخلصه لوطنها أيما إخلاص برغم زواجها من طيار يهودى أو بوذى.. وكان أن خيرتها ما بين البقاء فى «بيروت» أو المغادرة مع وافر الشكر.. فاختارت أن تعود إلى «فيينا» وطالبت بوثيقة سفرها التى احتجزها الفلسطينيون.

رأى القادة الفلسطينيون أن يسلموا «أمينة» للبنانيين احتراماً لسيادة الدولة اللبنانية فى وقت كانت تتصاعد فيه أزمة الحرب الأهلية.. وفى لقاء فى «عالية» مع وزير الداخلية الشيخ «بهيح تقى الدين» ألح عليه صلاح خلف «أبو إياد» منح

الفلسطينيين مهلة بسيطة للتحقيق مع «أمينة المفتى».. وبموافقة الوزير عادت عملية الموساد مرة ثانية إلى الجانب الفلسطيني للتحقيق معها والحصول على اعترافاتها كاملة.

رأت القيادة الفلسطينية ضرورة نقل «أمينة المفتى» بعيداً عن بيروت.. وكانت حجة «صلاح خلف» أن عملية النقل هذه ضرورية للغاية لأن «أمينة المفتى» استشعرت الأمان في محبسها الحالي بالقرب من اللبنانيين الذين لن يتركوها لفترة طويلة مقيدة بالجزائر داخل زنزانة كريهة بباطن الأرض.

وجيء بغارطة كبيرة للجنوب اللبناني انكبوا عليها يتفحصون عدة مواقع.. إلى أن انتهوا إلى موقع كهف يقع شرق جسر «القاسمية» بين صيدا وصور.. أطلق عليه اسم «كهف السعرة» الذي تقع على القرب منه بعض معسكرات منظمة التحرير.

نقلت «أمينة» إلى محبسها الجديد في عتمة الليل.. وكانت برغم ذلك مغماة ومكبلة من الخلف.. وهنا فقط اهتزت أعصابها بسبب افتقادها للرقابة اللبنانية وإمكانية تدخلها.

كان قد تم منع الطعام عنها لمدة يوم كامل.. وعندما سحبها جنديان مفتولا العضلات ليصعدا بها إلى الكهف سرت بأوصالها قشعريرة مخيفة.. فالمكان شبه خاو بلا حركة أو حياة.. ويزيدها هلعاً صوت الأقدام الصاعدة بها وهي ترتطم بالحصى وبالصخور.. ولما طلبت أن تأكل شيئاً أجيب بصمت مفزع.

وعن نقطة محددة بعد صعود شاق مرهق.. أزيل الكيس الأسود عن وجهها لتضطرم عينها في ظلام الليل بأشباح عدد جرار من الضباط والجنود يقفون في جمود وامتناع وتبدل الرشاشات من أكتافهم.

استسلمت للأيدى التي تدفعها بقسوة إلى عمق الكهف الممتد بباطن الجبل تبدو نتوءاته في ظلال الضوء الباهت المتحرك كجنيات الأساطير المرعبة.. وفجأة شق الصمت القاتل المحيط بوقع الأقدام صراخاً مربعاً مريعاً كأن هناك

من يُقَدِّ اللحم من جسد حى.. وكلما اقترب صوت الصراخ انحسرت إرادة العميلة الأسيرة وذهب عقلها .

تصيب منها العرق المالح.. وارتعد الجسد الناعم السخى بالأنوثة.. ومع دفعها إلى عمق الكهف الموحش فقدت إلى الأبد بصيص أمل فى النجاة.. وبينما يتشقق حلقومها الجاف المر الرضاب وينسحب منها أى أمل كانت تتمسك به.. انطلق بولها غصياً عنها ساخناً يزيد الجسد جفافاً وانطفاء.. ويولد لديها أقصى مشاعر المهانة والفرع وذلك عندما وقفت أمام مشهد مروع هو بحق أفظع من وصف مذبحة بشرية حية..!!

كانت هناك فتاة أجنبية علقت من ساقها إلى الحائط.. تمتد خيوط الدم من كل موضع فى جسدها لتتجمع فى النهاية فى بقعة متجلطة أسفل رأسها مباشرة.. وكان شعرها الأصفر الطويل المدلى يصل لقرب البقعة تفور صنابير الدماء المتفجرة.. وأفافت على صوت القائد وهو يقول لها كأنه صاعقة:

- أيتها العاهرة.. اخلعى ملابسك وأرتدى البنطلون والسترة «هكذا ترتدى المعتقلات لكى لا تظهر عوراتهن أثناء التحقيق أو التعذيب» وأشار إلى أحد الجنود:

- حل قيودها حتى تبدل ملابسها.. هنا.

انصاعت «أمينة» للأمر.. وسخرت فى مرارة من نفسها.. فقد كان جسدها العارى لوقت قريب يذيب العقول.. والآن تقف عارية وعشرات الأعين ترقبها لكنها تنظر إلى جسدها باحتقار:

- «يا لكم من أغبياء.. لا تدركون بالطبع لسع أنوثتى وجحيمها السرمدى.. لو أنكم مائة رجل لأسلمت لكم نفسى طواعية مقابل شربة ماء وشريحة خبز صخرى أسود».

هكذا قالت فى داخلها وهى ترتجف من الجوع والعطش والرعب.. ترمقهم فى انكسار ووهن وهم يدقون الحلقات الحديدية بالجدار ليعلقوها كالذبيحة كزميلتها الأجنبية.

فى الوقت الذى حمل فيه أحد الجنود فى تأفف ملابسها الداخلية المبتلة.. وصل طبيب بيزى عسكرى للكشف على زميلتها فاقدة الوعى فأعطائها بعض الأدوية وانصرف.. وما هى إلا بضع دقائق حتى انصرف الجميع وخيم الصمت والظلام على المكان الموحش.. وكان أنين الفتاة المتوجعة مرآة الرعب بعينها وصدى الرعب فى كهف السعرة.

هدها الجوع والعطش والخوف فنامت متهاكة وهى مربوطة إلى الحائط.. وقرب الفجر أفاق زميلتها وأخذت تهذى باللغة الفرنسية التى كانت تفهمها «أمنية».. وبعد حديث خافت بينهما اتضح لأمنية أن الفتاة الفرنسية واسمها «سيمون دوابرفيه» اعتقلت بتهمة التجسس لصالح الموساد.. ولمدة عشرة أيام تحت التعذيب الشديد والجوع لا تدرى ما مصيرها بعد ذلك.. وأعطت رقم تليفون أمها لأمنية لكى تتصل بها وتخبرها بما حدث لها.

وبيأس قاتل قالت لها «أمنية المفتى»:

- أنا لا أضمن لك ذلك يا عزيزتى.. فمصيبرى أنا الأخرى مجهول.. ومظلم كهذا الكهف الكرى.

وقالت لها «سيمون»:

- هل خدعك رجال الموساد مثلى..؟ لقد أقتعنونى بأن الفلسطينيين أغبياء.. وفى حالة انكشافى لن يتخلوا عنى أو يتركونى بين أيديهم.. وسوف يخطفوننى كما خطفوا النازى السابق «إيخمان» من الأرجنتين.

أجابتها «أمنية»:

- هم قالوا لى أكثر من ذلك «هكذا اعترفت وسقطت فى الفخ» ووعدونى بالألا يمسنى أحد بأذى مهما كانت ظروف اعتقالى.

همست لها «سيمون»:

- لا تعترفى لهم بأى شىء.. فكلما اعترفت طلبوا منك المزيد.. والمزيد.. وأطلقوا كلابهم البشرية تفتك بك فى ضراوة وتشف.

قطع الحوار بينهما وقع أقدام ثقيلة تقترب.. وسرعان ما ظهر ثلاثة ضباط يتبعهم عدد من الجنود يحملون الكشافات المبهرة.. تجاهلوا «أمنية» وأمر الضابط الكبير أحد مرافقيه أن يسأل الفتاة الفرنسية لآخر مرة عن أعوانها في لبنان.. ولما أجابت بالنفى وهى تقسم بصدق.. أشار بيده فى حركة ذات مغزى.. فاصطف أربعة جنود يحملون بنادقهم الآلية ثم أخذوا وضع الاستعداد.

ولما كرر الضابط عليها السؤال وجاءته الإجابة نفسها: صرخ فى نفاذ صبر: - استعداد تام... (١١).. اجذب الأجزاء..

سمعت طرقة جذب الأجزاء الحديدية.. وانطلق صوته مدوياً:

- إعدام يا سيمون أم هناك اعترافات تودين الإدلاء بها؟..
نفت أن تكون لديها أى معلومات لتعترف بها.

فصاح الضابط الكبير:

- اضرب..!!

وانطلقت الرصاصات إلى صدر الفتاة الفرنسية فسكن جسدها.. وبينما كانوا يجهزون لحملها إلى بعيد كان صراخ «أمنية المفتى» يشرخ جدران الكهف الصخرية.. ويتموج ملتاعاً فى جوف الليل إلى عنان الفضاء.. صراخ هستيرى متواصل يحمل الرعب وهى التى تعودت التوحش والانتقام والسادية.. وقال الضابط لقائده:

- سيدى.. ألا نعدم هذه المرأة هى الأخرى؟

أجاب:

- لو لم تتكلم قبل منتصف النهار فلن يكون هناك حلٌ آخر.

ومشيراً إلى الجنود فى قرف:

- ارموا هذه الجثة خلف الجبل.. بعد أن تدق رأسها بالصخور..!

وقعت عينا «أمينة» على مشهد جثة الفتاة القتيلة الفارقة في دمها.. وعندما سحبوها إلى الخارج كانت العميلة المروعة قد فقدت آخر قلاع دفاعاتها.. وصرخت في الضابط الكبير قبلما يبتعد.

- سيادة الضابط.. سأتكلم.. سأقول لكم كل شيء.. أخرجوني من هنا لأنني خائفة من الدم.. أخرجوني لأتكلم.

وعلى مدخل الكهف كانت الفتاة الفرنسية «فرانسواز كاستيمان»^(١) تقف في زهو وقد أدت دورها ببراعة منقطعة النظير.

لم يهتم الضابط الكبير باستغاثة «أمينة» حيث كان قد وضع خطة محكمة لانتزاع اعترافاتها بأسرع ما يمكن.. معتمداً أولاً على المتطوعة الفرنسية المخلصة في بث الرعب بقلب «أمينة» لتطويعها.. واللجوء ثانياً إلى وصلة بسيطة من التعذيب الشديد لتخور تماماً حيث اقتربت المهلة المحددة لتسليمها إلى السلطات اللبنانية.. أو تسليم ملف اعترافاتها.

لقد عمد الضابط الفلسطيني إلى تجاهل رغبتها في أن تعترف.. لتقته في أنها ستناور وتحيك الأكاذيب إذا ما أنصت إليها فوراً.. لذلك رأى أن التعذيب سيفك قيد إرادتها خاصة وقد كانت في حالة رعب هستيرية خوفاً على حياتها، فالتعذيب المصحوب بالهلع طريق سهل للسيطرة على نوعية معينة من الجواسيس الأذكياء الحاذقين إذا ما فقدوا منافذ الأمل والنجاة.

لقد أفاق «أمينة المفتي» على حقيقة كذب الموساد وإمكانية خطفها من لبنان حسبما قيل لها.. وآمنت - وهي ترى إعدام زميلتها بهذه السهولة - أن الاعتراف هو طريق الخلاص الوحيد من النهاية المرعبة.

أما وقد علقوها إلى السقف وتناوبوا ضربها بالسياط بدون رحمة^(١).. فقد

(١) ولدت «فرانسواز» في «نيس» عام ١٩٥٥ وعرفت باسم الشهرة «ريما نابلسي» بعد انضمامها إلى منظمة التحرير.. وفي ٢٣ سبتمبر ١٩٨٤ أثناء عملية فدائية ضد القوات الإسرائيلية قتلت «فرانسواز».. بينما استشهد أربعة فدائيين هم: سمير البصري.. ومحمد زهير.. وفتحى طاهر.. وطارق مصطفى.. وكان ذلك عندما ركبوا زورقاً مطاطياً بهدف الوصول إلى الشواطئ الإسرائيلية لأسر رهائن، واغرقوا زورقاً بحرياً للعدو الصهيوني.

تضاعف إصرارها على الاعتراف بكل شيء ليكف الجنود عن تمزيق جسدها.. لكنهم لم يرحموها.. وتناوبوا تعذيبها دون اكتراث بصراخها واستغاثاتها.. أو إلى حقيقة كونهم يضربون امرأة.. كانت عربية مسلمة تحولت إلى اليهودية بسبب الحب..!

وقرب الظهر انهمك أحد الجنود فى شد أسلاك كهربائية إلى بطارية إحدى السيارات.. وحمل أحدهم جهاز تسجيل متطور ذا سعة عالية.. فأوصل به الأسلاك ووضعها بالقرب من «أمانة».. فيما وقف الضابط الكبير يقلب بعض الأوراق بين يديه متجاهلاً همس الفتاة الواهن:

- سأموت عطشاً.. أسقنى.

فهوى على ظهرها سوط ثقيل ذاب صدها وسط صراخها المكتوم.
فسألها:

- من هو رئيسك المباشر فى الموساد..؟

أجابت على الفور:

- أشيتوف.. إيربيل أشيتوف.

أين جهاز اللاسلكى ونوتة الشيفرة..؟

- أمرونى أن أضعه بصندوق القمامة أعلى شقتى ببيروت.. وأن أحرق أوراق الشيفرة التى كانت بالمصحف.

- كم تقاضيت من الموساد أجراً مقابل التجسس علينا..؟

- لم آخذ حتى الآن سوى أربعة آلاف دولار.. وكنت أنفق من أموالى الخاصة بعدما صرفوا لى تعويضات زوجى المفقود.

- إياك أن تكذبى أيتها العاهرة.. إننا نعرف عنك كل شيء.. كل شيء بالتفصيل منذ خدعك «موشيه» وتزوجك وهاجر بك إلى إسرائيل تنفيذاً للخطة المرسومة (١) يخطئ من يستبعد لجوء أجهزة الاستخبارات - بما فيها العربية - إلى شتى الوسائل بما فيها الضرب الشديد لاستنطاق العملاء والخونة لكسر إرادتهم ومقاومتهم.

بدقة .. أفكنت تعتقدين أنه كان يحبك حقاً ..؟ خرقاء أنت إن كنت تصورت ذلك ..
فيهودى مثله لن يترك حسان قومه ليقترن بدمية مثلك باسم الحب.

واصل الضابط الفلسطيني أمام زهول عميلة الموساد :

- لقد وقعت أيتها الحمقاء الغبية فى براثن شبكة خداع متقنة أوقعتك بها
«سارة بيراد» التى هى بالأصل عميلة للموساد .. واستطاع رجالنا فى «النمسا»
الإجهاز عليها وتصفيتها .. وفى إسرائيل خدعوك عندما ادعوا بأن «موشيه»
انفجرت به الطائرة فوق سوريا .. فى حين أن «موشيه» نفذ خطتهم لخداعك
بمهارة فائقة.

هكذا كانت خطة الخداع الفلسطينية تكتمل فتزرع الشك فى صدر «أمينة» ..
وفى لحظات مر بيالها شريط حياتها فى «النمسا» منذ تعرفت بسارة وشاركتها
الشذوذ حتى قدمتها لـ «موشيه» فأحبته وتزوجته .. وفى نفسها تساءلت :

- ترى هل كان «موشيه» صادقاً فى حبه .. أم أن القصة كلها مجرد خدعة
لذيذة ستقودها إلى الإعدام والقذف من أعلى الجبل ..؟ لقد خدعتى «سارة»
هذا مؤكد .. نعم .. خدعتى وأحكم «موشيه» حلقة الخداع حول عنقى.

نجحت الخطة فى زعزعة ثقة العميلة فى قصة حبها .. ففقدت السيطرة
بذلك على مقاومتها وإرادتها وأعصابها .. كذلك فقدت الهدف الذى من أجله
جاءت وقتلت ودمرت .. ومن أجله باعت دينها ووطنها .. وبضياع ذلك الهدف
انقلب إيمانها بالانتقام من العرب إلى هداة رفض هى مزيج من الندم
والحسرة .. لكنها - فيما بعد - أوجدت مبررات أخرى لفعاليتها فى محاولة لتسكين
لسعة المرارة التى التصقت بعقلها .

كان الموقف عصيباً جداً عند عميلة الموساد .. فقد أوصلها الاستجواب إلى
مرحلة الشك فالترنح .. وليس هنا من شئ يلى ذلك سوى الانهيار .. فهى
اللحظة التى يكون فيها المرء فى أقصى حالات ضعفه .. ويأسه .. وقهره .. فلا
عقل إذن أو إرادة .. إنما انصياع كامل يغلفه الخوار.

القسم السابع والعشرون الاعتراف

«سيدى.. كنت وقتها غبية حمقاء.. أجمرت
فى حق وطنى ودينى وعروبتى.. وارتكبت
أفظع الجرائم لأننى كنت مهددة.. وخائفة..
شريدة لا وطن لى.. وصدقتهم وآمنت بما
كانوا يقولونه لى.. فقد أوهمونى بأننى
مطاردة من قبل المخابرات الأردنية.. وكنت
مفيبة لا أعى أين الحقيقة..»

وفى مذكراتها تصف أمينة بتلقائية شديدة تلك اللحظات الحاسمة من حياتها والتي عاشتها فى كهف «السعرانة» وجاء وصفها لتفاعلاتها النفسية الداخلية فى سرد رائع صادق يحمل كل صراعاتها من أجل الحياة.. معتمدة على أسلوبها الشيق فى الوصف والتحليل بلغة عربية.

تقول «أمينة المفتى»:

- عشت أسوأ لحظات حياتى بعدما أطلقوا الرصاص أمامى على الفتاة الفرنسية.. كانت الفجيعة على عمرى قاسية.. والألم النازف أقسى.. وقلت فى نفسى: «هكذا يموت الخونة».

تصورت لحظتى أننى سألقى ذات المصير.. وكأنتى كلب عقور لا ذكر لى ولا اعتبار.. وتعجبت من الضابط الشرس - أبو الهول - الذى أرعبنى اسمه.. فهو لا يريد أن يسمع اعترافى.. بالطبع كان لا يثق بى.. فزميله «أبو داوود» ضج منى وفشل من قبل.. لقد كان أبو داوود طيباً ومريحاً.. أما أبو الهول فخروف كلماته طلاقات رصاص بلا ترو أو صبر.

ارتعد بدنى وأنا أستعيد ملامح وجهه.. ووددت لو أنه يجىء ثانية لاستخلاص جوابى بنفسه.. فساعتئذ لن أنتظر منه سؤالاً واحداً.. نعم.. كنت قد قررت ألا أدعه يسألنى لأننى سأنطق فى الحال بكل شىء.. سأقول الحقيقة مهما كانت.. وبسرعة.. قبلما يثور ويأمر بإعدامى كما تقتل الحشرة.

لكنه لم يجئ هذا القائد.. بل أرسل بدلاً منه ضابطاً آخر يماثله فى الشراسة والقسوة.. بلا شك كان هذا الضابط أكفأ تلاميذه النجباء الذين انتهجوا أسلوبه.. لذلك ضغط بعنف على أعصابى.. أشعرنى بتفاهتى وحقارتى.. ورأيت الموت يتربص بى بين أصابعه حيث ينتظر الجنود الإشارة منه.. بل كنت أرى النهاية تطل من ماسورة مسدسه.

لقد كنت لا أنوى خداعه أبداً أو مراوغته.. سأقول كل شىء أمام جهاز التسجيل.. فلا فائدة من الإنكار والمراوغة.. ولا حيلة أمام سهام الموت المصوبة

تجاهى.. سأنطق وأنا أتمنى ألا أموت ويلقى بجسدى فى العراء بعد دق رأسى بالصخر.. نعم سأقول كل شيء فلم التكتم؟.. لقد اكتشفت مؤخراً أنني ضحية مؤامرة قذرة بطلها زوجى «موشيه» شخصياً.. بمعاونة «سارة» عميلة الموساد التى ربما تكون قد زودت إسرائيل بأسرارى الشخصية جداً.. وشذوذى.. وربما أيضاً تكون قد سجلت مواقف ضعفى هذه كوسيلة للضغط على مستقبل إذا فشلت عملية «موشيه» معى.

فى تلك اللحظات تمنيت ألا يقتلوننى.. وتضرعت إلى «الله».. نعم إلى ربى الذى عصيته وكفرت به أن ينقذنى من الموت لأرى «موشيه».. الحبيب الرومانسى الرقيق الحنون الذى خدعنى وأضاعنى بعدما نسج أروع قصة حب حلقت بها بين السحب ثم هويت إلى الأرض..!

كنت فى حالة صراع قاسية.. صراع بين حبى لموشيه وبين الحقيقة التى توضحت خطوطها ولاحت تفاصيلها.. وتساءلت: ماذا سأفعل معه لو أنه كان حياً بالفعل فى إسرائيل.. هل سأنتقم منه كما خدعنى أم سأضعف أمامه وأصفع؟.. لا أدرى.. فقد كنت مازلت لا أعرف النهاية..!!

سيطر الضابط المحقق على أعصابى فخضعت له فى استسلام وقد خارت إلى الأبد عزيمتى وهدت صريعة الرعب فى كهف موحش وسط الجبال.. تتبعث منه رائحة العذاب والموت.

وسألنى بمنتهى الإهانة:

- مع من مارست الجنس فى لبنان؟..

أجبت بصوت مرتعش:

- تسعة أشخاص.. لبنانيان يعملان معى هما مارون الحايك وعساف

ويعملان بشركة الهاتف.. وضابط فلسطينى فشلت فى تجنيده اسمه «أبو ناصر».. وخمسة أجانب.

- هؤلاء ثمانية فقط.. من التاسع.. ١٩..

أجبت بنبرة خجل شديدة:

- خديجة زهران.. وهى أول من عرفت فى لبنان وتملك محلاً للملبوسات

اسمه «الوار».

- أنت سحاقية إذن أم هى خديجة زهران..؟

- أنا وهى..!!

* * *

فى كتابه الشيق «قبل الإفاقة» يقول ضابط سوفيتى اسمه «ليونيد بوكوف» وهو خبير بشؤون المخابرات ومتخصص فى استجواب العملاء والجواسيس:

- عندما ينهار العميل المعقل ويعترف بأول معلومة بعد جهاد.. يكون كالكلب الذى يرتقى الجبل ويجر خلفه سلسلة طويلة متصلة الحلقات تمتد بين الحصى والصخور.. كأنما جلس ليستريح دق بعض حلقاتها ليسهل عليه الجر.

وقد يعتقد البعض أن اعترافات «أمنية المفتى» التى أدلت بها لا تنفى بالفرض.. فالمحقق الفلسطينى لم يسألها سوى خمسة أسئلة فقط.. لكن حملت إجاباتها اعترافاً صريحاً بالتعامل مع الموساد.. وكذا أسماء أعضاء شبكتها ووظائفهم.

وظهر عند ذلك فريق من رجال المخابرات الفلسطينية برئاسة العقيد «أبى الهول».. لمباشرة التحقيق مع الجاسوسة المنهارة دون منحها فرصة واحدة للراحة أو لاسترداد أنفاسها.. إنه التوقيت الذهبى لاستجلاء خفايا الأسرار التى يحملها الجاسوس المعتقل.. حيث يكون واقعاً تحت ظروف نفسية وجسدية مرهقة.. ومنحه فرصة - ولو قصيرة - للراحة معناه خسارة فادحة لا تعوض.. لأنه بذلك سيميد ترتيب أفكاره متحصناً بالأكاذيب التى درب عليها واسترجعها لحظة عمل العقل المعطل.

وكان لوصول العقيد الشرس وقع الصدمة عند «أمنية».. فهو رجل بلا قلب

أعدم الفتاة الفرنسية وأمر برميها خلف الجبل وتحطيم رأسها بالصخور لتتوه معالها.

صرخت أمينة عندما اقترب منها ويأمر أحد الجنود بتعرية ظهرها.. ولما انكشف الظهر بدت خطوط السياط الحمراء المتقاطعة فى كثافة.. فصرخ فى جنوده بصوت جهورى أجش:

- أكنتم تدللونها يا أولاد ال... ١٩

وانهال ضرباً وركلاً فى الجنود وهو يسبهم ويقول:

- كانت الفرنسية تمطر دماً.. أين دم هذه ال... يا أوغاد.. ١٩

ثم اتجه بوجهه ناحية الضابط الذى حقق معها وسأله:

- هل اعترفت بكل شىء..؟

أجابه الضابط:

- لم تعترف بعد سيادة العقيد.. إنها كاذبة ومراوغة.

صرخت «أمينة» فى وهن ومذلة وأدركت أن النهاية قد قرئت.. واستجمعت ما بق لديها من قوة وقالت للقائد:

- لقد اعترفت.. اعترفت بكل شىء يا سيدى حتى بأسماء شركائى..

اسألونى وسأجيب عما تريدون فى الحال.

ثم بكت يأساً وهى تردد مسترحمة:

- لا أريد أن أموت.. أن أموت.

رصت عدة مقاعد خشبية داخل الكهف على شكل نصف دائرة كان يتصدرها القائد وبجواره آخرون.. بينما أجلس «أمينة» على الأرض وبدأت تعترف تفصيلاً بقصة سقوطها فى شرك الجاسوسية منذ البداية.. البداية الأولى فى «فينا».. لقد كانت خائفة تماماً لا تملك إلا قول الصدق.. كل الصدق

أَمْلاً فِي النجاة من الموت.

وجاء في محضر استجوابها أنه في يوم الجمعة ١٢ أيلول ١٩٧٥ أخضعت «أمينة المفتى» للتحقيق واستجوابها العقيد «أبو الهول» بنفسه وبإشراف القائد «محمد داوود عودة» أبو داوود:

§.....

- أمينة داوود محمد المفتى.

§.....

- أردنية.

§.....

- ٣٦ عاماً.

§.....

- بكالوريوس علم النفس الطبى جامعة «فيينا» عام ١٩٦٣ ثم الماجستير فى علم الأمراض النفسية.

§.....

- كنت أسعى للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة «فيينا».. ولما فشلت فى ذلك تخوفت من أهلى فزوجت بطيار نمساوى يهودى اسمه «موشيه بيراد» هو بالأصل الشقيق الأكبر لصديقتى «سارة» وكنا قد ارتبطنا معاً بعلاقة حب دامت عدة سنوات.

§.....

- كانت ظروفى النفسية سيئة وتزوجت بإلحاح منه.. ولم أكن أعلم أن ذلك حراماً لأننى غير متدينة ولم تكن تعينى مسألة الدين فى شىء.

- ٩.....

- لا .. لم أشك فى نواياه مطلقاً وهو يلح فى الزواج منى.. فقد كان يحبني جداً ويسعى لإسعادي..

- ٩.....

- حتى الآن لا أعرف أن أهلى وقفوا على الحقيقة أم لا.. لكن عندما أخبرتهم من قبل برغبتي فى الزواج من نمساوى عارضونى بشدة.. برغم أنني كذبت وقلت لهم إنه مسلم ومن جذور تركية. لذلك هربت مع «موشيه» إلى إسرائيل خوفاً من أن تطاردنى أسرتى أو جهاز المخابرات فى الأردن.. وربما أجهزة الاستخبارات العربية أيضاً.

- ٩.....

- جاءت قصة هروبنا إلى إسرائيل عندما قرأنا بإحدى الصحف حكاية غريبة عن طبيب إيطالى يفتصب مريضاته فى حجرة العمليات بعد تخديرهم.. ولفت انتباهنا وجود إعلان بجوار هذا الخبر مباشرة يقول: إن دولة إسرائيل تطلب للهجرة إليها طيارين أوروبيين وتخصصات تقنية عديدة.. ولما كانت المزايا التى سيحصلون عليها مغرية جداً ومثيرة.. تحدثت مع موشيه وناقشنا الأمر معاً.. ونظراً لخوفى من مطاردة أهلى والانتقام منى وافق على الهجرة برغم معارضة أسرته.. لكن حتى لا يرفض طلب الهجرة لكونى مسلمة وعربية.. طلب منى «موشيه» أن أتهود.. واصطحبني إلى المعبد اليهودى حيث تم تعميدى وأصبحت يهودية.

- ٩.....

- لم أكن أكره كونى عربية.. لكننى كنت أكره مظاهر التخلف فى بلادى.

- ٩.....

- ربما كان يدفعنى لأن ألح عليه أكثر وأكثر.. فقد كانت لديه رغبة الهجرة على كل حال.. لكنه على ما يبدو أرادنى ألح فى ذلك.

- ٩.....

- لا .. لم يكن موشيه يهودياً متديناً .. فنادراً ما كان يذهب إلى المعبد .. لكنه كان يحب إسرائيل ويفتخر بلطف بتفوقها وتقدمها .. أما سارة فكانت مجنونة بإسرائيل وتذهب للاصطياف بها كل عام.

- ٩.....

- لا .. لم تستدعني السفارة الإسرائيلية في فيينا لمناقشتي قبل الهجرة حول موضوع تهودي أو خلافه .. فموشيه أعطاهم عنى كل ما يريدون من معلومات .. لكن استدعنتى جهات أمنية في إسرائيل لا أعرفها .. وربما كانت الموساد.

- ٩.....

- برروا لى حروبهم مع العرب وكيف أنهم يدافعون عن وطنهم ولا ييغفون عدواناً على أحد .. وأنهم يسعون إلى إقرار السلام مع جيرانهم ومع سائر العرب .. لكننى لم أكن مقتنعة تماماً بما يقولون «كانت تكذب وهى التى تهودت وارتدت عن دينها وخانت وطنها».

- ٩.....

- ذهبت إلى مكتب الأمن فى تل أبيب لمرة واحدة فقط .. وهناك قابلنى ضابط اسمه «أبو يعقوب» كان يزورنا بعد ذلك ويجلس معى كثيراً ليؤكد تبريراته وموقف إسرائيل من السلام.

- ٩.....

- اسمى الرسمى فى إسرائيل هو «آنى موشيه بيراد».

- ٩.....

- فى ١١ أبريل ١٩٧٢ أخبرونى بسقوط طائرة «موشيه» بصواريخ سورية وأن «دمشق» لم تعلن عن مقتله أو أسره .. بما يعنى أنه كان حياً وربما تمكن من الهرب والاختباء فى «الجولان».

- ٩.....

- لم يطلبوا منى صراحة التوجه إلى «سوريا» أو «لبنان» للبحث عنه.. لكنهم أوحوا إلى أنه ربما التجأ إلى أحد الكهوف الجبلية في انتظار نجدة.. ولكن من المستحيل أن يتم التوصل إلى مكانه بعدما فقد وسيلة الاتصال بإسرائيل لاسلكياً لتحديد موقعه.. كما توقعوا أيضاً أن تكون إحدى الجبهات الفلسطينية المنشقة عن المنظمة تحتفظ به سراً للمساومة عليه.. ولما أنبأوني بأنهم يبحثون عمن يتقصى أخباره في «دمشق» و «بيروت».. عرضت عليهم أن أقوم بدور ما لإنجاز هذه المهمة بواسطة جواز سفرى الأردنى.

- ٩.....

- لا.. لم يتم تدريبي في تلك الفترة على كيفية المعلومات بالشكل المتعارف عليه مخبراتياً.. لكنهم طلبوا منى فقط الاحتراس والحذر.

- ٩.....

- أنا لم أجند.. فأثناء وجودى فى «فيينا» اتصل بى ثلاثة إسرائيليون وأفهمونى أنهم جاءوا لتسهيل حصولى على إرث زوجى والتعويض الذى تقرر لى فى إسرائيل.

- ٩.....

- صرف تعويض يعنى أن «موشيه» مات بالفعل.. نعم هذه حقيقة لم أدركها وقتها.. لكنهم نصحونى بسرعة التحرك لتقصى أخبار منظمة التحرير فى «بيروت» والجبهات الأخرى، فقد استدل عليه من خلال الأحاديث العادية واختراق التنظيمات الفلسطينية.

- ٩.....

- تم تدريبي بعد ذلك لمدة أربعة شهور وعشرة أيام فى «فيينا».. حيث تعلمت كيف أكتب بالحبر السرى وأظهر الرسائل الواردة إلى.. كذلك أساليب التشفير

والتصوير وتلقط الأخبار.. والالتزم بالحس الأمنى.. إضافة إلى تحميص الأفلام والهرب من المراقبة والتميز بين الأسلحة المختلفة.. وأيضاً أساليب إثارة حمية المتحدث ليفشى أسرارهم.. ثم استقدموا من تل أبيب أحد الضباط المتخصصين فى تقوية الذاكرة وتخزين المعلومات والأرقام والأسماء والصور^(١).

- إذن كان المطلوب منك تقصى أخبار الفلسطينيين وليس أخبار زوجك؟

- تقصى أخبار الفلسطينيين بفرض تسقط المعلومات منهم عن «موشيه»^(٢).

-؟

- نعم.. حددوا لى بعض المهام بعينها.. حيث طلبوا منى التحرى عن مقار إقامة قادة المنظمات الفلسطينية.. والتغلغل داخل نسيج رجال المقاومة لمعرفة أخبارهم.. إذ ربما يكون لديهم معلومات عن «موشيه».

- هل هناك مهام أخرى أوكلوا بها إليك؟

- كل ما طلبوه منى هو التحرى عن إقامة قيادات المنظمات الفلسطينية ورجال المقاومة ولا شئ غير ذلك.

- وهل كانت لديك مهمما أخرى محددة؟

- أذكر أنهم كانوا يسمعون لمعرفة الطرق التى يسلكها رجال المقاومة للتسلل إلى حدود إسرائيل الشمالية.. كذلك الأعداد التقريبية للفدائيين.. وأسلحتهم.. وتدريبهم.. ومواعيد هجماتهم المرتقبة.. كذلك مخازن الإعاشة والذخيرة ومواقع تجمعاتهم.

- قلت أنهم هددوك فى «فينا» فى مايو ١٩٧٢.. كيف..؟

- هذا صحيح.. إذ قال لى أحدهم أننى الآن وحيدة لا حول لى.. وأن المخابرات العربية وليست الأردنية فقط تسعى ورائى.. ولأننى أصبحت يهودية

(١) الاعتراف بالتجسس هنا كان واضحاً جداً لا يحمل أية شبهة.

(٢) هنا كانت تحاول المراوغة والتشكيك فى مهمتها.

ومواطنة إسرائيلية فهم سيعملون على حمايتي في أي مكان مهما كلفهم الأمر.. وأمام هذا التهديد لم يكن أمامي أي خيار.. إذ تملكني الرعب خاصة وأنا صرت وحيدة غريبة وأرملة مكلومة.. فوافقت على العمل في لبنان حيث لن يشك بي الأمن هناك.. لأن لبنان كانت بلا جهاز أمن سرى تقريباً.. وكانت الحكومة التي تعتمد على السياحة بالدرجة الأولى لا تهتم بعمليات التجسس ولا يهمها سوى استقرار الأمور الداخلية.

- إذن أنت وافقت على العمل معهم من أجل حمايتك ليس إلا.. وذلك بعدما أقنعوك بأن لبنان يفتقر إلى أجهزة أمن قوية.. وبالتالي لم يكن تعاونك بفرض إنهاء موضوع الإرث والتعويض؟

- سيدى.. في الحقيقة لم أكن أفكر كثيراً في الإرث بقدر ما كنت أبحث عن أمانى الشخصى والعثور على مكان آخر يأوينى وأشعر فيه بالأمان.

- لذلك تسلمت من الموساد أربعة آلاف دولار فقط - وكنت تنفقين من جيبك كل تلك المدة..؟

-

- أين تدربت على استخدام جهاز اللاسلكى؟

- فى أحد المقرات الخاصة بالموساد.

- متى كان ذلك..؟

- فى منتصف سبتمبر حتى أكتوبر ١٩٧٢.

- من قام على تدريبك؟

- ضابط مهندس عراقى الأصل اسمه يوسف بن بورات.

- هل كانت الأيام القليلة تلك كافية لتدريبك على الجهاز..؟

- نعم.. فبرغم أن الجهاز تقنياً كان متقدماً جداً.. إلا أنه كان بسيطاً فى

طريقة بثه.. وسريعاً فى ذات الوقت.. حيث كانت رسائل الطويلة تستغرق عدة ثوانٍ فى بثها.

- وما سر صفحات المصحف الناقصة؟

- كانت توجد مكانها أوراق الشيفرة التى أستعين بها فى التراسل.

طلبت أمينة المفتى عند ذلك كوباً من الماء.. فجئ لها به فى الحال.. حيث لم يعد هناك أدنى شك فى أنها كانت خائفة القوى والإرادة.. ولن تتوانى عن الإدلاء بكل ما لديها من معلومات حفاظاً على حياتها التى بدت لها بلا ثمن فى ذلك الكوخ الجبلى الموحش.

سئلت:

- كيف تعرفت بمانويل ومارون..؟

- عرفتني عليهما خديجة زهران بسبب حاجتى لتكوين تليفون.

- وكيف جندت الثلاثة لمعاونتك؟

- تعرفت أولاً بمانويل ثم جاءنى بمارون بعد ذلك ثم عملوا جميعاً معى.

- هل مارس مانويل ومارون الجنس معك..؟

- نعم.. وكان ذلك قبل أن يعملوا معى.

- هل نصحك ضابط حالتك الإسرائيلى بذلك..؟

- لا.. فعلت ذلك لأضمن ولاءهما لى عندما أجندهما.

- وهل تم ذلك بالفعل..؟

- بدأت أولاً مع مارون واستخدمت معه نظرية الصدمة الفجائية والتخويف لأضمن سيطرتى عليه.

- وخديجة زهران.. هل كانت شريكة لك منذ البداية؟

- لا.. إنها حتى لم تكن تعرف بهمتي إلا منذ فترة وجيزة.. لكنها سبق أن ساعدتني قبل ذلك بحسن نية..١
- كم أنفقت على شركائك الثلاثة من أموال؟..٢
- لا أدري بالضبط.. لكنني على ثقة بأن «مارون» تسلم مني ما يزيد عن الثلاثة آلاف ليرة قبلما ينضم إلي.
- تقصدين قبل أن يكتشف أنه يعمل لصالح الموساد.. وماذا قدم لك «مارون»؟
- عرفني أين يتواجد «على حسن سلامة» وأمدني بأرقام تليفونات مكتبه ومنزله السرية.. وهذا ما تم أيضاً بالنسبة للقيادات الفلسطينية.
- و «مانويل»؟..٣
- كان يشارك «مارون» الذي تولى مسؤوليته.
- وما دور خديجة زهران معك؟..٤
- كانت تمدني ببعض المعلومات التي تجلبها من زوجات الضباط الفلسطينيين من المترددات عليها.
- وهل حصلت بالفعل على أية أسرار من خلال تنصتك على تليفونات القيادات الفلسطينية؟..٥
- في الغالب لم يكونوا يتكلمون سوى بلغة الشيفرة التي لم أكن أعرفها وفشلت في فهمها.
- و«سلامة» هل طلب منك اغتياله؟..٦
- لا.. مطلقاً.. لم يطلبوا مني ذلك.. لكنهم أمروني أن أوطد علاقتي به لأقصى درجة وأن أقوم بتصويره إن استطعت.
- يفهم من ذلك أنهم أمروك بأن تستسلمي له إن سنحت الظروف بذلك؟
- نعم.

- وهل مارست الجنس معه..؟
- لا.. لا.. فقد كانت لديه ملكة جمال الكون.
- وهل كان يعلم أنك تعرفين شخصيته الحقيقية..؟
- لا.. فقد كنت أظاهر بالفباء أمامه بحيث لا يشك في أنني أعرف من هو بالضبط.
- ولماذا طلبوا منك تصويره.. لا اغتياله..؟
- لأنهم كانوا يجهلون ملامحه وألحوا كثيراً في ذلك.. حيث كانت هناك نية اغتياله في أي مكان وبواسطة رجال محترفين بجيدون عمليات التصفية الجسدية.
- و«أبو ناصر»؟
- «أبو ناصر».. إنه لا يعرف أي شيء عني سوى أنني طبيبة متطوعة.. لقد كنا أصدقاء فقط.
- هل مارستما الجنس معاً..؟
- ثلاث مرات فقط قبل أن يختفى فجأة.. ثم علمت بعد ذلك أنه سافر لبعض المهام في قبرص.
- من هم الأجانب الخمسة الذين ضاجعتهم..؟
- إنهم رجال من جنسيات مختلفة يعملون لصالح «الموساد» وكانوا يجيئون كل بمفرده إلى بيروت، بغرض تسلم الأفلام والخرائط والتقارير التي بحوزتي قبلما يمدونني بجهاز اللاسلكي.
- وأين كانت تتم اللقاءات بينكم..؟
- في حجراتهم بالفنادق.. ومرة واحدة في شقتي.
- هل من الممكن أن تدلينا على أسمائهم الحقيقية..؟

- أنا لا أعرف لهم سوى أسماء حركية .. وعادة كانوا يحملون جوازات سفر مزورة .. وأذكر أن أحدهم كان اسمه «بيتر» وآخر اسمه «ريتشارد».
- وهل طلب منك ممارسة الجنس مع هؤلاء الخمسة ..؟
- أبداً .. فما حدث لم يكن مرتباً له وجاء بشكل عفوى .. بدليل أن ثلاثة آخرين جاءوا والتقيت بهم ولم نمارس الجنس معاً على الإطلاق.
- هل كان بينهم عرب ..؟
- مغربي كان يعيش في تطوان قبلما يهاجر إلى إسرائيل .. وكان يحمل جنسية أوروبية لا أذكرها .. وهو ذلك الشخص الذي يدعى «بيتر» أما اسمه الرسمي في المغرب فهو «عازار».
- هل زرعت أجهزة تنصت بمكتب «ياسر عرفات» ..؟
- كانوا يفكرون في ذلك وناقشوني كثيراً في هذا الأمر عندما كنت في «إسرائيل» .. لكنني لم أفعل.
- هل أعطوك أية أجهزة لاقطة ..؟
- حاولوا .. بل ألحوا في ذلك .. لكنني تخوفت ورفضت.
- ما الدور الذي قمت به لمحاولة اغتيال القائد «أبو إياد» في أكتوبر ١٩٧٣؟
- كنت في جنوب لبنان في ذلك الوقت بفرض إسعاف الجرحى الفلسطينيين .. وحدث أن جاء «أبو إياد» لزيارة أحد المواقع .. فأبلغت «الموساد» على الفور وأرشدتهم عن المكان تحديداً بواسطة جهاز اللاسلكي المطور الذي كان يعمل على بطارية السيارة .. وجاءت الطائرات بالفعل لتضرب الموقع الذي أرشدت عنه.
- أجهشت بالبكاء وأردفت:
- سيدى .. كنت وقتها غبية حمقاء .. أجرمت في حق وطني وعروبتى ..

ودينى.. لقد ارتكبت أفظع الجرائم لأننى كنت مهددة.. وخائفة.. شريفة لا وطن لى.. وصدقتهم وآمنت بما كانوا يقولونه لى دون أن أفكر وأتحسس طريق الصواب.. فقد أوهمونى بأن المخابرات الأردنية تطاردنى بغية اغتيالى.. وكنت مغيبة لا أعى أين الحقيقة.. أو لأى طريق أقاد.

- تحولت مهمتك إذن إلى عملية تجسس بعيداً عن الهدف الذى كنت تسعى إليه وهو البحث عن زوجك المفقود؟

- نعم.. انتفى هدف البحث عن «موشيه» شيئاً فشيئاً حتى تحولت إلى جاسوسة خائنة تعمل لصالح الموساد.. لقد كنت أمدّهم بالمعلومات ليس حباً فى «إسرائيل» أو كراهية للعرب.. بل لأضمن الوطن والأمن بعدما ضيعت نفسى بفبائى.. ووقعت أسيرة مؤامرة أحبكت «إسرائيل» حولى شباكها بمساعدة «سارة» وربما «موشيه» أيضاً.

هكذا جاءت اعترافات عملية «الموساد» فى وضوح وصراحة.. حيث حرصت على أن تجيء إجاباتها تحمل بين طياتها كل ما يريده الفلسطينيون من إجابات شافية عن قصة تجسسها.. ولم يكن ذلك إلا لمحاولة إنقاذ حياتها التى بدت رخيصة بلا ثمن فى ذلك الكهف الموحش.

وفى صفحة بمستهل الملف الخاص بالعملية كتب العقيد «أبو الهول»:

- الجاسوسة الإسرائيلية أمينة داود المفتى أخضعت تماماً للسيطرة الكاملة.. وقانعة بوجود زوجها اليهودى «موشيه بيراد» حياً.. وأنه قد يكون له دور رئيسى هو وشقيقته «سارة» فى حبك قصة الخداع قصداً لخدمة جهاز «الموساد»..

أهم إصدارات المؤلف

- ١ - أمينة المفتى.. أشهر جاسوسة عربية للموساد .
- ٢ - جواسيس الموساد العربى.. قصة سقوط أشهر ٢٥ جاسوساً.
- ٣ - العملية ٠٠٧.. وهروب أول طائرة حربية عربية لإسرائيل.
- ٤ - أحمد الحلاق.. أول جاسوس أعدم فى لبنان.
- ٥ - انشراح موسى.. أعدمها السادات فأعتقها بيجن.
- ٦ - حراس الهيكل.. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الأول: الخطف.
- ٧ - حراس الهيكل. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الثانى: الاغتيالات.
- ٨ - حراس الهيكل.. العمليات الخارجية للموساد فى نصف قرن. الجزء الثالث: الفضائح.
- ٩ - قصتى مع الموساد.. مذكرات جاسوس الإسكندرية.
- ١٠ - رصاصه الرحمة.. اللحظات الأخيرة فى حياة الجواسيس.
- ١١ - الملازم أول دينا عمر.. جندها زوجها فجندت أولادها الثلاثة.
- ١٢ - جاسوسات عاشقات.. «سلسلة فى ٢٠ جزءاً».
- ١٣ - مذكرات منسية لأخطر جاسوسة عربية للموساد.
- ١٤ - ماذا حدث فى بغداد.. قصة الخيانة والسقوط.
- ١٥ - التاريخ السرى للصحاف.. بين المخابرات والخارجية والإعلام.
- ١٦ - الحرب العالمية الثانية.. أحداث قديمة من منظور عصرى «موسوعة» (١) - دار

الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

١٧ - معارك فاصلة في الحرب العالمية الثانية (٢) - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

١٨ - قيادات وزعماء الحرب العالمية الثالثة (٣) - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

١٩ - الطابور الخامس.. جواسيس الحرب العالمية الثانية (٤) - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

٢٠ - موسوعة أشهر المنتحرين في العالم «مشارك» - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

٢١ - قراءة جديدة في مذكرات هتلر ونهايته - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

٢٢ - الوجه الآخر لأدولف هتلر «مشارك» - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

٢٣ - تشي جيفار.. نهاية بطل وميلاد أسطورة «مشارك» - دار الكتاب العربي دمشق - القاهرة.

٢٤ - أبو عمار.. عاش مهموماً ومات مسموماً.

٢٥ - البكاء الصامت.. دراسة سيكولوجية عن دموع العظماء.

٢٦ - الأمير لكيافلي «تعريب مشترك».

مراجعة وإعداد:

١ - التسلسل الزمني لتاريخ العالم «من.. قبل الميلاد حتى ٢٠٠١م».

٢ - أساطير اليهود.

٣ - كيف تكسب ثقة الناس وتؤثر في الآخرين..؟

٤ - ٤٠٠٠ حقيقة مذهلة.

فهرس المحتويات

5	شكر وتقدير
7	الإهداء
9	مدخل
21	القسم الأول: الأردن (١)
41	القسم الثاني: فى النمسا (١)
63	القسم الثالث: فى الأردن (٢)
79	القسم الرابع: فى النمسا (٢)
97	القسم الخامس: فى الأردن (٣)
107	القسم السادس: فى النمسا (٣)
117	القسم السابع: فى الأردن (٤)
125	القسم الثامن: فى النمسا (٤)
139	القسم التاسع: فى الأردن (٥)
149	القسم العاشر: فى النمسا (٥)
165	القسم الحادى عشر: فى الأردن (٦)
171	القسم الثانى عشر: فى إيطاليا (١)
179	القسم الثالث عشر: فى النمسا (٦)

185 القسم الرابع عشر: الهروب إلى الخوف
197 القسم الخامس عشر: فى إسرائيل (١)
215 القسم السادس عشر: فى النمسا (٧)
221 القسم السابع عشر: فى سوريا ولبنان (١)
231 القسم الثامن عشر: فى النمسا (٨)
239 القسم التاسع عشر: فى لبنان (٢)
259 القسم العشرون: فى النمسا (٩)
265 القسم الحادى والعشرون: فى إسرائيل (٢)
277 القسم الثانى والعشرون: فى لبنان (٣)
289 القسم الثالث والعشرون: تكليفات ومهام
301 القسم الرابع والعشرون: الغرفة السرية
313 القسم الخامس والعشرون: السقوط
321 القسم السادس والعشرون: الانهيار
339 القسم السابع والعشرون: الاعتراف
357 أهم إصدارات المؤلف